٢٠٠٢

مهرجان القراءة للجميع

مكتبة الأسرة

مع الضاحكين


الهيئة المصرية العامة للكتاب

حـزين عمـر

الأعمال الخاصة

مع الضاحكين

حُزين عمر



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٢
مكتبة الأسـرة
برعاية السيدة سوزان مبارك
سلسلة الأعمال الخاصة

مع الضاحكين
حزين عمر

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنـان : **محمـود الهندى**
الإخراج الفنى والتنفيذ:
صبرى عبدالواحد
المشرف العام :
د. سـمير سرحـــان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقـافـة
وزارة الإعـلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزارة الشــباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

مع الضاحكين

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى: الخط الدائرى والمستقيم!

التقنية: **ألوان رصاص على ورق**

المقاس: ١٧ × **٢٤ سم**

محمود الهندى (١٩٤٣ -)

فنان تشكيلى أقام العديد من المعارض علي فترات متباعدة، ثم اختار أن يقيم معارضه داخل صفحات الكتب، وقدم تجربة جديدة فى الكتاب المصرى العربى حيث توازى إبداعه مع الأعمال الروائية والقصصية والشعرية فى متن كتاب واحد، وهى تجربة بدأها منذ أكثر من ربع قرن.

أشرف فنياً علي عدة مجلات: القاهرة، بنت الشرق، اليسار، المسرح، فصول، تياترو، التشريع المالى والضريبى. واهتم فى الفترة الأخيرة بالأطفال (مجلة حمد القطرية)،وأنجز مجموعة من كتب الأطفال لدور النشر المختلفة.

على سبيل التقديم :

نعم استطاعت مكتبة الأسرة باصدراتها عبر الأعوام الماضية أن تسد فراغا كان رهيباً فى المكتبة العربية وأن تزيد رقعة القراءة والقراء بل حظيت بالتفاف وتلهف جماهيرى على إصدارتها غير مسبوق على مستوى النشر فى العالم العربى أجمع بل أعادت إلى الشارع الثقافى أسماء رواد فى مجالات الإبداع والمعرفة كادت أن تنسى وأطلعت شباب مصر على إبداعات عصر التنوير وما تلاه من روائع الإبداع والفكر والمعرفة الإنسانية المصرية والعربية على وجه الخصوص ها هى تواصل إصداراتها للعام التاسع على التوالى فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية بالنشر الموسوعى بعد أن حققت فى العامين الماضيين إقبالاً جماهيرياً رائعاً على الموسوعات التى أصدرتها. وتواصل إصدارها هذا العام إلى جانب الإصدارات الإبداعية والفكرية والدينية وغيرها من السلاسل المعروفة وحتى إبداعات شباب الأقاليم وجدت لها مكاناً هذا العام فى «**مكتبة الأسرة**» .. سوف يذكر شباب هذا الجيل هذا الفضل لصاحبته وراعيته السيدة العظيمة/ **سوزان مبارك**..

د. سمير سرحان



المبتدا والخبر ... !!

اللهم باسمك نبتدئ .. يامن خلقت لنا الأنوف لنشم بها العطر فننتشى ، وخلقت لنا الآذان لنسمع الموسيقى فنطرب ، وشققت لنا الشفتين فى وسط الوجه لنبتسم ونضحك ، ولولاهما لكانت وجوهنا مثل الكرة (الشراب) !! وغرست فينا الرجلين لنرقص بهما (على واحدة ونص) أو رقصا صعيديا ، ومنا من لا يجيد هذا ولاذاك فيرقص بحاجبيه إذا تبختر أمامه جسم مياس – يقولونها بالعامية (مايص) – وقد قص مقص الحائك نصف ملابسه فقفزت إلى الركبتين ، وأطار الهواء « الشقى » بعضاً منها فهجرت مواقعها .

إننا جميعا نبتسم بسمة صافية ، أو حالمة ، أو طفولية ، أو آسرة ، أو .. صفراء ـ والعياذ بالله!! ـ والبسمة الصفراء كفصل الخريف تحفر على الشفتين ذبولاً ، وعلى الوجه شيخوخة .. وقد يقصدها صاحبها ، وقد تقصده هى فتلتصق بوجهه ، فإذا شاء أن يبتسم فلا يستطيع أن يرسم غيرها .. وحينها لا يحبه الناس ولا يقبلون عليه .. والأهم من الناس ومن الإقبال أن النساء تهرب منه . !!

اللهم فلا تجعلنا ممن تهرب النساء منه ، بل يحطنه من المهد إلى اللحد بغير انقطاع ولا امتناع .. فكل الناس محاطون بالنساء حين مولدهم ، سواء أكنّ ممرضات أم طبيبات أم قابلات أم جارات أم بنات الجيران .. وكل رجل محاط بالنساء أيضا فى أيامه الأخيرة بهذا العالم : يبكين عليه ، ويندبنه ، ويقلن له : يا جملى ، يا أبا زيد ، يازناتى خليفه ، ياسلطان زمانك ، من بعدك للعيال ؟!! وحين ذِكْر هذه العبارة الأخيرة تلف عين المرأة دائريا ترمق كل الرجال المعزين

لترى أكثرهم شبابا ووسامةً ، وأكبرهم عمامة ، وأوسعهم جبةً وقفطانا ، وأحدثهم مداساً . فإذا استقرت عيناها عليه راحت ترفع منديلها لأعلى وعلى الجانبين تلوح به تجاهه ، فتبدو تقاسيم الجسم « مزهزة مربربة » تحت الملابس السوداء .. ينِدّ الصدر للأمام ، ويندفع العجز للخلف ، ثم يرق صوتها في الولولة وتنقطع حشرجته فيبدو منثالا منساباً حاملا كل عبق الأنوثة وسحرها ،، وإذا لم يكن الرجل الذى رمقته عين زوجة الراحل من ثابتى الأقدام فى مثل هذه المواقف ، ومن الخبراء فى المعازى والمآتم سقط فى هواها ، وبعدشهر ذاق لظاها، وبعد عام كان هو عريس المأتم !!

وقد كان لأحد المتوفين صديق صدوق ، ما إن علم بوفاته حتى قدم إلى زوجته مواسيا ، مؤازراً فى المحنة ، عارضاً مساعداته بغير حدود .. ثم قال للزوجة: أريد أن أعرف أحب الأشياء وألمنها لدى المرحوم لاحتفظ بها على سبيل الذكرى . فقالت له : حقاً .. لقد كنت أنا أحب الأشياء لديه . !!

إننا نعوذ بالله أن نكون ممن يتكأكأ عليهم النسوان وقت موتهم ، لكنا نريد أن يتكأكأن علينا – لابد من التكؤكؤ هذا !! – فى شبابنا وكهولتنا .. نريدهن يعلقن فى سراويلنا ، وكرافتاتنا ، وعلى أزرار قمصاننا .. فهن النعمة ، والرحمة، والبر ، والوفاء ، والضحكة العالية .. مادمنا لم نتزوجهن . !!

★ ★ ★

وليس غريبا ، ولا مبالغاً فيه أن الضحكة الحلوة تَلُمُّ النسوان ، ومن لا يضحك لا يحبُّ ، ولا يحبُّ ، بل وقد يطعن فى انتمائه لجنسه من الرجال ، فقد قال مفتى البصرة وأحد رجال الحديث فيها : حماد بن سَلَمة (توفى ١٦٧) قال : « لا يحب الملح إلا ذكران الرجال ، ولا يكرهها إلا مؤنثوهم » .(١)

ومادام هناك علاقة – كما قال مولانا ابن سلمة – بين الذكورة والضحك فيمكننا معرفة سر تكدس البشر فى مصر الضاحكة – رغم النكبات ! – وسبب كل هذه الأزمة السكانية ، والتهافت على المأكل والمشرب والملبس والمسكن هو أننا نضحك ، فلا نموت إلا بعد أن نماطل عزرائيل كثيرا وننتج ثمرات بشرية وفيرة .. ولن تنجح كل وسائل الدولة فى قطع دابرنا ، ووقف تناسلنا إلا إذا

استوردت – من أمريكا – مليون طن من خيوط الجراحة وسدت بها « أفواه» المصريين الموجودين حاليا والجيل القادم .. أما الجيل الثالث فسوف يكون «مكتوماً» بالوراثة . !!

وعلى الرغم مما يقال بأن بعض الحيوانات تضحك ، فإن مما يوصف به الإنسان أنه حيوان ضاحك .. وعلى قدر إنسانيته يضحك ، وعلى قدر امتداد جذور حضارته يبتسم .. والإنسان المصرى العربى قابع فى أرضه منذ ملايين السنين ، وصانع للحضارة منذ آلاف السنين . وقد مر عليه العادلون كثيرا وذهبوا، وهو باق . ومر عليه الظالمون أكثر وذهبوا ، وهو باقٍ ، ودنس دوره وأقداسه المحتلون كثيرا وفنوا ، وهو باقٍ بكل حدوده شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ، وبنيله ، ومواويله ، ونخيله ، وأهرامه ، ومساجده ، ومعابده ، وقلاعه .. فعلا م يبكى؟!!

ولِمَ لا يضحك من الأحداث الجليلة ، وعلى الظالمين الكبار الصغار ، ومن الفقر؟!

لذا فقد خلّف لنا المصرى العربى – وقبل هذا ليس متيسرا لنا معرفته باستثناء نماذج فرعونية قليلة جداً تحدث عنها د. شوقى ضيف فى كتابه (الفكاهة فى مصر) الصادر عن دار المعارف– خلّف لنا رصيداً عظيما من أنواع الضحك والمضحكات : كالنكتة ، والفكاهة ، والطرفة ، والمُلْحة، والدعابة ، والنادرة ، والقافية ، و«المقلب» ، والزجل ، والشعر الحلمنتيشى ، والقصص الضاحك ، ومنذ بدأت البسمة العربية فى مصر منذ الرقعمع وابن مكنسة وابن دانيال وابن سودون وسلسلة من خفة الظل تسرى من جيل لجيل على مدى خمسة قرون لم تنقطع ونلمح فيها درراً فكاهية من سائر طبقات المجتمع : أعلاه وأدناه .. أفقره وأثراه .. من السياسى والأديب إلى الجزار والممثل !! نذكر د.بكير الحكيم، رشاد «بك» القاضى ، محمد «بك» البابلى ، حافظ «بك» إبراهيم ، ساويرس «بك» المويلحى، دبشة الجزار ، بديع خيرى ، نجيب الريحانى ، إبراهيم ناجى ، إبراهيم عبدالقادر المازنى ، عبد الحميد الديب ، إمام العبد ، على الكسار، كامل الشناوى ، مأمون الشناوى ، أحمد رجب ، عادل إمام ، محمد مستجاب، ومن آلت إليه زعامة الإضحاك فى مصر هذه الأيام : محمود السعدنى .. ثم نخبة عظيمة من فن عظيم هو الكاريكاتير .

ولكل من هؤلاء المضحكين العظام طعمه ، ولونه ، وثقافته ، وموهبته .. وجميعهم مشتركون فى حدة الذكاء ، وفى السخط على المجتمع ، وفى رفع يد التغيير بالكلمة ، فكأن بنادقهم ومدافعهم مجرد « دبابيس» يغرسونها فى جسد الظلم بغير ملل ، حتى يأتى يوم يتخرّق جلده جميعا ، وينزف دمه ، ويسقط .. وحينها لن يتوقفوا عن مهمتهم الاختيارية ، بل سينتقلون إلى أمراض أخرى يعالجونها . وهذا الانتقال ليس على سبيل التنبؤ بل هو واقع فعلا من خلال معايشتنا لفن الضحك لدى عدة شعوب : كالصين ، وإيطاليا ، وانجلترا .. فالمضحكات هناك تركز على عيوب إنسانية عامة كالطمع والغباء والكذب والجهل .. أما السخرية العربية - وما جرى مجراها - فيغلب عليها الطابع السياسى ، مع أنها لا تغفل المضحكات الأخرى .. إن من المتيسر للباحثين أن يدركوا طبيعة شعبٍ ما من خلال ما يضحكه .

★ ★ ★

هذا هو « مبتدأ » لقائنا « مع الضاحكين» .. وقد قلت : (الضاحكين) ولم أقل (المضحكين) لأنهم يضحكون الناس ويضحكون معهم وعليهم . وهم فى هذا كمثل «الذين يقاتلون فى سبيل الله فَيَقْتلون ويُقْتلون» .. فمن هؤلاء المضحكين من مات من « ضحك الناس عليه » مثل عبدالحميد الديب ومجدى فهمى . ولكنى لست ممن «يقتلون ويقتلون» وإن كنت أحرض على هذا بنارى الكلام شعراً ونثراً ، وفى الأفراد والجماعات . فآمر الناس بالقتال وأنسى نفسى .. مقتدياً فى هذا بإمامنا الصحابى الجليل حسان بن ثابت الذى قال :

لنا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يلمعن فى الضحى

وأسيافُنَا يَقْطُرْنَ من نجدةٍ دَمَا

وحين خرج المسلمون يقاتلون الأعداء فى غزوة الخندق تركوه لحماية النساء فى أحد الحصون داخل المدينة لعجزه عن المجالدة.. وحين طاف أحد اليهود

بحصن النساء ليتكشف ثغرة ينفذ منها وقومه إليهن ، ناشدت النسوة « حامى الحمى » حسان بن ثابت أن يقتله قبل أن يفتك بهن ، فخاف ورفض التعرض له .. فقامت النساء إلى اليهودى بأعمدة الحديد والخشب وقتلنه ، وحسان يتفرج عليهن محيياً شجاعتهن ، مع أن القتل لم يكن بأسياف حسان التى تقطر « من نجدة دما» .. وقبله قال قدوتنا النابغة الذبيانى :

هلاَّ سألتِ بنى ذبيان عن نسبى

يومَ الطِّعان إذا ما احمرت الحَدَقُ

وحين شم رائحة الاعتداء عليه من النعمان بن المنذر هرب بجلده ، وظل قابعا فى صحرائه مخاطبا السماء والأرض والرمل لتطلب من النعمان الصفح عنه .!!

وبعده قال شيخنا بشار بن برد :

إذا ما غضبنا غضبةً مضريةً

هتكنا حجابَ الشمسِ أو تقطر الدما

فهل رأيت يابشار هذه الغضبة ، وحجاب الشمس ، والدم الذى يقطر ؟! ثم مالك أنت ومضر، ولست سوى مولى « غلبان» لا لك (فى الثور ولا فى الطحين) .!!

وفى سلسلة أئمتنا العظماء المقاتلين الشجعان ينفرد بطلنا المتنبى حين نجح فى أن يجعل بنى ضَبَّة « يقتلونه» !! وهو الذى قال :

الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفنى

والسيفُ والرمحُ والقرْطاسُ والقلمُ

وحين بدت له بنو ضبة فى الطريق طار بحصانه فأدركوه ليعاقبوه على قوله :

ما أنصفَ القومُ ضَبّهْ وأُمَّهُ الطُرْطُبَّةْ

كل الإيور سهامٌ وعجامُ أمكَ جعبهْ

حينها تأكد له ـ ولنا – أن هذه الأشياء التى قال إنها تعرفه لم تكن تعرفه ولا يعرفها . !!

فليكتف أمثالنا أن يحاربوا بجيوش من ألفاظ ، ومدافع من العبارات من أنواع : الحلمنتيشى ، والقافية .. وكفى الله الضاحكين شر النكد !

هذا هو مبتدأ « مع الضاحكين » أما « الخبر » فسوف تراه فيما هو آتٍ . !!

حزين عمر

القاهرة ١٩٩٣



(١) الإمام أبو الفرج عبدالرحمن بن الجوْزى :

أخبار الظُّراف والمتماجنين – ط دار الفكر اللبنانى – شرح عبْدالأمير مهنا – عام ١٩٩٠ – ص ٥٢ .





الدعابة ..

إذا انطلقت العبارة - نثراً أو شعراً - من الفم بعد معايشة من آخرين ، فأضحكتهم ، ولم تجرحهم ، أو تطعن في خلقهم أو خلقتهم فإن هذه العبارات تسمى « دعابة » وهي تخرج من الفم كطلقة دخان غير متوقعة للمستمع . وربما يقصدها قائلها ويدبر لها تدبيرا .. فقد ضاع حمار لجحا فدار في الأسواق يسأل عنه ويصيح قائلا : ضاع الحمار والحمد لله . وحين سألوه : أتحمد الله على ضياع حمارك ؟!

قال : نعم.. لو أني كنت أركبه لضعت معه ، وما وجدت نفسي ولا أحداً ينادى عليّ وعليه . !!

وهذه الدعابة من جحا أخذها ، وأضاف إليها بعض البهارات والتحابيش اللغوية ضاحك صعيدى قديم - منذ ٥٠٠ سنة - اسمه ابن سودون المصرى .. إذ كتب إلى أبيه في الصعيد رسالة يقول فيها : ياوالدنا العزيز أعرفك أنني نجوت من خطر خطير ، وشر مستطير : فقد غسلت الجبة ونشرتها على حبل الغسيل . كانت الليلة قمرها غائب وبردها أليل ، ولذا تعكر الجو فجأة وهبت ريح عاتية ، من جهة الشمال أتية ، وإذا بالجبة تطير ، وعلى الأرض تستقر . فو الله يا والدى لو كنت أنا في الجبة ساعة هذا الحادث الخطير لكنت مت في الحال ، وأصبحت جثتي كالفطير .. ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى القدير . (٢)

فهذا الصعيدى القديم يريد أن يستغفلنا ، وقد « لطش» عنصر الإضحاك في دعابة جحا ، وهو أنه كان سيضيع مع الحمار لو كان راكباً إياه وقت ضياعه ، فجعلها هو سقوطه وتهشمه مع الجبة لو كان يلبسها وقت طيرانها .. لكنه أضاف

إليها بعداً دراميا بنسج قصة حول المرتكز ، ووصف الجو وتضخيم الحادث ، فى عبارات مقطعة موسيقياً مسجوعة أحيانا . كما أنه – تأثراً بجحا – جلب عبارة : ولاحول ولاقوة إلا بالله .. كما قال جحا « والحمد لله » .

وقد تجيء الدعابة المقصودة شعراً سهلاً يفهمه المثقف وغير المثقف ، ويعوّل على التعبيرات والألفاظ الشائعة كقول حافظ إبراهيم لجار له اسمه حامد ، يوم زفافه :

أحامدُ كيف تنســـانى وبيـــنى — وبينـــك يا أخى صـــلةُ الجـــوارِ
أيشبـــع مصطفى الخـــولى وأمسى — أعالـــج جـوعتى فى كسر دارى
وبيتـــــى فـــارغ لاشئ فيـــه — سواى ، وإننى فى البيـــت عـــارى
ومالى جزمـــة ســــوداء حـــتى — أوافيكـــم على قـــرب المـــزارِ
فإنْ لـــم تبعثـــنْ إلىّ حـــالاً — بمائـــدة عـــلى مـــتن البخـــارِ
تغطيهـــا من الحـــلوى صنـــوفٌ — ومن حمـــلٍ تتبّـــلَ بالبهـــــارِ
فإنى شاعـــر يخـــشى لســـانى — وســوف أُريـك عاقبـة احتقـــارىَ

وفعلاً خشى حامد عاقبة احتقاره فأرسل إليه لفافة فخمة مغطاه بورق السوليفان والأربطة الأنيقة ، ففرح الشاعر بها ، وأحس بقيمة ما يكتب من درر تستنزل عليه اللحم ساخناً « على متن البخار » .. وغسل حافظ يديه ، وأخذ يفتح اللفافة ، ومن داخلها لفافة فى لفافة ، ولعابه يسيل ، وتتسع فتحتا منخاره ، حتى فتح آخر لفافة فوجد فردة حذاء بالية ، ثمناً لما كتب من شعر تهديدي . !!

لكن حظ عبدالحميد الديب فى « الكسب » بشعره كان خيراً من حظ حافظ .. فقد « نجح » الديب فى الارتقاء بنفسه إلى مصاف الود والصداقة مع حلاق فى حى الحسين قريب من مقهى الفيشاوي اسمه الحاج محمد شعبان .. فكان الحاج يحلق للشاعر بغير مقابل ، وينفحه من حين لآخر قرشاً أو قرشين استجلاباً لمدحه ، وعلى سبيل الدعاية لفنه فى الحلاقة .. وكان الديب يجلس على المقهى بحيث يسمعه الحاج شعبان و « ينهال» عليه مديحاً ، وحينها «يهجم » عليه الحلاق ويجذبه من « قفاه » ليحلق له « ببلاش » مكافأة لمديحه . فى هذا الحلاق قال الديب :

أخـى ، وجارى وحلاقى ، وديّانـي ... وممسكـى إن أمـال الدهر ميـــزانى
مقـص حـالق للشيـب يمحقـــه ... وحالق بالحديـث الغـثّ أحـــزانى
مقصــه قصص صـدق وراويــــة ... كم قصّ شعرى على صحبى وخلاّنى
مرآتـه زينة للعـــين ساحــــرة ... موساه أفضل من «موسى بن عمران» !!

وحين اعترض عليه أحدهم لتشبيهه الموسى بالنبى ، قال الديب إنه يقصد الأسطى موسى بن عمران نقيب حلاقى مصر فى عهد الحملة الفرنسية ، والذى كان بطلا مناضلاً ، وذكر الجبرتى – حسب قول الديب – أنه حلق بموساه مائة رقبة فرنسية فى يوم واحد . !! (٣)

وهكذا « أرتقى » الشعر على يد عبد الحميد الديب من مدح الملوك إلى مدح الحلاقين ، و « ارتفع» ثمن القصيدة من مائة ناقة وعشرة آلاف دينار وعشر جوارٍ بيض إلى قرش وحلقة . !! وهو ثمن أغلى كثيرا من ثمن قصيدة حافظ إبراهيم.!!

وإذا كان الديب قد كسب موسى الحاج شعبان بقصائد فإنه فشل فى كسب صمت صاحب الدار التى يسكن فيها عن مطالبته بدفع الإيجار . فقال :

ثمانون قرشاً أهلكتنى ، كأنهــــا ... ثمانون ذنبـاً فى سجـلّ عذابـى
طويتُ لها الدنيا سـؤالاً وكُدْيَـــة ... فما ظفـرتْ نفـسى بردّ جـواب
لعنتَ كراءَ البيت ، كم ذا أهنتـنى ... وأذللتَ كبْرى بين كل رحـــاب
لأجلك إمـا أن أبيـع كرامتــــى ... وإمـا أفدّيـها ببيــع ثيـــابـــي
ففى كل شهر لى عــواء بموقــف ... يباعد عنى أســرتى وصحابـــي
وطول ليالى الشهر يهتـاج مضجعـى ... مخافة ربّ البيـت يطــرق بابـى
يطالبـنى فى غلظــة فأجيبـــه ... إجابة من يرجـو يداً ويحـــابـــى
ألا سكن ملكـى ، ولو بجهـــنم ... وأكْفَى مـن الأيـام شـرّ حسابـى

وبعد هذا الشعر الذى لم يحصّل ثمن ما كتب به من حبر ، تحققت رغبة الديب فى سكن ملكه ، لا ينازعه فيه منازع ، فلحق بامرئ القيس وآله .!!

ويحمل على الدعابة المقصودة هذا البيت الذي قاله الديب :

بالأمس كنتُ مشرداً أهلياً   واليوم صرتُ مشرداً رسميا

حين وظّفه عبد الحميد عبد الحق وزير الشئون الاجتماعية - حينذاك - في الوزارة ، وقد أخذ الشاعر يباهي رفاقه - الذين ذاق ذل الاستجداء منهم - بأنه أصبح موظفا حكوميا ورجلاً مسئولاً في الدولة . ولم تطل « نفخته » كثيراً : فقد صدم صدمتين : الأولى حين ذهب إلى الصراف ، ووقف في طوابير الموظفين آخر الشهر ، وبعد تزاحم وانتظار كان مرتبه الشهرى حوالى أربعة جنيهات .!!

وجاءت الصدمة الثانية له بعد أن بحث لنفسه عن مكتب ومقعد ليستقبل محبيه وسائر المواطنين « الغلابة » الذين سوف يقصدون « سيادته » لقضاء حوائجهم ، فإذا به لا يري لنفسه مكتباً ، ولا حتى كرسياً يجلس عليه .!!

ومما يدخل في إطار الدعابة المقصوده ماكتبه القاسم بن عبيد الله وزير المعتصم بالله إلى طبيبه أبي يعقوب بن إسحاق بن حنين حين أصيب بإسهال .. قال الوزير :

أبنْ لى كيف أمسيتَ   وما كان من الحال

وكم سارت بك الناقةُ   نحو المنزل الخالى

والمنزل الخالى.. هو دار الخلاء قديما، ودورة المياه حديثاً !! فرد عليه الطبيب :

كتبتُ إليك والنعلان ما إنْ   أُقلُّهما من المشى العنيف

فإنْ رُقْتَ الجوابَ إلى فاكتبْ   على العنوان: يوصل في الكنيف!!

و(الكنيف) هو أيضا دار ا لخلاء ، ومازالت هذه اللفظة مستخدمة في أحياء القاهرة الشعبية . وربما كانت نازحة من (الكنف) فنقول : فلانة تعيش في كنف فلان . أى في حمايته وتحت رايته وسقفه .. وأخذ هذا المعنى لدار الخلاء، لما يحسه الإنسان من انفراد وتستر وهو فيه . وما يحسه من راحة وتنفس عميق إثر الخروج منه . !!

ومع أن عنوان إسحاق بن حنين هو الكنيف – لإقامته الدائمة فيه نتيجة الإسهال –فإنه عنوان أكثر واقعيةوصدقاً من عنوان أحد المتشاعرين الذي يقول : « وفى عينيك عنوانى » !! وهذا يعنى أن عينها مثل ميدان التحرير ، بما فيه من ضجيج وبنزين ، أو كالشارع ، وما يحوى من مطبات وأكوام قمامة ونساء سمينات – وقانا الله شرهن . !!

ومن الناس من لا يتخذ بيته ولا حَمَّامه عنواناً لمقامه ، بل يتخذ دار حميه – أو حماه بالعامية – فيحمل زوجته من كل عام تسعة أشهر من داره إلى دار أبيها بمجرد أن تحمل ، لتلد عند أبيها .. وقد اعتاد واحد من الأزواج السمجين هذه العادة ، ووالد زوجته رجل رقيق الحال ، عجوز .. فمل هذا العبء السنوي، واشتكى لأحد الشعراء ، فكتب له بيتين من الشعر ليسلمهما إلى صهره .. قال فيهما :

أيا « حلمى » رعاك الله دومـــــا ومَنّ عليك ياولدى برفــــــد
أفى عقد الزواج قد اتفقنـــــا عليك الشحن والتفريغ عندى ؟![4]

ومن المؤكد أن الزوجة غضبت لزوجها من أبيها .. فليس أدعى للفرح والرضا عندها من أن يكون زوجها جاداً حامياً لَهِجاً فى (الشحن) . وليس مهما أين يكون التفريغ . !! و « قضية الشحن » هذه ربما غيرت موقف المرأة من النقيض إلى النقيض ، وجعلتها تقلب الحقائق وتلغى التاريخ !! وقد تغير جنسيتها وانتماءها كله بدافع هذه القضية !! فقد شخص يوماً « الحكم بن عَبْدَل إلى عمر بن هبيرة والى واسط فشكا إليه الضيق ؛ فوهب له جارية من جواريه ، فواثبها ليلة صارت إليه ، فنكحها تسعة أو عشرة طلقا واحداً ، فلما أصبحت قالت له : جُعلت فداك .. من أى الناس أنت ؟!

قال : أمرؤ من أهل الشام ، قالت : بهذا العمل غلبتم أهل العراق فى حربكم.» !![5]

★ ★ ★

وقد تخرج الدعابة غير مقصودةولا متعمدة ..إنما هى نتيجة تساؤل أو موقف ما .. فقد كان سيبويه المصرى – الشاعر الهجّاء النحوى فى عهد كافورّ الإخشيد– يمر بالأسواق هاجياً خصومه ، ومن لا يستسيغهم من الناس بأفحش لفظ وأحط صنعة . وفى كل تجواله يركب أتاناً بيضاء فخمة .. فسألوه : لماذا تركب حمارة ولا تركب حماراً ؟! فقال : لأن عندى فى البيت حمارة تركبنى . !!

فالرجل الذى كان يهزم الرجال دائما بمقذع اللفظ ، وفاحش الهجاء ، كانت تركبه امرأة ، وتهز رجليها !! فشتمه لكل البشر لم يكن إلا تعويضاً عن المهانة المنزلية التى يعيشها تحت يد زوجته .. ومن هذه المهانة أصبح سيبويه المصرى أعظم هجّاءٍ فى عصره . شعراً ونثراً ..

وهكذا تتحقق مقولة : وراء كل رجل عظيم امرأة .. تطارده بالقبقاب . !!



(٢) محمود السعدني : الظرفاء - كتاب اليوم - ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٣) انظر : الشاعر عبد الحميد الديب .. حياته وفنه - للدكتور عبد الرحمن عثمان - ط دار المعارف - عام ١٩٦٨ - ص ١٢٥ - ١٢٦ .

(٤) محمد كامل عبد الصمد : ظرفاء ولكن حكماء - ط الدار المصرية اللبنانية - عام ١٩٩٢ - ص ٢٧ .

(٥) عبد الأمير علي مهنا : طرائف من التراث العربي - ط دار الفكر اللبناني - عام ١٩٩٢ - ص ٢٧٦ .





المقالب..

من أكثر المضحكات شيوعاًما استقر العامة على تسميته (مقالب) .. وربما نزح هذا المسمى من « قلب الحقائق أو العبارات أو الأحداث يقلبها قلباً » لتتلاءم مع هدف يرغب فيه صاحب « المقلب » وينال منه منفعة أو يدفع ضرا ، أو لمجرد الهزؤ من شخص آخر .. وأصحاب المقالب من الممتازين عقلاً وتدبيرا بحيث يحكمون خطة تنطلى على الآخرين ، ولا يجدون فيها مطعنا فيقتنعون بها ، وتبدو فيها المفاجأة عنصراً مهما من عناصر نجاحها .. ويغلب على هذه المقالب أن تكون مدبرة بإحكام ، وقليلا ما تأتى بغير تدبير ولا تخطيط مسبق ، إنما تقود إليها الحاجة والفطرة ويساعدها الذكاء من ناحية صاحب المقلب ، والبلادة أو سوء التقدير من الطرف الآخر .

وليست المقالب كلها قائمة على إلحاق الضرر بالمستخفّ به ، بل قد تفيد ، وقد تحل بالهزؤ ما يعجز الجد عن حله ..وهى ليست مقصورة على البشر ، بل هناك حيوانات تنجح فى هذا النوع من فن السلوك ، وتضحك على البشر أنفسهم . !!

وقديما قال عثمان الوراق : رأيت العتّابى الشاعر العباسى يأكل على قارعة الطريق بباب الشام ، فقلت له : ويحك ! أما تستحى من الناس ؟! فقال لى : أرأيت لو كنا فى دار فيها بقر ، كنت تستحى وتحتشم أن تأكل وهى تراك ؟ فقال الوراق : لا . قال العتّابى : فاصبر حتى أعلمك أنهم بقر . فقام فوعظ وقصّ القصص ودعا ، حتى كثر الزحام عليه . وأسرهم بخطبته ، ثم قال لهم :

وروى لنا غير واحد ، أنه من بلغ لسانه أرنبه أنفه لم يدخل النار !! فما بقى واحد إلا وأخرج لسانه يومىء به نحو أرنبة أنفه ، ويقدره أيبلغها أم لا . فلما تفرقوا ، قال العتابى ألمْ أخبرك أنهم بقر ؟!(٦)

فالعتابى اعتمد على قدرته البلاغية لينال استحسان الناس وثقتهم ، واتخذ الدين مدخلا إلى نفوسهم حتى يسلموا له بالصدق لتسهل له خديعتهم – ويا طالما وجه الدين هذه الوجهة – ثم دس لهم ما شاء أن يدسه من سخرية وهزؤ، مستغلا – من ناحية ثانية – بساطتهم القريبة إلى البلاهة .

وليس عامة الناس فقط يقعون فى هذا النوع من الخداع والاستخفاف ، بل ربما يسقط فيه خاصتهم أيضا . فها هو ذا الشاعر الماجن مطيع بن إياس يعبث بصديقه وزميل مجونه حماد عجرد ، حين طلب إليه حماد أن يصحبه ليريه صديقته (ظبية الوادى) .. فلما رآها مطيع أعجبه جمالها الفتان ، وأنوثتها الآسرة ، فراح يبادلها النظرات ، وتحركت الحواجب والرموش ، مع خفق القلب، وارتعاش الفؤاد .. فأفسد على حماد مجلسه وصديقته ..وغضب حماد وأخذ يهجوه ويسبه ويشكوه إلى ثلة الأصدقاء .. لكن نية هؤلاء الأصدقاء لم تكن مخلصة لحماد فطلبوا إلى مطيع أن يرد هجاء بهجاء ، وأن يتغزل فى صديقة حماد .. ثم أخذوا ما كتب مطيع ونسخوه فى رقاع ، ووزعوها على الطرق لتقع فى يد الناس .ثم دفعوا بها إلى المغنى (حكم الوادى) فغنى بها .. ولم يبق بالكوفة سقاء ولا طحان ولا مكارٍ – كما يقولون – إلا ردد غناء حكم الوادى . فانقطعت العلاقة بين حماد وصديقته .

وبعد مدة – إمعاناً فى هذا العبث – طلب مطيع إلى حماد أن يريه صديقته هو أيضا بعد أن أحكم مطيع وصديقته التدبير للسخرية من حماد .. وحين زارها لم يكن يستقر بهما المجلس حتى اندفعت المرأة فى الغناء ، وكان أول ما غنت تغزل مطيع بصديقة حماد (٧) .. فثار حماد وكانت واقعة شبع فيها الصديقان بصقاً ولطماً وشلاليت !!ووقفت صديقة مطيع ترقص على أنغام الصفعات !!

وإذا كانت حكاية مطيع وحماد قد انتهت بالتعادل بعشرة أهداف – أقصد لطمات – لكل منهما ثم بالتصالح ، ورشف الكئوس ..فإن حكاية أخرى كانت مباراة من طرف واحد ، وسقط فيها الضحية صريع اللكمات العسكرية العنيفة ، واتخذ لنفسه – أو اتخذوا له – سريراً فى مستشفى قصر العينى لمدة عشرة أيام !!

كان الضحية هنا تاجر أخشاب اسمه عبد القادر جودة ، منحته الطبيعة من الغباء والسماجة ماجعله يطلب من السياسى حفنى محمود أكبر صاحب مقالب فى تاريخ مصر الحديثة أن يتوسط له لدى (القائد العام للجيش المصري) .. لا ليلتحق ابنه بالكلية الحربية حينذاك ، ولا ليساعد فى الإفراج عن معتقل سياسى كبير ، بل ليحصل لابن أخته (الجندى المجند) على أجازة من الجيش !! وهى مسألة يستطيعها (صول) أو (شاويش) .! وظل تاجر الخشب يلاحق حفنى محمود بهذا المطلب التافه من تلك الشخصية الكبيرة حتى زهق منه حفنى فأمسك بسماعة التليفون ليلاً فى وقت متأخر ، وجرت هذه المكالمة :

– حيدر باشا ؟

– أيوه .. مين ؟!

–أنا عبد القادر جوده ، تاجر الخشب .

– أى خدمه يافندم ؟!

ـ أيوه .. عندكم الواد ابن اختى فى سلاح المشاه . وعاوزك تديله أجازة.وقد صدمت تفاهة هذا المطلب ،فى هذا التوقيت ، من واحد عديم اللون والطعم والرائحة والقيمة ، صدمت القائد العام للقوات المسلحة . فسأل المتحدث :

– حضرتك عاوز مين ؟!

– حيدر باشا ..بتاع الجيش .

– وعاوزه عشان الحكاية دى ؟!

– آه .. إيه يعنى .. هو حيد باشا كبير ؟!

– لا . أبدا لا كبير ولا حاجة .. بس اقفل السكة ..

– اقفل السكة .يا ابن ...

وعلى مدى ثلاثة أيام بعد منتصف الليل يجرى حفنى محمود هذه المكالمة مقلداً صوت التاجر ثم طلب بعدها من التاجر أن يذهب إلى حيدر باشا فى مكتبه بقصر النيل .. فسوف يحتفى به كل الحفاوة ، ويمنح قريبه أجازة طويلة .. وأعطى الموعد للتاجر فى توقيت لا يجد فيه قائد الجيش وقتاً حتى للتنفس : فى الساعة الواحدة ظهراً .

وارتدى عبد القادر أفخم ثيابه بما يليق بمقابلة شخصية كحيدر باشا .. فى الواحدة ولج مكتبه مستئذنا من السكرتاريا بالدخول . وحين نقلت السكرتارية اسم عبدالقادر جوده إلى حيدر وهو منغمس فى العمل ، هب فجأة وعلى رأسه مارد من الجن .. وتلقف تاجر الخشب ، ولم يتركه إلا كومة آدمية نقلوها إلى المستشفى . !!

والأبشع من هذه العلقة التى شرف بها عبد القادر من حيدر علقة شرف بها أحد المؤلفين من عشرة خدم سود تلقفوه بالمقشات والأحذية بتدبير من حفنى محمود أيضا .. فقدطلب من أحد المؤلفين أن يقدمه إلى أحد الأمراء – حينذاك – المعروفين بعدائهم الشديد للأحرار الدستوريين – الذين ينتمى لهم حفنى محمود– وكانت غاية المؤلف أن ينشر له الأمير كتابا فى الهجوم على حزب الأحراركان قد ألفه .. ولم يرفض حفنى ، ولم يحتد على المؤلف ، بل أعطاه رقم تليفون الأمير وقال له اتصل به وسوف يرحب .. وفعلا رحب الأمير بالمؤلف وكتابه بمجرد أن تلقى مكالمته التليفونية . وطلب منه الحضور إليه فوراً .. وبعد هذه المكالمة اتصل حفنى محمود بالأمير :

– آلو .. أفندينا ..

– أيوه .. مين ؟

– أنا المؤلف اللى كلمت سموك من دقيقة .

– عايز إيه تانى . أنا قلت لك تعالى .

– بس فيه حاجةواحدة عاوز أقولها لك ..

– إيه هى ..

– هى إنك انت حمار ، ومغفَّل ، وتتمتع بأخلاق عربجية بهيمية مش أخلاق أمراء .. وأنا جاى لك دلوقت علشان أقولك الكلام ده فى وشك ، وعلى ملأ من الناس .

– خرسيس ، كلب ابن كلب . لو جيت أنا حاقتلك .

ثم صك حفنى محمود التليفون فى وجه الأمير . فى الوقت الذى كان قد اقترب فيه المؤلف من دخول القصر ، حاملابين يديه أصول كتابه ، وفى عينه

بريق الفرح ، وفى قلبه وميض الآمال فى الشهرة والمال .. وكان الأمير قد أوصى عشرة من خدمه السود بتلقف المؤلف وسحقه بالعصى والشباشب والمقشات بمجرد أن يبدو على باب القصر .. وكان ما كان للمؤلف الذى فقد حتى أصول الكتاب .!!

وقد ساعد حفنى محمود على سبك مقالبه ما كان يتمتع به من قدرة على تقليد كل الأصوات – وهو فى هذا مثل كامل الشناوى – ومعرفته الواسعة بالناس وطبائعهم ، والعلاقات المتشابكة بينهم ، ثم هذه الدعة من العيش ،ورخاء الحياة ، الذى ترك له وقتا للتفكير والضحك بلا كدر .

وقد أراد أحمد خشبه أن يستأثر برئيس وزراء مصر حينذاك محمد محمود على مأدبة غداء فى بيته ، ولم يدع له بقية الوزراء . وحين علم حفنى بالخبر اتصل تليفونيا بجميع الوزراء مقلدا صوت خشبة ، يدعوهم إلى الغداء فى منزله . وقبيل وقت الطعام ببرهة بينما يجلس محمد محمود وخشبه وحيدين فى دردشة وإسترخاء حالم ، إذ بالوزراء يتوافدون واحداً وراء الآخر هاجمين على المائدة التى دعوا إليها !! فاغتاظ محمد محمود وراح يضرب المائدة بقبضة يده صارخاً : عملها حفنى .. عملها حفنى . !!(٨)

وربما حُبِكَ المقلب ليتكسب به مدبره ، ولا يضر الآخرين .فيوما دخل الشاعر أبو دلامة على الخليفة المهدى باكيا .. فقال له المهدى : ماذا ألَمَّ بك ؟! قال : يا أمير المؤمنين .. أم دلامة رحمها الله ..ماتت !! ثم انشد :

وكنا كزوج من قطا فى مفــازةٍ ... لدى خَفْضِ عيشٍ ناعمٍ مؤنقٍ رغدِ
فأفردنى ريبُ الزمان بصــرفـــه ... ولم أرَ شيئاً قط أوحش من فـــــردِ

فنفحه الخليفة ثيابا وطيبا ودنانير . ثم دخلت أم دلامة على الخيزران زوجة المهدى مولولةً ، نائحة ، شاكية منون الدهر الذى كلمها بخطف عائلها أبى دلامة من بين يديها .. فحزنت لها الخيزران وأعطتها مالاً وثياباً ..وحين التقى الخليفة وزوجته قدم كل منهما العزاء للآخر فى وفاة أم دلامة وأبى دلامة !! فاكتشفا (المقلب) وشرباه وضحكا منه كثيرا . !!

ومما قد يبعث عاصفة من الضحك والحزن معاً أن تستغل نقيضة طبيعية فى الإنسان للسخرية منه .. فحين كان الأطفال يقدمون (المرق) والملعقة لرفيقهم الطفل طه حسين ، ليروا ما هو فاعل به ، ويضحكوا منه . فهذا رسب كثيرا من الحزن والحذر فى نفس عميد الأدب العربى .. وربما قادت مثل هذه المواقف الصغيرة أبا العلاء المعرى للاحتجاب عن الناس واتقاء نظراتهم الساخرة أو العاطفة .لكن بشار بن برد لم يملك رهافة حس المعرى ليفعل ما فعل ، بل كان ذا عاهة جبارا .. فقد كان يعقد مجلساً مسائياً له كل يوم يلقى فيه شعره ، وتجتمع حوله النسوة ، ويناقشنه ، فعشق واحدة منهن – من صوتها – وطلب إلى غلامه أن ينقل لها هيام سيده بها ، فلم تجبه إلي ما رغب فيه ، فألح عليها حتى باحت لزوجها بمايضمر بشار . فقال لها : أجيبيه ، وعديه ليجيئك إلى البيت ،. ففعلت . وجاءها بشار وجلس إليها فى دارها ، وزوجها قاعد يخفى نفسه عنه ، وهو ليس به يعلم . وبدأت مناوشات بشار للمرأة .. فقال : ما اسمك بأبى أنت ؟! قالت : أمامة . فقال :

أمامــــةُ قـــد وُصِفتَ لنا بحُسْنٍ　　وإنّــا لا نـــراكِ فألْمـسينَـــا

أى اجعلينا نلمسك ونتحسسك !! فأخذت المرأة يده ووضعتها على عورة زوجها فى حالة استثارته !! ففزع بشار ووثب قائماً ، وصرخ قائلا :

عليَّ أليّة ما دمتُ حيـــا　　أمَسُّك طائعــاً إلاّ بعـــود
ولا أهدى لقومٍ أنت فيهـم　　سلامَ الله إلاّ مــن بعيـدِ
طلبتُ غنيمةً فوضعتَ كفى　　على (.....) أشدَّ من الحديدِ
فخيرٌ منك من لاخير فيـه　　وخير من زيارتكم قعـودي

وقبض زوجها عليه ، مهدداً إياه بالفضيحة .. فقال له بشار مستعطفاً : كفانى ما فعلت بى ، ولست والله عائداً إليها أبدا .

وهذا المشهد التمثيلى المحبوك يعد مؤشراً جيداً إلى ذلك المجتمع العباسى الحر المتطور ، لا بمقاييس زمنهم فقط ، بل بمقاييسنا نحن الآن فى مجتمعنا العربى الراهن : فالشاعر المعروف بمجونه وتحلله يعقد أمسية فى داره ، وتقبل عليها النساء ، فيستمعن كل ما يقول من شعر متحرر أو متحفظ ، ويناقشنه ، ويتحدثن فى كل شئ بحيث يستطيع من لا يرى ، بل هو يسمع فقط ، أن يعرف شخصية كل متحدثة ويضعها حيث يجب أن تكون من نفسه . وفى هذا لا يرفض الأزواج أن تشارك النسوة فى مثل هذا النوع من السلوك الإنسانى الراقى ، والتردد على المنتديات الثقافية ليلاً ، ولو كان إمامها بشاراً .

ثم يفجأنا الموقف الثانى حين يرى الرجل غريبا منتهكاً حرمة داره ، متلبساً بمحاولة الإيقاع بزوجته ، ثم لا يقتل هذا المقتحم الجرئ ، ولا يسلمه للسلطان، ولا يصفعه ويركله ، بل يكتفى منه بالندم والاعتذار .. ذلك كان المجتمع الحر المتقدم الذى صاغ حضارة العالم وأثراها عدة قرون طويلة .

وإزاء هذا الحدث أتوقف عند حدث جلبته من مخزون الذاكرة الطويلة .. فقد قيل أن أحد المقرئين فى قريتنا – كان اسمه الشيخ سيد – راود – مجرد مراودة – إحدى السيدات اللائى يقرأ القرآن فى بيوتهن ، راودها عن نفسها ، فنقلت رغبة الشيخ سيد إلى أهلها ، فأوهموا الرجل بأنهم داعوه إلى زيارة للحقل وتناول بعض الخضروات منه طازجة ..وفى الحقل– مستغلين فقدان بصره – وقفوا به تحت نخله ، وقالوا له : ما رأيك يا شيخ فى بلح هذه النخلة ؟! فرفع رأسه ليرى تمرها – وهو المكفوف – فكان الموسى الذى جهزوه له أسبق إلى عنقه من شهقة هواء !! وسقط الشيخ سيد قتيل رغبة فى نفسه عبر عنها ببضعة ألفاظ !!

وأحيانا يتفوق المكفوفون على المبصرين ، وكأنهم ينتقمون لبشار وللشيخ سيد، ولكل أعمى كنا نجره ونحن أطفال ، مدعين الترفق به ، وعمل الخير فيه، فيدعو لنا بالصحة والبركة والثواب .. ثم على شفا ترعة ندفعه ونجرى ضاحكين من تجديفه فى الماء وتخبطه فى الطين .!!

لقد صاغ الأديب نبيل عبد الحميد حكاية واقعية من هذا القبيل فى إحدى مجموعاته القصصية : تعوّد مكفوف أن يذهب إلى بورسعيد ويملأ حقيبته التى تشبه بطن الحوت بكل مايستطيع حمله .. وفى الجمرك يعرف بالتعود طريقه إلى الباب مباشرة بعيدا عن المحاسبة ، فيتجه إليه بحقيبته حتى يمر منه .وينتظر المبصرين . فإذا وقع فى أيدى رجال الجمارك – نادراً ما كان يحدث – فليس على الأعمى حرج .!!

ومقلباً آخر دبره هذا الأعمى الداهية فى أحد أصدقائه (المفتحين) : صحبه إلى محطة أتوبيس ليقابل صديقته المكفوفة مثله ، وقد أمسك بيده راديو ترانزستور موجهاً المؤشر إلى محطة أم كلثوم . وبعد فترة وجيزة نزلت من الأتوبيس فتاة رائعة الجمال لولا العمى ، وقد أمسكت أيضا راديو ترانزستور مفتوحاً على صوت أم كلثوم . وبدأ الاثنان يتقاربان ، يتقاربان حتى التصقا ، وتعانقت الأيدى، والمبصر منبهر بجمال الفتاة ، وحاقد على صاحبه المكفوف . ولكن الأعمى قال له : سوف تأتى بعد لحظات فتاة أخرى بنفس الطريقة ، وما عليك إلا أن تمسك هذا المذياع على صوت أم كلثوم وتقف به هنا .. وظل المبصر العبيط واقفا فى المحطة منتظراً ما لا يجيئ حتى وجد نفسه منفرداً وحده تحت الصقيع ، فجر أرجله لاعناً غباءه وخبث العميان! (٩) .

★ ★ ★

وربما انحبك المقلب بحكم حدث طارئ لم يُدبر له ، وتعامل معه صاحب المقلب بحكم خبرته فى هذا السياق ، واعتماده على بساطة غيره ، وربما سذاجته .. فقد « مر بهلول بسوق البزازين فرأى قوما مجتمعين على باب دكان قد نقب ، فنظر فيه ، وقال : ما تعلمون من عمل هذا ؟ قالوا : لا . قال : فأنا أعلم . فقالوا : هذا مجنون يراهم بالليل ، ولا يتحاشونه ، فالطفوا به لعله

يخبركم. فقالوا : خبِّرنا . قال : أنا جائع . فجاءوه بطعام سَنِىّ ، وحلواء ، فلما شبع قام فنظر فى النقب ، وقال : هذا عمل اللصوص ‹ !! (١٠)

فقد تلاعب المجنون بالعاقلين ، ولو صدقوا لعلموا أنهم هم المجانين . فبين أيديهم الطعام ،وما كانوا ليطعموه لقمةً لو لم يظنوا فيه فائدة لهم.!

وإذا كان البهلول – دون تدبير سابق – وجه حادث السرقة لصالحه ، وأفاد منه فإن هناك نوعاً من المقالب ليس من تدبير أى طرف من الأطراف ، إنما تتشكل أحداثها ووقائعها تلقائيا .. ولكن – كسائر المقالب – فيها خاسر بعض الخسارة ، وفائز بعض الفوز .. ففى أثناء ذهاب الشاعر الدكتور إبراهيم ناجى إلى عيادته شاهد جنازة متواضعة ، لا يسير فيها غير أربعة رجال ، وحاملى النعش ، فألغى مواعيد عمله ، وأراد ‹ اقتناص › الثواب بالسير وراء ميت .ثم ارتفعت درجة حرارة الإيمان لديه فتقدم للمشاركة فى حمل النعش ، وهو مَنْ هو نحافة جسد، وقصر قوام ، وهزالاً عاماً!! وبمجرد أن تقدم إلى أحد الحاملين الأماميين للنعش قائلا له : أَجِرْنِى – أى امنحنى الأجر بتركى أحمل النعش – تخلى له فورا ، ولم يعد لحمله مرة أخرى ، ولم ‹ يجره › أحد من السائرين خلف النعش . وظل الشاعر المنهك يئن تحت الحمل ، وتطبخ الشمس رأسه ، وتقضم مطبات الطريق قدميه من شبرا إلى شبرا البلد . وتنفس الشاعر الصعدا لأن القبور تقع هناك. فآن له أن يستريح ، لكن جاءت الطامة الكبرى حين رأى أحد المشيعين يسأل جندى المرور عن الطريق إلى قليوب البلد !! حينها سقط ناجى على الأرض وفوقه النعش والميت . وحين أفاق من إغمائه لم يجد حوله غير الوحدة والظلام .!!

★ ★ ★

وليست كل المقالب تلحق ضرراً ببعض الناس . فهناك مقلب يحل عُقَداً ومشكلات يعجز عن حلها العقل والجد والوساطات .. وأشهر مثل لهذه المقالب

ما حبكه كامل الشناوى للإصلاح بين الكاتبين : توفيق دياب وعبد القادر حمزة عام ١٩٣٨ .. كان بينهما « خلاف كبير انتقل من القضايا العامة إلى المسائل الجارحة والأسرار الخاصة .. وعبثاً حاول أصدقاء الطرفين إصلاح ذات البين ، وعودة ما بينهما من صداقة ومحبة دون جدوى . وتفتق ذهن كامل الشناوى عن فكرة رائعة .

فى هدوء الليل أدار قرص التليفون ، وأجرى مكالمة مع عبد القادر حمزة بصوت توفيق دياب ، وخاطبه معتذراً عما بدر منه فى حقه ، فى رقة وإخلاص شديد . و « الله يسامح اللى كان السبب » وبكى عبد القادر حمزة تأثراً عبر أسلاك التليفون .. فجاءه صوت كامل الشناوى مقلداً بكاء توفيق دياب . وفى الصباح تابع مشاغباته الصوتية مقلداً صوت عبدالقادر حمزة ، وألقى على توفيق دياب تحية الصباح والمحبة ، واستمر الحديث بينهما طويلاً وودوداً . وعاد الصفاء والوئام بينهما . ثم كانت المكالمة لتالية بصوت توفيق دياب الحقيقى . وبعدها تواعد الكاتبان على اللقاء أمام الأصدقاء وشهود العيان من الصحفيين فى «جروبى » إعلاناً عن عودة المياه إلى مجاريها . » (١١)

وهذه المقالب أشبه ما تكون بالكذبة البيضاء التي قد تضحك بغير ذنب ، وتفيد بغير ضرر.

★ ★ ★

مسلك لاغرابة فيه أن دبر الناس مقالب للناس ، لكن الغرابة كلها إذا وقعت هذه المقالب من الحيوانات ضد البشر . !! وبعض الحيوانات فيها غباء الظرافة ،وبعضها فيها دهاء الثعلب .. ومن هذا الثعلب تقع كل المقالب .

ذكر الإمام الشافعى قال : « كنا فى أرض اليمن ، فوضعنا سفرتنا لنتعشّى ، وحضرت صلاة المغرب ، فقمنا نصلى ثم نتعشى . فتركنا السفرة كما هى ، وقمنا إلى الصلاة ، وكان فيها دجاجتان ،فجاء ثعلب فأخذ إحدى الدجاجتين .

فلما قضينا الصلاة أسفنا عليها ، وقلنا حرمنا طعامنا . فبينما نحن كذلك إذ جاء الثعلب وفى فمه شئ كأنه الدجاجة ، فوضعه . فبادرنا إليه لنأخذه ،ونحن نحسب الدجاجة قد ردّها . فلما قمنا ،جاء إلى الأخرى وأخذها من السفرة ، وأصبنا الذى قمنا إليه لنأخذه ، فإذا هو ليف قد هيأه مثل الدجاجة . » (١٢)

فكون الثعلب يخطف الدجاجة أولاً فهو طبع الحيوان الهجام ، أما أن يستكثر على الشافعى وصحبه الدجاجة الثانية ، ويحتال ليحصل عليها ، وينجح فى حيلته فهو أمر مضحك من ذكاء الحيوان ، محزن من غباء البشر ، الذين قاموا جميعا ليحصلوا على الدجاجة (الليف) ولم يتركوا أحداً لحراسة المائدة !!

وهذا الثعلب يستطيع أن يستولى على غذاء البشر ، ويقع فى أيديهم - برضاه - ثم لايقتلونه !! .. ففى أحد البيوت الريفية تسلق الثعلب الحائط ، وهبط إلى حظيرة الدجاج فأكل ما أكل ، وخنق ما عجز عن التهامه .. وحين تواصلت صرخات الدجاجات تحركت صاحبة الدار لتعرف السبب . فلما أحس الثعلب بالخطر يحدق به استلقى على جنبه ، ونفخ بطنه ، وأفرز غازات نتنة توحى بأنه قد مات فعلاً وجيفته على وشك التحلل !! وحين دخلت ربة البيت صرخت وولولت على دجاجاتها ، وكادت تجن وهى ترى (القاتل) أمام عينها ، ورائحته لاتطاق بعد أن شبع موتاً .. فظنته - وظنه من حضر - قد أصيب بالتخمة كالبشر فمات . فراح هذا يدفعه برجله ، وذاك يشده من ذيله ، لم يكن إلا ميتاً .. فجروه من البيت إلى خرابة بعيدة وتركوه .. وحين ابتعدوا عنه عدة أمتار هب واقفا ، وقفز عَدْواً وسط ذهول المغفلين من البشر . !!

والحيوانات المتوحشة لا تعرف الإيناس ، والجميل . وتعود إلى طبيعتها التى ورثتها وتربت عليها فى أى وقت تتاح لها الفرصة . واستئناس مثل هذه الحيوانات المتوشحة وتدجينها قد يستغرق عدة الاف من السنين .

فهذه سيدة عجوز ، تعيش وحدها في منزل متسع ، لايؤنسها فيه بشر . وفى ليلة شتوية قارصة البرودة سمعت قريباً من دارها القروى عواءً شاحبا ضعيفا .. فخرجت إليه . فإذا هو (جرو) أى ذئب مولود حديثا ، يتلوى من البرد . فحملته السيدة إلى دارها ، وأطعمته ، وأَنسَتْ به .. وظل عندها زمناً وهى تفيض عليه بالطعام والشراب .. وتتركه فى دارها قريباً من حظيرة للغنم ..وعادت يوما فوجدت حظيرة الأغنام مفتوحة ، والدماء سائلة هنا وهنا ، وبقايا أقدام ورأس أحد الخراف الصغيرة متناثرة فصرخت ، وبحثت عن الجانى ، فلم تجد رفيقها الذئب الصغير فى الدار .!!



(٦) طرائف من التراث العربى – ص ٢٥٠ .

(٧) د. يوسف خليف : حياة الشعر فى الكوفة .. إلى نهاية القرن الثانى للهجرة – ص ٦٢٨ – ط دار الكاتب العربى للطباعة والنشر – عام ١٩٦٨ .

(٨) الظرفاء – ص ٧٩ .

(٩) نبيل عبد الحميد : ضحكة الأسد – ص ١١ – ط الهيئة المصرية العامة للكتاب – سلسلة الإبداع العربى – عام ١٩٨٦ .

(١٠) أخبار الظِّرَاف والمتماجنين – ص ١٢٠ .

(١١) من مقالة ليوسف الشريف عن كامل الشناوى بمجلة (روز اليوسف) – العدد ٣٣٦٥ – ٧ ديسمبر ١٩٩٢ م .

(١٢) طرائف من التراث العربى – ص ٢٨٨ .





نوادر المعلمين والنحاة

استلَمنا « الأستاذ مصطفى » مدرس (كل حاجة) في المدرسة الابتدائية من الصف الثانى إلى الخامس .. فدخل أول ما دخل فصلنا ببذلته السوداء ، وكرافتته الحمراء الفاقعة ، ونظارته الشمسية ، وتحت إبطه الأيسر كومة من الأوراق والدفاتر ، وتحت الإبط الأيمن كومة من الكراسات والكشاكيل . وحين اقتحم علينا الفصل ، كان منا من يكسر الشباك ، ومنا من يشخبط علي السبورة، ومن يشوط زميله بالشلوت ، ومن يشد شعر زميلته وهي تصرخ ، ومن يجلس فوق (التخته) ملتهما أقراص (الطعمية) وبقايا المش بالبتاو .

وأول شئ حيانا به فور دخوله طرقة عالية علي باب الفصل بجلدة سميكة طولها متر .. ثم تقدم بخطوات ثابتة ، وصدر مفتوح ، وأنف أشم إلي مكتب المدرس ، وراحت طرقاته تتوالى بعد أن رمي ما بيده من كشاكيل وأوراق ، حتي طار خبر وصوله إلي كل الأذان الطفولية العابثة .. تنحنح الرجل ــ وكان في الخامسة والثلاثين ــ وضبط كرافتته ، وشد بنطلونه لأعلى ، وقال بصوت آمر حاسم قاطع : قيام . فقمنا . وجلس هو برهة . ثم قال : جلوس ... فجلسنا في هدوء وتوجس . نظر في ساعته التي كانت بحجم رغيف الخبز وصرخ : قيام ... قمنا .. جلوس .. جلسنا .. ثم قيام . جلوس .. قيام . جلوس جلوس قيام .. قيام!!! وتلخبطنا : فمنا من يجلس ، ومنا من يقوم ، ومنا من لا يدرك هذا ولا ذاك فيبقى منحنياً .. وبعد هذه اللهوجة صرخ : ثابت .. كله ثابت فى مكانه .

وأشار إلى القاعدين وقال : اخرج يا ابن الرفدى إنت وهوّ إلى السبورة .. خرجنا . فأمرنا برفع أيدينا إلي أعلي ، ووضع وجوهنا في الحائط . فعلنا ما أمرنا، ووقفنا لا نتوقع أية «خيانة» ، فإذا به ينهال على مؤخراتنا بجلدته قائلا : باسم الله. واحد .. اثنين .. ثلاثة ... عشرة ... وشمر يده اليسرى لتتبادل الضرب مع اليمنى مردداً : الأدب فضلوه على العلم .. يا غنم ، يا بجم ، يا سوقة ، يا خراف.. وسكت الأستاذ مصطفى: فجأة ثم أشار إلينا بالجلوس .. فجررنا أرجلنا والدموع تغرق وجوهنا وتوجهنا لنجلس . فقال فجأة : قيام . قمنا جميعا لنسمع منه بعد لحظة وجيزة : اجلس .. لا جلست ولا ردك الله إلاّ قتيلا ، وبعد القتل تمزيقاً وتحريقاً !!

لم نكن ندرى حينها أيدعو لنا أم علينا .. ولماذا هذا التعذيب المفاجئ من «أستاذ» لم نتشرف بالتتلمذ عليه من قبل ، ولا رأينا طلعته المبرقعة ، وشعره المنكوش . !!

وجلس الأستاذ مسترخيا ، بالعاً نفساً عميقاً واسعاً ، ومد يده إلي الكراسات ثم بدأ تقسيمها وترتيبها : العربى ، الحساب، العلوم .... وانهمك فى «التصحيح» ولا يقطع صمته ولا صمتنا إلا بصقة من فمه على هذه الكراسة ، ولعنة على صاحب تلك ، وشكر لآخر . ونتلفت قد يكون هناك من يكلمه فلا نجد إلا الكراسات والدفاتر .. فبدأت ودوداتنا وهمسنا يتضح ، فتركنا حتى ارتفع الصوت والغمزّ واللمز ، وصرخت تلميذة فجأة : أستاذ .. الواد محمد عملى حاجة قلة أدب . !!

نفخ الأستاذ ورمى الكراسة وقال : قيام .. ارفعوا أيديكم لأعلى .ياغنم ، يا بجم، يا سوقة ، يا خراف .. وجلس هو يصحح الكراسات .. بعد برهة دفعت الباب في رقة (الأستاذة ليلي) مدرسة الموسيقي . وما كنا ندري ما دورها بالضبط فى المدرسة . إذا كانت تأتى لتغنى لنا من حين لآخر ، فلماذا لا تغنى فى

الإذاعة خيراً لها ؟! وماذا نتعلم منها : الموسيقي أم الصوت المدلل ، أم مضغ اللبان، أم أكل الفول السوداني بالأكوام في الفصل ، أم عمل التريكو ، والتهام سندوتشات الفول .. أم ننظر إلى ساقيها الملفوفتين البيضاوين، وهي جالسة على كرسيها ، ونحن نسقط الأقلام علي الأرض عمداً لننزل نلتقطها فنبقي تحت الكرسى ننظر لنعم الله ؟!!

حينما دخلت (أبله ليلى) انقلب حال الأستاذ مصطفي .. قال : جلوس .. ناموا على التخت !! .. ننام ؟! هل يريد راحتنا بعد جولة التعذيب هذه ؟! فلننم إذن مادام قد رضي عنا .. ثم لأننا لم نتعلم النوم في المدارس رحت أنظر خلسة إلي الأستاذ مصطفي والأستاذة ليلي فلم أجدهما !! سحبت رجلي ومشيت علي أطراف أصابعي ، وقد أحسست حركة خلف الباب الموارب ، نظرت في حذر فإذا الأستاذ يحدّث الأستاذة ليلى « بكلمة سر » في شفتيها !!! حينها انفتحت لي كنوز العالم .. قفزت لأعلي : هاي .. هاي : ضبطتك !! وجريت من الفصل . !!!

ظل الأستاذ مصطفي منتظراً أن يراني عدة أيام ، وأنا أهرب من حصته .. حتي أوحي لي التلاميذ الكبار ـ في الصف الخامس ـ أنني إذا ذهبت إلي منزله للحصول علي درس خصوصي كبعض التلاميذ فلن يؤذيني ولن يعذبني .. وفعلا ذهبت إلي بيته مع مجموعة من زملائي ، فاستقبلني بفرح : إنك ولد ذكي ، وسوف تنجح آخر العام .. أهلا بك . ورغم حرارة الترحيب لم أهتم به كثيرا ، بل كنت متشككا فيمن يتحدث إليّ : أهذا هو الأستاذ مصطفى صاحب البذلة السوداء والنظارة والكرافتة والجلدة النارية ؟ ! إن من يحدثنى الآن ـ ونحن نجلس على سطح داره ـ يرتدى جلبابا تمزقت أطرافه حتى أصبح كأنه «بنص كم » ونال البلى ذيله فوصل إلى ركبة الرجل وتتدلى منه (الشراشيب) ، والبقع تكلل مؤخرته .. قلت : ليس مهما هذا الثوب الموهوم .. المهم العلم الذي

ستتلقاه علي يد أستاذنا ، وجلست مع من جلس لنتلقى العلم !! ففوجئنا بفوج من الدجاج والأوز والبط يهجم علي جلستنا بعد أن هرب من الحظيرة المجاورة لنا .. وقام الأستاذ يلم البط والدجاج ليدخله إلي الحظيرة فإذا أدخل مجموعة خرج سرب ، فأمسك عصاة وراح يهشها ، فإذا بامرأة وجهها من قطعتين منفصلتين تخرج عليه فجأة صارخة فيه : إيه اللي بتعمله ده يا مصطفى يا نيلة ؟! سيب البط يتفسّح !! فرد في همس : عيب يا أم وليد .. التلامذة قاعدين ومش عارفين نشرح لهم من الفراخ . قالت : يا شيخ اتنيل علي عينك ، أنت لا نافع هنا ولا هناك . فرد في خشونة : عيب يا مره طولة اللسان دى . حينها خطفت منه العصى وانهالت بها ضربا عليه !! ولست أدرى ما حدث بعد ذلك لأننا فررنا جميعا إلى الشارع خوفاً من أن تنالنا عصاة زوجة أستاذنا كما نالته .. وحينها عرفت السبب في تعذيبه لنا . !!

★ ★ ★

هذه الحكاية تجسيد لما يسمى (بنوادر المعلمين) . فهذه الفئة ـ ككل فئات المجتمعات الإنسانية ـ لها ميزاتها ومثالبها ، لكنها تحرص دائما علي إظهار الميزات وستر العيوب ، لدورها التربوي ، وبصفتها قدوة لكل جيل ، وليس بإمكان عالم أو مفكر أن يجد الطريق إلاّ من بوابتها . ومثل هذه الفئة العظيمة المثرية لحياة البشرية ينتظر أن يري منها الآخرون كل حسن في المظهر والتصرف ، ويسجل عليها الناس أي خلل في السلوك أو خطل في الفكر .. ونادراً ما يقع هذا الخطأ بين مجموعة من المعلمين ، أو مع المعلم الفرد بصفته إنساناً .. ولأنه من النادر أن تقع مثل هذه التصرفات منهم ، ولأنها تمثل صدفة لمن يراها فإنها قد سميت بالنوادر .

ولو نقبّنا عن نوادر غيرهم من أصحاب المهن فلن نعدم أن نجد عشرات ومئات منها . لكن ما يهم البشرية هو معلموها وأساتذتها .. ويدخل في هذه الدائرة أيضا النحوى . لكن النحوي معلم متخصص في النحو علي وجه التحديد.

وقد ألّف أبو عمرو الجاحظ كتاباً عن نوادر المعلمين استهله بحكاية قال فيها: « ألّفتُ كتاباً عن نوادر المعلمين ، وما يقع لهم . ثم رجعت عن ذلك ، وعزمت على تقطيع الكتاب ، فدخلت يوماً مدينة ، فوجدت فيها معلماً فى هيئة حسنة ، فسلمت عليه فرد عليَّ أحسن رد ، ورحب بى فجلست عنده وباحثته فى القرآن فإذا هو ماهر فيه ، ثم باحثته فى الفقه والنحو وعلم المعقول وأشعار العرب، فإذا هو كامل الآداب . فقلت هذا والله مما يقوّي عزمى على تقطيع الكتاب . وكنت أختلف إليه وأزوره . فجئت يوماً لزيارته فإذا بالكُتّاب مغلق ، ولم أجده فسألت عنه فقيل مات له ميت فحزن عليه ، وجلس فى بيته للعزاء ، فذهبت إلى بيته ، وطرقت الباب ، فخرجت إليَّ جارية ، وقالت : ما تريد ؟ قلت : سيدك . فدخلت وخرجت وقالت : باسم الله .. فدخلت إليه فإذا به جالس . فقلت له عظّم الله أجرك ، كل نفس ذائقة الموت ، فعليك بالصبر .. ثم قلت له : هذا الذى توفى ولدك ؟ قال : لا .. فقلت : فأخوك ؟ قال : لا .. قلت : فزوجك ؟ قال : لا . قلت : ومن هو منك ؟ قال : حبيبتى . قلت : سبحان الله ، النساء كثير وستجد غيرها . فقال : أتظن أنى رأيتها ؟ قلت : هذه منحسة ثانية .. ثم قلت : وكيف عشقت من لم ترَ ؟! فقال : كنت جالساً في هذا المكان ، فرأيت رجلاً عليه برد وهو يقول :

يـا أُمَّ عمـرو جـزاكِ اللـهُ مكرمـةً
رُدّي علـيَّ فـؤادي أينمـا كانـا

فقلت في نفسي : لولا أن أم عمرو هذه ما فى الدنيا أحسن منها ما قيل فيها هذا الشعر .. فعشقتها . فلما كان منذ يومين مر ذلك الرجل بعينه وهو يقول :

لقد ذهـبَ الحمـار بـأُمِّ عمـرو
فلا رجعـتْ ولا رجـع الحمـارُ

فعلمت أنها ماتت ، فحزنت عليها ، وأغلقت المكتب ، وجلست في الدار .
فقلت : يا هذا ، إني كنت قد ألفت كتابا في نوادر كم معشر المعلمين ، وكنت حين صاحبتك عزمت على تقطيعه ، والآن قد قويت عزمي على إبقائه، وأول ما أبدأ بك إن شاء الله » (١٣)

★ ★ ★

وإذا ذكر النحوى برز إلى الأذهان هذا المخزون اللغوى من الغريب والمهمل والمهجور الذى يحرص بعض النحويين على استعماله فى غير مواضعه من الناس، ناسين أن البلاغة – بالمفهوم التقليدى – هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال . فقد وقف أحد هؤلاء النحويين الأزهريين على إحدى بائعات الفجل ، وقال لها: إلىّ بحزمة و« كثّريها» .. فانتقت له البائعة حزمة و « كسّرتها» قطعاً قطعاً . !!

ويقال إن أبا علقمة النحوى كان سائراً فى طريق فثار « به مرار فسقط ، فظن من رآه أنه مجنون . فأقبل رجل يعض أذنه ، ويؤذن فيها فأفاق ، فنظر إلى الجماعة حوله فقال : ما لكم قد تكأكأتم علىّ كما تتكأكأون على ذى جِنّة ، افرنقعوا عنى . فقال بعضهم لبعض : دعوه فإن شيطانه يتكلم بالهندية. » !! (١٤)

ويوماً دخل أبو علقمة هذا على طبيب اسمه (أعين) فقال له : أمتع الله بك.. إنى أكلت من لحوم هذه الجوازل، فطسأتُ طسأةً ، فأصابني وجع من الوالبة إلى ذات العنق ، فلم يزل يربو وينمو حتى خالط الخلب والشراسيف . فهل عندك دواء ؟ فقال أعين : خذ حرقفاً وسلقفاً فزهرقه وزقزقه واغسله بماء روث واشربه. فقال أبو علقمة : لم أفهم عنك . فقال أعين : أفهمتك كما أفهمتني » !! (١٥)

فالطبيب هنا أبلغ من النحوى ، لأنه « عالج» الغموض بالغموض !! وأسخف ما كنا نستخف به من أساتذتنا أنّا كنا نردد على مسامع بعضهم – ونحن تلاميذ بالمدارس – قول شوقي :

قُـــمْ للمعلـــم وفِّــه التبجيــلا   كاد المعلـــم أن يكـــون رســـولا

فنقول :

قـــم للمعلـــم وفــه التلطيشـا   كاد المعلـــم أن يكـــون شويشا !!

والسخرية هنا مزدوجة من المدرس أولاً ، ومن الشاويش أو (الجاويش) ثانيا ومادام التلطيش للشاويش ـ وما يرمز إليه ـ فكل سيسارع إليه ، ويلبى نداءه . !!

★ ★ ★

ولا يقتصر تسجيل نوادر المعلمين والتحدث بها على الشعب العربى ، بل هى ـ ككثير من عناصر الإضحاك ـ تشيع فى كثير من الشعوب . تقول النادرة الصينية إن أحد المعلمين نام فى النهار « وبعد أن استيقظ من نومه زعم لتلاميذه قائلا : لقد رأيت فى منامى السيد تشو (هو سياسى مشهور من أسرة تشو الغربية = ١٠٦٦ – ٢٥٦ ق . م) . وفى اليوم التالى نام أحد التلاميذ مقلداً المعلم ، فأيقظه المعلم ، وقال له غاضبا : كيف تنام فى النهار ؟ فأجابه التلميذ : كنت أرى السيد تشو فى منامى أيضا . فاستطرد المعلم يسأله : ماذا قال لك السيد تشو؟ رد التلميذ : قال إنه لم يقابل معلمى أمس . »(١٦)

ونحن إذ نضحك لهذه النادرة نلمح كراهية النوم نهاراً لدى الصينيين . وهم لهذا يتقدمون إلى مركز الصدارة العالمية سريعاً . أما نحن فننام نهاراً ، وننام ليلاً ، وننام وقوفاً ، وقعوداً ، وعلى جنوبنا وننام ونحن نائمون .!!



(١٣) طرائف من التراث العربى ـ ص ٢٢٠- - ٢٢١

(١٤) أخبار الظراف والمتماجنين ـ ص ١٤٥ .

(١٥) أخبار الظراف والمتماجنين ـ ص ١٤٥ - ١٤٦ .

(١٦) فكاهات صينية ـ ص ١١٣ ـ إعداد يان شيانغ شيان ـ ط دار النشر باللغات الأجنبية (بكين) .





لا أظن الديانات الحقة غير ابتسامات كبرى أُريدَ لها أن تنثر على أفواه البشرية بعدالة . لا هي بالنكد ، ولا البغضاء ، ولا الضغينة ، ولا السوداوية .. وقد كان النبى يضحك ويداعب صحابته .. وقد روى أنه قال لسيدة عجوز : إن الجنة لايدخلها عجوز !! فلما حزنت وضاقت واشتكت قال لها : لأن الشباب سوف يعود إلي داخليها !! .. وقال « سفيان بن عيينه : أتينا مرة مسعر بن كدام (كوفي من ثقات أهل الحديث ـ ت ١٥٢ هـ) فوجدناه يصلى ، فأطال الصلاة جداً، ثم التفت إلينا مبتسماً ، فأنشدنا:

ألا تـلك عـزةُ قـد أقبلـتْ ترفــع نحـوى طرفـاً غضيضـا

تقول : مرضنـا فمـا عدتنـا وكيـف يعـود مريـضٌ مريضـا

(والبيتان لُكثيِّر عزة) . قال : فقلت : بعد هذه الصلاة هذا !! قال : نعم .. مرة هكذا ، ومرة هكذا » (١٧) ذلك لأن « الدين يسر ، ولن يشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه » كما جاء في الحديث الشريف .

وليس الغزل وحده هو ما يمكن أن يتلو الصلاة ، بل قد تقع فيها طرائف تضحك الصخر .. فقد « قال عبدالله بن أحمد المقرئ : صلى بنا إمام لنا ، وكان شيخا صالحاً ، وقد اشترى سطلاً فاستحيا أن يجعله قدامه فى الصلاة فجعله خلفه ، فلما ركع شغل قلبه به ، فظن أنه قد سرق فرفع رأسه فقال : ربنا لك السطل . فقلت له : السطل خلفك لا بأس . » (١٨)

فالإمام الصالح يشغله سَطْلٌ عن ذكر الله ، وهو في نشوة الصلاة بدلاً من أن يقول : ربنا لك الحمد . قال : ربنا لك السطل .. والحق أن الحمد والسطل وأصحاب السطل كلهم لله !! وأطرف من قوله ردُّ المأموم عليه : السطل خلفك.. وهذا يدخل فى صميم (التعاطف الوجدانى) بين البشر !! وربما لو لم يتلق الإمام هذه الإجابة لكان قد تلفّتَ خلفه ، وأعطى المحراب ظهره . ولو كان فى المصلين وراءه واحد كأبي نواس لسرق السطل ، وجرى الإمام وراءه . !!

وليس الجرى من الصلاة بدعة يسوقها القلم ، ولا هو اجتراء على عمود الدين . ذلك أن أعرابيا صلى « خلف إمام ، فقرأ الإمام : (ألم نهلك الأولين)[١٩] .. وكان في الصف الأول ، فتأخر إلى الصف الآخر . فقرأ الإمام (ثم نتبعهم الآخرين) [٢٠] فتأخر ، فقرأ الإمام (كذلك نفعل بالمجرمين) [٢١] وكان اسم البدوى مجرماً ، فترك الصلاة ، وخرج هارباً وهو يقول : والله ما المطلوب غيرى . فلقيه بعض الأعراب فقال له مالك يا مجرم ؟ فقال : إن الإمام أهلكَ الأولين والآخرين ، وأراد أن يهلكنى فى الجملة .. والله ما رأيته بعد اليوم»[٢٢]

وتتعدد دوافع الإنصراف من الصلاة ، وإن كانت النتيجة واحدة .. لكن أشعب يوظف كل الأحداث لصالحه دائما : فإذا صلى فبثمن ، وإذا انصرف من الصلاة فبثمن .. وقد « صلى أشعب يوماً إلى جانب مروان بن أبان بن عثمان . وكان مروان عظيم الخلق والعجيزة ، فأفلتت منه ريح عند نهوضه لها صوت ، فانصرف أشعب من الصلاة ، فَوَهَم الناس أنه هو الذى خرجت منه الريح . فلما انصرف مروان إلى منزله جاءه أشعب فقال له : الدِّية فقال : دية ماذا ؟! فقال : دية الضرطة التى تحملتها عنك ، والله وإلاّ شَهَّرتُكَ . فلم يدعه حتي أخذ منه شيئاً صالحاً . »[٢٣]

وللروائح الخبيثة حديث فى هذا المجال ، وتعد سبباً من أسباب قطع الصلاة . لكن عديم الضمير قد (يعملها) ولا يقطع صلاته !! .. ويقال إنه « كان

بالمدينة عطاران يهوديان فأسلم أحدهما ، فنزل العراق ، فالتقيا ذات يوم ، فقال اليهودى للمسلم : كيف رأيت دين الإسلام ؟ قال : خير دين ، إلاّ أنهم لا يدعونا نفسو فى الصلاة كما كنا نصنع ونحن يهود . فقال له اليهودى : ويلك .. افسِ وهم لا يعلمون . » (٢٤)

وربما لا يكتفى بعض الساخرين ـ ولو بالصدفة ـ بإفساد صلاتهم ، فيفسدون صلاة الآخرين معهم بالحديث وقت الصلاة .. فقد « صلى الدلاّل المخنث الظريف يوماً خلف الإمام بمكة ، فقرأ الإمام : (ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون) (٢٥) . فقال الدلاّل : لا أدرى والله ! فضحك كل الناس، وقطعوا الصلاة . فلما قضى الوالى صلاته دعا به وقال له : ويلك ألا تدَعْ هذا المجون والسَّفه ؟! فقال له : قد كان عندى أنك تعبد الله ، فلما سمعتك تستفهم ظننت أنك تشككت فى ربك فثَّبتُّك » !! (٢٦) وشبيه بهذا ما فعل أعرابى حين وقف يصلى فقرأ الإمام : (فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى) وجعل يرددها . فقال الأعرابى : يا فقيه إذا لم يأذن لك أبوك فى هذا الليل نظل نحن وقوفاً إلى الصباح ، ثم تركه وانصرف .

ووقوع مثل هذه المضحكات فى الصلاة بما لها وبها من خشوع ووقار ، وكون هذه الأحداث تروى وتحفظ يدل على أنها أولاً جاءت من الإنسان المناسب فى الوقت المناسب واللغة والمناسبة، ولم يُؤذَ بها أحد .. وجاءت ثانيا فى غير إعداد وحبكة ، ثم إنها ترد قليلا وغير مكررة .. ولهذا سميت طرفة وطرائف.

وقد تجيىء الطرفة على لسان الدعاة وأشباه الدعاة ، أو العاملين بالفقه والحديث .. يذكر أنه قيل لأ شعب (هو ابن جبير .. المعروف بطمعه ، وما لا يشتهر عنه أنه تأدب وروى الحديث) .. قيل له يوما : « جالست الناس ، وطلبت العلم ، فلو جلست لنا ، فجلس . فقالوا حدثنا . فقال : سمعت عكرمة يقول : سمعت

ابن عباس يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (خلتان لا تجتمعان لمؤمن) . ثم سكت . فقالوا : ما الخلتان ؟ فقال : نسي عكرمة واحدة ، ونسيت أنا الأخرى » (٢٧) فعنصر الطرافة توافر هنا بتوافر (المصداقية) أولا .. فأشعب أورد السند متصلا غير مرسل ــ أي غير منقطع ــ وتخير تابعاً لا يُطعنَ فيه هو عكرمة، وصحابيا عالماً بحراً هو ابن عباس .. فأخذ الناس مقدماته مأخذ الجد .. وازداد تشوقهم حينما لمس وتراً حساساً فيهم بنفى عادتين عن المؤمن . وكل منهم ينتظر هاتين الخلتين أو العادتين ليعلم أيحمل منهما شيئا أم لا .. ثم جاء صمته بعد هذا مشعلاً شوقهم أكثر ، ومؤكدا جدية أشعب ــ الراوى ــ وحين تهيأت نفوسهم تماما لتلقى بقية الحديث ضحك منهم ، فكان الوقع حسناً .

وليس الصمت وحده يفجّر الطرفة ، بل ربما الحديث أيضا إذا اتسم بقوة المنطق — ولو ظاهرياً — فهذا رجل مسلم قَدَرَى يسأل مجوسياً : مالك لا تسلم ؟ ! فقال المجوسى : حتى يريد الله — وهذه الإجابة تتواءم مع مذهب القدرية ــ فرد القدرى : قد أراد ذلك ، لكن الشيطان لا يريد . قال : فأنا مع أقواهما . !!

وعلى الرغم مما فى رد المجوسى من خبث وتجرؤ ، فإنه لم يصل إلى مستوى هذا الحائك الكوفى الذى ادعى النبوة . فاجتمع عليه الناس قائلين : اتق الله ، خَف الله . أرأيت حائكا يتنبأ ؟! قال : ما تريدون أن يكون نبيكم إلا صيرفيا . !! ومع كبر الجرم ، جاءت الإجابة اللاذعة التى توحى لهم أولاً أنهم ــ كبشر ــ يفرقون بين الإنسانية ، ويحجبون (النبوة) عن إحدى المهن !! ثم إنهم ما كانوا ليفعلوا هذا لو جاء الدعى إليهم بالجواهر والياقوت ــ كان صيرفيا ــ فهم إذن ــ كناس ــ يعبدون المال والدنيا لا الزهد والآخرة . !!

وليس الحائكون وحدهم يستطيعون أن ينجبوا نبيا كذاباً .. فالسود أيضا ــ ولم يعرف نبى أسود رغم أن اللون لا عيب فيه ولا نقص ــ هؤلاء السود فى الدولة العباسية أنابوا عنهم أحدهم ليدعى النبوة ، ويدعى أنه موسى بن عمران ــ لست

أدرى لماذا لم يقل أنه نصيب بن عثمان مثلا !! ـ فجاءوا به إلى المأمون فقال له: إن موسى أخرج يده من جيبه بيضاء ، فأخرج يدك بيضاء حتى أؤمن بك . فقال الأسود : إنما فعل موسى ذلك لما قال فرعون : أنا ربكم الأعلى ، فقل أنت كما قال حتى أخرج يدى بيضاء وإلا لم تبيض.!! فإذا كان الخليفة قد دخل إليه مدخلاً ذكيا فيه تعريض بسواده ، وعجزه عن أن « يبيض » يده ، فإن النبى الكذاب رد على الخليفة – بمنطق أذكى مما ينتظر، وحاصره .. فإما أن يصمت عنه الخليفة أو يدّعى أنه إله . !!

والحق أن هذه « الشغلانة » ـ التنبؤ الكاذب ـ كانت صعبة فى العصر العباسى هذا . فإذا تشهى حائك « غلبان» النبوة أو تطلع إليها أسودمن الناس ، كان يساق إلى الخليفة مكبلا بالقيود والسخرية من العامة والخاصة . أما فى بدايات الرسالة المحمدية فقد كان الأمر أيسر وأهون ، والناس أقرب إلى تصديق الكذابين .. ففى مرحلة زمنيةواحدة ـ تقريبا ـ حمل هذا ـ العبء الثقيل !! ـ مجموعة من أجلاف العرب : منهم الأسود العنسى ، ومسيلمة الكذاب ، وكان يمثل المرأة فى عالم النبوة – ولست أدرى لماذا لم تمثل فى هذا المجال بالذات ؟!! ـ كان يمثلها سجاح ـ صلى عليها الشياطين ! ـ وحينما توفي النبى استفحل أمر مسيلمة الكذاب وأمر سجاح .. لكن شوكة سجاح بدأت تشتد ، والتفت حولها قبائل كثيرة ، فرأت أولاً ـ قبل محاربة أبى بكر والمسلمين ـ أن تخضع –فى طريقها ـ مسيلمة . ولما كان مسيلمة كذابا ذكيا فقد فهم هذه التوجهات النبوية النسائية ، وبعث رسولا إلى سجاح يخبرها برغبته فى لقائها ، وتدارس (المعجزات النبوية) لدى كل منهما ، فإن اقتنعت بمعجزاته انضمت إليه و إن أقنعته بمعجزاتها آمن بها ، وحاربوا جميعا المسلمين . !!

وقد رأت سجاح ـ صلى عليه الشياطين !! ـ أن الخطة هذه لا غبار عليها ولا تراب !! وحينها أمر مسيلمة أتباعه أن يعدوا لها وله سرداقا فخماً ، فيه من الرفاهية والراحة والعطور والزهور والمأكل والمشرب كل شئ .. لأن هذه الرفاهية

أدعى لأن تلهب أنوثة المرأة ـ والنبيات على وجه التحديد !! ـ ثم أمر الناس ألا يقربوا اجتماعهما ، ولايقطعوا وحدتهما وتدارسهما شئون النبوة ومعجزاتها . !!

فى هذه الوحدة الأسرة الفاتنة قالت الكاذبة للكاذب هات ما عندك . فقال لها : ألم ترى أن الله قد جعل لنا النساء أزواجا ، ثيبات وأبكارا .. ثم تدفق بما منّ عليه إبليس من آيات .. وهى تقول : ثم ماذا ؟! .. وتسترخى. ثم ماذا ؟! وتستلقى .. ثم ماذا ؟! وتتمدد .... حتى قال لها أبياتا تدعوها إلى المضاجعة (النبوية الشريفة) .. منها :

ألا قومــى إلــى الـ .... فقــد هُيِّــئَ لك المضجــعْ
فإن شئــتِ ففــي البيـــت وإن شئــت ففي المخـــدعْ
....

وبعد هذه المعجزة من مسيلمة خرجت إلى قومها وقالت : يا قوم .. أشهد أنه لنبى !!

نعم كان الأنبياء والنبيات حينذاك محترمين ومحترمات . وكانت مسألة النبوة هذه « تجيب تمنها » !! أما هذا الحائك الغلبان ، وذاك الرجل الأسود فلهما الله .!!

ولمقرئى القرآن والمؤذنين طرائفهم القديمة والجديدة ، وإن كان ما سُجلّ من القديم أكثر ، لعدم رواج هاتين المهنتين الآن بسبب انتشار الإذاعات ، والساعات، وطرائق ضبط الوقت . وقديماً دفعت امرأة إلي رجل يقرأ على القبور رغيفا ، وقالت له : اقرأ عند قبر ابنى . فقرأ : (يومَ يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مَسَّ سقر) .[٢٨] .. فقالت له : أهكذا يقرأ عند القبور ؟ ! فقال لها: ماذا أردت برغيف : (متكئين على فُرُشٍ بطائنها من استبرق) ؟! [٢٩] ذاك بدرهم !!

ومقرئو القبور هؤلاء يضرب بهم المثل فى (اللهوجة) وبلع حروف القرآن وكلماته ، وربما جملة كاملة . ومن هؤلاء ـ وهم يقرأون فى المقابر المصرية

وقت الأعياد والمواسم ـ من يحمل جوالا فوق ظهره ، ويدور حول المقابر كالدبور ليقعد قبالة إحداها قبل غيره . وقد يجلس اثنان فى توقيت واحد ، فيدفع كلاهما الآخر بكتفه ـ أمام أهل الموتى ـ ثم يتنافس كل منهما ليقرأ ، وليسا بمتفقين أبدا ، فيبدأ هذا وذاك قراءة القرآن كطنين النحل ، ويخرج الصوتان صوتا واحداً ، ولا تعرف أوله من اخره من وسطه ، ولا تفهم معنى ، ولا تسيغ عبارة !!

وهذا الجوال ـ المحمول ظهراً ـ يعبأ بالكعك والخبز والتمر والبرتقال والفطائر ربما بسورة واحدة لا يحفظ المقرئ غيرها ... ويستغفل الجالسين فيقرأها فى عجلة كبيرة ، فإذا أتى عليها أعادها مرة أخرى ومرات . !!

أما بعض مؤذنى هذا الزمن فمنهم من يؤذن فى الناس للصلاة ، ثم ينسحب هولا يصلى . ومنهم من يؤذن بعد أن « يعدل رأسه بحجرين حشيش » أو «ضرس أفيون» !! ومنهم من هو شديد الغفلة والجهل .. قال بعض المصلين : رأيت مؤذنا أذن ثم غدا يهرول ، فقلت له : إلى أين ؟ قال: أحب أن أسمع أذانى أين يبلغ !!

وشوهد مؤذن يلقى الأذان من رقعة مكتوبة ، فقيل له : أما تحفظ الآذان ؟! قال: سلوا القاضى . فأتوا القاضى . فقالوا : السلام عليكم . فأخرج دفترا وقرأ منه : وعليكم السلام !!

ومن يعترف بعدم الحفظ ، ويقرأ من صحيفة كهذا القاضى والمؤذن خير ممن يدّعى حفظ القرآن ، وهو غير حافظ .. قيل لرجل : أتحفظ القرآن ؟ قال : نعم. قالوا : ما أول الدخان ؟ قال : الحطب الرطب . !!

ومن الناس أيضا من لا يحفظ ، ولا يقرأ من ورق ، ولا يدعى الحفظ ، إنما هو يحرف الكلم عن مواضعه فى الكتب المقدسة .. فقد سأل أحدهم الأديب الفرنسى فولتير : لماذا تسرف فى التدخين ؟ ! ألا تعلم أن السيجارة من ألد أعداء الإنسان ؟! فقال له فولتير : وأنت ألا تعلم أنه قد جاء فى الإنجيل أنه يجب علينا أن نحب أعداءنا ؟!!

أما هذا الأعرابى فيحفظ القرآن ، لكنه يوظفه لما شاء فى موقف مفاجئ .. فقد أقبل هذا الأعرابى على رجل « وبين يدى الرجل طبق فيه تين. فلما أبصر الأعرابى غطى التين بكساء كان عليه ،والأعرابى يلاحظه..فجلس بين يديه فقال له الرجل : هل تحسن من القرآن شيئا ؟ قال : نعم . قال : فاقرأ . فقرأ الأعرابى : (والزيتون وطور سينين) ، قال الرجل : فأين التين ؟! قال : تحت كسائك . » (٣٠)

وقدّم طعام ردئ اسمه (الكامخ) إلى أعرابي فلم يَسْتَطْبْهُ .. وقال : ما هذا ؟! قالوا : كامخ قال: ومن أى شئ صنع ؟ قالوا : من الحنطة واللبن . قال : أبوان كريمان ومن أنجبا .. ودخل المسجد والإمام فى الصلاة يقرأ : (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير) فقال له الأعرابى : والكامخ .. لا تنسَه ، أصلحك الله .!!

وأعرابى آخر وَلِي البحرين ، فجمع يهودها وقال لهم : ما تقولون فى عيسى ابن مريم ؟ قالوا : نحن قتلناه وصلبناه . قال : فوالله لا تخرجون حتى تؤدوا ديته. فأخذها منهم . !!

وبعض التصرفات الأخلاقية يختلف الحكم عليها من بيئة لأخرى ، ومن جنس لجنس ، ومن دين لدين ومن زمن لزمن .. فقد قيل لأعرابى : ما الزنا عندكم ؟ قال القبلة والضمة . قيل له : ليس هذا زنا عندنا فى الحضر . فسأل : فما هو ؟! قالوا أن يجلس بين شعبها الأربع ـ أي يداها ورجلاها ـ ثم يجهد نفسه !! فقال الأعرابى : ليس هذا زنا .. هذا طالب ولد . !!

وإذا كان هذا العمل المباشر الصريح فى نظر الأعرابى ليس زنا، إنما هو السعي لإنجاب ولد .، ولا غبار عليه ، فإن القبلة فى نظر (عزة) صعب أن تنيلها لكُثيِّر، الشاعر الذى حمل اسمها ، فيقال له : كثير عزة .. فقد دخلت عزة الميلاء صاحبة كثير هذه على أم البنين ابنة عبدالعزيز ، وهى أخت عمر بن عبدالعزيز وزوجة الوليد بن عبدالملك ، فقالت لها أرأيت قول كثير :

قضى كلُّ ذى دَيْنٍ فَوَفَّى غريمَه
وعزةُ ممطولٌ معنًّى غريمُها

ما كان ذلك الدين ؟ قالت عزة : وعدته قبلة ، فخرجت منها ، ولم أعطه إياها فقالت أم البنين : انجزيها وعليّ إثمها . !!

هكذا تكون رعاية الحكام للرعية ، وحرصهم على انبساطهم ووفائهم بالديون .!



(١٧) أخبار الظراف والمتماجنين – ص ٥٣ .
(١٨) المرجع السابق – ص ١٢٧ .
(١٩) الآية (١٦) من سورة المرسلات .
(٢٠) الاية (١٧) من سورة المرسلات .
(٢١) الآية (١٨) من سورة المرسلات .
(٢٢) طرائف من التراث العربى – ص ٤٥ .
(٢٣) المرجع السابق – ص ٨٧ .
(٢٤) أخبار الظراف والمتماجنين – ص ١٢٦ – ١٢٧ .
(٢٥) سورة يس – الآية (٢٢) .
(٢٦) طرائف من التراث العربى – ص ٦١ – ٦٢ .
(٢٧) أخبار الظراف والمتماجنين – ص ٨٥ .
(٢٨) سورة القمر – الآية (٤٨) .
(٢٩) سورة الرحمن – الاية (٥٤) .
(٣٠) أخبار الظراف والمتماجنين – ص ١٣٤ .




ألاقى عندك قاموس
عربى/تفتيح مخ ؟



حكايا السكاري

يوهم السُكْرُ من يقع فيه بأن الحياة أجمل، و تضحك له وبه . ويفسد السكر حكمه على الأشياء وحسبته للمقادير .. فهو حين يسير ليلاً - مثلا - ويرى بقعة من الضوء على الأرض يظنها بحيرة من الماء ، فيرفع رجله لأعلى كى يعبرها . !! وإذا ارتفعت الأرض أو انخفضت عدة سنتيمترات ظن تلاً عاليا يقف أمامه فيرفع رجله ويفتحها ليجتازه !! وقد يجد حصية صغيرة فيظنها صخرة كبيرة، فينحرف عنها . . وهكذا يسير فى الطريق راقصاً : أعلى وأسفل ويمينا وشمالا . فينال سخرية الناظرين وعجبهم من هذه الحركات العشوائية غير المبررة لديهم ، والمبررة لدى السكران نفسه . فى حالات السكر والسُطَل هذه إذا وقعت عين المسطول فى عين أى إنسان ظنه يشتمه ، أو يستخف به ، أو يخرج له لسانه، فتزداد عين المسطول حمزة ، ويريد أن يثب على هذا المستخف به المعتدى عليه !! ثم إنه حينما يصل إلى حد معين من السكر ينسى يومه ويتوزع بين أمسه وغده .. فهو - إذا كان من أصحاب الجاه والمال الذين جار الزمان عليهم - تذكر هذا الماضى وراح يعيشه ويسترجعه كأنه مازال يعيش فيه ، فنراه يصرخ : أنا جدع!! وإذا كان ذا حُلْم وطموح يعجز عن تحقيقه واحتضانه يتخيل - فى حالة سكره هذه - أنه قد بلغ المنى ، وحقق المعجزات ، فيمشى منتفخا مبتسماً ، وربما ضاحكا مقهقها . !!

والسطل غير السكر . فالسكر بدرجاته يخلّفه شرب الخمور بأنواعها .. أما السطل فهى تنتج من تدخين الحشيش ومشتقاته وتعاطى الأفيون .

ولأهل هذا العالم المخدّر تعليقاتهم النارية التى قد تكون صادقة حينا وكاذبة أحيانا ، وتستدعى الضحك غالباً . ففى أحد المساجد قديما جلس واعظ قاص يعظ الناس ويقول : إذا مات العبد وهو سكران ، دُفن وهو سكران ، وحشر وهو سكران . فقال رجل فى طرف الحلقة لآخر : هذا والله نبيذ جيد ، يسوى الكوز منه عشرين درهما . !!

هكذا يفسرون حادثة الموت ، ويرونها بمنظور السكر فقط .. فالخمر لديهم هو الدنيا والآخرة . وقد حاول شاعر سكير أن ينام ليلة وليس لديه ما يشربه ، وتسلطت عليه البراغيث ، فطردت النوم من فراشه ، فأرسل إلى صديق له يقول :

أشكو إليكَ براغيثَ بُليتُ بها

سوداً إذا انتبهتُ فى الليل لم أنمِ
أصيد ذا فيبقى ذا فيلدغنى

فينقضى الليلُ فى صيدى ولدغهمِ
وقد تيقنتُ أنى ليس ينقذنى

غير الشراب .. وليس الصحو من شيمى !!
فابعث إلىَّ دمَ العنقود أشربه

حتى إذا نمت لم أشعر بسفك دمى !!

وهم يعلمون سمات صديقتهم – الخمر – شكلا ومضمونا وأبعاداً وأعماقاً .. وقد « أنشد عكاشة الهادى أمير المؤمنين شعرا ، وصف فيه الخمر وصفا دقيقا ، فقال الهادى : لقد استوجبت حد الخمر ، ولابد من عقوبتك وجلدك . وقال عكاشة : أعطنى الأمان حتى أدافع عن نفسى ، وأدلى بحجتى ، وأذكر برهانى

على براعتى . قال الهادى : أعطيتك الأمان فتكلم بما شئت. قال عكاشه : هل أجدت وصفها يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم ، أجدت وصفها كأنك عالم بها ، ومدمن على شربها . قال عكاشة : وكيف عرفت أنت يا أمير المؤمنين أنى أجدت وصفها إذا كنت لم تعرفها ولم تذقها ؟ فإن كنت أنا قد وصفتها مستعينا بذكائى وما أسمعه عنها فقد شركتنى فى ذلك وإن كان وصفها لايعرف إلا بشربها فقد عرفتها وشركتنى فى ذلك . فضحك الهادى . وقال : حميت نفسك بدهائك وذكائك ونجوت » (٣١)

ويستطيع الممحص فى هذه القصة أن يرى جدلاً بين اثنين من محترفى شرب الخمر : لكن أحدهما قوى يستطيع إيذاء غيره والإدعاء بما شاء من إيمان وزهد وحكمة ، والآخرلا يملك غير الذكاء والمنطق ، وقد انتصر ذكاء الشاعر على جبروت السلطان . !!

ومن تقاليد السكارى أن يسهروا خارج منازلهم بعيداً عن رقابة الزوجات وفضولية الأبناء .. فكأنهم منفصمو الشخصية : أمام أبنائهم وزوجاتهم وقورون ملتزمون الجادة ، ومن خلفهم يسخرون ويسخر منهم ، ويشتمون ويشتمون ، ويلطمون من أى واع ، ولا يستطيعون أن يلطموا ذبابة لأنهم أضعف ما يكونون وهم سكارى .

فى ساعات الليل المتأخرة عاد سكير إلى منزله .. « وحاول ألا يحدث ضوضاء ، حتى لا يوقظ زوجته التى كانت تعنفه دائما . وبينما هو ذاهب الى السرير استيقظت الزوجة وسألت : كم الساعة ؟ فأجاب فى ضيق : الواحدة وفى تلك اللحظة دقت الساعة مدوية تعلن الرابعة ، فصاح فيها السكران : كم أنت وقحة أيتها الساعة !! لقد فهمت جيدا أنها الواحدة ، فأى داع لأن تكريها لى أربع مرات ؟! » (٣٢) .

وهذا نموذج للضحكة الإيطالية ، التى هى أقرب الضحكات إلى الجو العربى الدافئ الصادق ، لكنها لا تحمل أى بعد سياسى ، وإن كان يمكن أن نتلمس منها بعداً اجتماعيا يتمثل في محاولة انفلات الرجل من قبضة زوجته ، وعدم

مصاحبتها له فى سهراته وحياته الخاصة ، وهو نوع من التفكك الأسرى . ومن ناحية أخرى نرى نفوذاً للزوجة لا يستطيع أن ينكره خاصة وهو يحس بالخطأ .

وفى حشاشة الليل الأخيرة خرج إمام العبد مع شفيق المصرى من البار . وكانت ليلة يفت فى العظام بردها .. فاستقلا عربة حنطور ، ومضت بهما على غير هدى تتخبط فى شوارع القاهرة وميادينها ، وهما صامتان . فسألهما قائدالعربة : البهوات رايحين على فين ؟! فرد إمام العبد وأسنانه تكز على شفتيه ورأسه يميل على كتفه يمينا ويساراً : الدنيا برد .. إحنا مش قادرين نتكلم . إذا كنت عاوزنا نرد عليك اقف فى شارع دفا واحنا نقولك !!

هذه إجابة نثرية لسكران ... وقد تجيئ الإجابة شعرية فى رونق بهيّ ، ونسج محكم من التعبير والخيال .. فليلة أحضر العسس للأمير (العريان) رجلاً سكران، فسأله الأمير : من أنت ؟ فأجاب :

أنا ابن الذى لا ينزل الدهر قدْره
وإنْ نزلتْ يوماً فسـوف تعـودُ
ترى الناسَ أفواجاً إلى ضوء ناره
فمنهم قيامُ حولهـا وقعـودُ ..

فظنه الأمير من أهل المحتد الأصيل ، والسابقة فى الكرم والشرف ، فتركه . ثم سأل عنه فإذا به ابن (بائع الفول) !! وإذا كان هذا الشاب الشاعر ابن بائع فول وبهذا الذكاء ، فمن المؤكد أنه كان يطعم الناس فول أبيه ولا يذوقه هو . !!



(٣١) أمين أحمد العطار وعبدالفتاح إسماعيل شلبى :
من قصص الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى –
ط دار مصر للطباعة .

(٣٢) ضحكات إيطالية من كتاب Leggiamo econversiamo
لـ ..Gbottaglia





«ولد فى الكويت ومات فى البوسنه ...!!»

(٢٠)



اللهم أكتبنى عندك فى أم الكتاب انجليزيا ، فإن لم يكن ياذا المن فاكتبنى عندك خواجا ، فإن لم يكن ياذا الإكرام فاكتبنى عندك خديويا .. أو باش أغا أو أغا . !!

هكذا دعا الوطنى العظيم ، والساخر السياسى الكبير عبدالله النديم . ولكن بعد وفاته بعدة عقود من الزمان غيّر ورثته هذا الدعاء ، وضعوا بدل الانجليزى (الأمريكى) .. وبدل الخواجا (يابانيا) .. وبدل الخديو والأغا وضعوا فى دعائهم مدللى هذا الزمان (الإسرائيليين) !! وهذا تطور لابد منه كيما نلحق بالعالم الحديث ، ونجاريه ، ونتفوق عليه !! خاصة أننا عملنا بنصيحة شاعرنا الحكيم معروف الرصا فى حين قال لنا معشر العرب :

من شـــاء منكـــم أن يعيــش اليــوم وهو مكـــرَّمُ
فليمسِ لا سمـعُ ولا بصـرُ لديه ولا فـــم
لا يستحـــق كرامــةً إلاَّ الأصـمُّ الأبكــم
ودعوا السعـادة إنمـا هي فى الحياة توهُّــم
فارضوا بحكم الدهـر مهما كان فيه تحكُّم
وإذا ظُلمتم فاضحكوا طَربــاً ولا تتظلَّمــوا
وإذا أُهنتم فاشكـــروا وإذا لُطمتم فابسمــوا

إن قيل هذا شهدكم مُرٌّ فقولوا : علقمُ
أو قيل إن نهاركم ليلٌ فقولوا : مظلمُ
أو قيل إن بلادكم يا قومُ سوف تُقَسَّمُ
فتحمّدوا وتشكّروا وترنحوا وترنموا

وفعلا قد ترنمنا وترنحنا كثيرا ، ونحن نرانا موزعى الأوطان والنفوس والحقوق، ومنا من يغنى لليالى الأنس فى فيينا وباريس ولاس فيجاس ، ومنا من يفتقر لرغيف الخبز .. كما قال حافظ إبراهيم :

عزّت السلعة الذليلة حتى بات مسح الحذاء خطبا جساما

وغدا القوت فى يد الناس كالياقوت ، حتى نوى الفقير الصياما

ويخال الرغيف فى البعد بدرا ويظن اللحوم صيدا حراما !!

هذا النوع من الكتابة يمكن أن يدخل فى باب (السخرية) التى هى عبث ممضٌ قولاً أو عملا واقعا مترديا أو مأساويا ، بطريقة تدفع للضحك مع التفكير فيما وراءه .. وقد تأتى هذه السخرية من الأوضاع العامة للأمة : قال عبدالله النديم : شاهد خفير لصاً يهبط من نافذة ومعه ملابس . فهتف الخفير فى اللص : مين اللى هناك ؟ قال اللص : أنا خواجا . فرد الخفير معتذراً : لا مؤاخذة .. كنت أحسبك مصراوى . !!!

فحينها كانت السرقة حلالاً للأجنبى ، حراماً على ابن الوطن ! . أما وقد دخل التطوير على هذا المفهوم فى زماننا ، فقد أصبحت السرقة حلالاً « لبعض» أبناء الوطن – رضى الله عنهم وأرضاهم عنا . !!

وقد واصل النديم سخريته من هذا التردى والعنصرية والظلم أيام الاستعمار – ما أحوجنا الآن إلى مائة نديم – فقال فى إحدى سخرياته : وقفَ خواجا أمام القاضى . فسأله : أنت قتلت الرجل ده يا خواجا ؟! ورد الخواجا : لا يا خبيبى ..

هو كتل روخه » !! فهتف القاضى منشرحاً: براءة !! وجاء دور أحد أبناء البلد فسأله القاضى : انت ضربت الراجل ده بالسكين ؟ ورد ابن البلد فى ضراعة : لا والنبى يا سيدى القاضى ....فسأله القاضى ثانية : أمال يعنى هو اللى ضرب نفسه ؟! فرد ابن البلد :

أيوه يا سيدى . وعاد القاضى يقول : غريبة .. فيه حد يضرب نفسه .. أنت اسمك أيه ؟! ورد ابن البلد فى ذكاء وسرعة : اسمى « محمد حسين » !! وليست السخرية من الأوضاع العامة المقلوبة جديدة ، إنما لها سوابقها فى تاريخنا الإنسانى والعربى .. فيوماً ما دخل الشاعر الظريف أبو دلامة على الخليفة المهدى، وبين يديه (سَلَمَةُ) الوصيف واقفا ـ الوصيف هو الخادم الرشيق الوسيم ـ فقال: إنى أهديت إليك يا أمير المؤمنين مهراً رشيقا ليس لأحد مثله ، ألا تشرفنى بقبوله. فأمر بإدخاله إليه ، فخرج أبو دُلامة وأدخل إليه دابته التى كانت تحته ، فإذا هى حمار محطم أعجف هرم يسير بصعوبة . فقال المهدى : و يلك .. أى شئ هذا!! ألم تزعم أنه مهر ؟! فقال له : أوَ ليس هذا سَلَمة قائم بين يديك تسميه الوصيف وعمره ثمانون عاماً ؟! فإن كان سلمة وصيفاً فهذا مهر . !!

ففى بعض دواوين الحكم يتربع على المناصب من كان يجدر به أن يتربع على كومٍ من القمامة ، أو يستقر فى قبر تنبشه الذئاب !! حتى يخلى المكان لمن هو أهلٌ له . وقد سخر أبو دلامة من هذه الحال بحبكة تمثيلية جمعت بين الفعل والقول .

★ ★ ★

وقد تنصبُّ السخرية على الآخرين من عامة الناس ، أو من مشاهيرهم فى سائر مناحى الحياة . فقد كان زيور باشا رئيساً لوزراء مصر فى العهد البائد ، وكان ضخم الجثة ـ لابتلاعه حقوق الشعب ! – فوصفه عبدالعزيز البشرى بأنه إذا ركب العربة لم يستطع أحد أن يعرف هل هو جالس إلى الشمال ، أو هو

جالس إلى اليمين ؟! وأنه كان يمشى فى حديقة داره فتراهن اثنان من المارة : هل هو يسير أمامهما أم هو متجه إليهما !!

وفى موقف آخر أعطى البشرى زيور حقه من الوصف التفصيلى لكل طن من أطنان جسده ، وكل هضبة من هضباته ، وكل صخرة من صخوره ، ومقلب قمامة من مقالبه !! قال عنه : إذا اطلعت عليه أدركت أنه مؤلف من عدة مخلوقات لا تدرى كيف اتصلت ، ولا كيف تعلق بعضها ببعض .. وإنك لترى بينها الثابت وبينها المختلج ، ومنها ما يدور حول غيره . وأهل مصر يأخذون على زيور « كله» ما لا يحصى من الجرائم على القضية الوطنية . وإنهم ليعدون عليه بأموال الدولة واستهتاره بمصالحها . ولكن من الظلم أن يؤخذ البرئ بجريرة الآثم، وأن يعاقب المظلوم بجريرة الظالم . فقد يكون الذى اقترف كل هذه الآثام هو كوع زيور الأيسر ، أو القسم الأسفل من « لغده» أو المنطقة الوسطى من فخذه اليمنى .. إن الحق والعدل ليقضيان بتأليف لجنة تقوم بعمل تحقيق مع صاحب الدولة ، فتسأل أعضاءه عضواً عضواً ، وتحقق مع أشلائه شلواً شلوا . ولعل العضو الوحيد المقطوع ببراءته من كل ما ارتكب من الآثام هو مخ زيور ، فما أحسبه شارك ولا دخل فى شئ من كل ما حصل . !!

ولكن البشرى كان رفيقاً حين رسم لوحة وصفية لفكرى أباظة ، أقل خطوطا وظلالاً وألوانا من لوحة زيور.. قال عن فكرى : متكور الوجه ، أضيق العينين فى ضيق محاجر ، مقرون الحاجبين . لو رأيته مع إخوته لحسبته بعض تلك النباتات التى تخرج وحدها لم يتعهدها منجل البستانى بالتسوية والتهذيب .

ومن هذه الطريقة الوصفية الساخرة لم ينجُ حافظ ابراهيم حينما قال عنه عبدالعزيز البشرى : جهم الصوت ، جهم الخلق ، جهم الجسم . كأنما قُدَّ من صخرة فى فلاة موحشة ، ثم فكر ــ فى آخر لحظة ــ أن يكون إنسانا فكان والسلام . أما عيناه فكأنهما دقتا بمسمارين دقاً ، وأما لون بشرته ــ والعياذ بالله ــ فكما عهد به إلى نقاش مبتدئ تشابهت عليه الأصباغ والألوان فذاب أصفرها

في أخضرها في أبيضها في بنفسجها ، فخرّج مزجاً من هذا كله لا يرتبط بواحد منها بسبب . وإذا أطلقته في البر حسبته فيلا ، وإذا أطلقته في البحر حسبته درفيلا . !!

فهذه ـ إضافة لكمّ ما تحمل من سخرية ـ آية وصفية رائعة : فيها اللون، والضوء ، والحركة ، والاضطراب ، والجمل الموسيقية . ولا يمر عليها متذوق إلاّ وهو يتوقف عند لفظة (أطلقته) في نهايتها . !!

أما حافظ صاحب هذه الصورة البشعة ـ كما عرضها البشرى – فقد « تشطّر» على الأديب الدكتور محجوب ثابت الذى عاش عمره يحلم بمنصب وزارى ، ويشيع فيمن حوله مرةً أنه نائله عاجلاً أم آجلاً ، ومرة أنه تأبّى على المنصب ورفضه ..

يقول فيه حافظ إبراهيم :

يبيت يحلُمُ أحلاماً مذهبـــةً
تغنى تفاسيـرها عن علم ابن سيرين

طوراً وزيراً مشاعاً فى وزارتـــه
يصـرف الأمـر فى كل الـدواوين

وتارة زوج بمطبولٍ مدمـلجـة
حسنـاءَ تمـلك آلاف الفـــدادين

يُعفى من المهر إكراماً للحيتـــه
وما أظلّتـــه من دنيـــا ومن ديـن

ويبدو أن محجوب ثابت كان مادة مُلهمة لسخرية الشعراء .. فخصّه شوقى أيضا بقصيدة عن براغيثه . قال فيها :

براغيثُ محجوبٍ لم أُنسهــا
ولم أنسَ ما شربتْ من دمى
تشقُ خراطيمها جـور بـــى
وتنفذ فى اللحـم والأعظـمِ
وتنظرها حول بيت الرئيـــس
وفى شاربيه وحـول الفـــمِ

(يبدو أنه أقام مزرعة براغيث فى شاربه !!)

بواكيرُتطلع قبل الشـــــتـاء
فتحمل ألـــوية الموســـمِ
قد انتشرت جوقة جوقـــــةً
كما رشت الأرض بالسمسمِ
ترحب بالضيف عند الطـريـق
فباب العيـــادة فالسلـــمِ !!

ولم يغضب محجوب ثابت حين تحدث عنه حافظ ، أما حين تعرض شوقى لبراغيثه فقد ثارت ثورته ، وهجا شوقى بمقال أرسله لبعض الصحف ، ثم عاد فسحبه !! وهذا نوع من الوفاء بين بنى البشر وبنى برغوث . !!

وربما توجه لدغ السخرية إلى الآخرين من غير المعروفين فى المجتمع ، وحينها لا يذكر الاسم . قال إبراهيم عبدالقادر المازنى يصف زنجيه : كأنها زير ، عليه إبريق ، مقلوب فوقه كرة ذات ثقوب . !!

وكان لإمام العبد صديق شديد الكبرياء والفقر . فقال عنه : مرة صاحبنا ده كان ماشى فى السكة وبخدين لقى نص فرنك ، فضل واقف جنبه لحد ما فات واحد فقير ، فنادى عليه وقال له : وطى يا ولد هات النص فرنك ده !! .

وبمناسبة الفقير المتكبر هذا يقال إن مصرياً من أصل تركى ، كان مرفهاً ثريا، ثم مال الدهر عليه فأسكنه قبور الفقر .. ولأن قصره كان يحفل بالخدم والحشم، وهو آمر فيهم ناه لهم ، وقد باع القصر ، وضيّع الخدم والحشم .. ولا يستطيع أن يعيش بغير أن يأمر وينهى ، لذلك اشترى قلّتين وجلس بهما أمام مسجد الحسين .. فإذا مد أحد الناس يده ليشرب من قُلّة هب الرجل قائلا : لا. ما تشربش من دى ، واشرب من دى . وإذا سأله الشارب : لماذا ! يقول له : علشان دى بارده . !!

★ ★ ★

والساخرون إن لم يجدوا مَنْ أو ما يسخرون منه ، ربما سخروا من أنفسهم : تدريبا لقدراتهم ، وتمريناً دائما لها . ولهم فى هذا مآرب أخر . فهذا الشاعر الكوفى الحكم بن عَبْدَل فى القرن الثانى للهجرة يستجدى ممدوحه ويسخر من نفسه فيقول :

يا أبا طلحةَ الجواد أغثنى
بسجال من سَيْبكَ المقسومْ
أحى نفسى ـ فدتك نفسى ـ فإنى
مفلس ـ قد علمت ذاك ـ عديمْ
أو تطوّع لنا بَسلْف دقيق
أجره ـ إن فعلت ذاك ـ عظيمْ
قد علمتم ـ فلا تَعامس عنى ـ
ما قضى الله فى طعام اليتيمْ
ليس لى غير جرة وأصيص
وكتاب منمنم كالوشومْ
وكساء أبيعه برغيف
قد رقعنا خروقه بأديمْ
وإكاف أعارنيه نشيط
هو لحاف لكل ضيف كريمْ

وهذا الخط من السخرية بالنفس التمسه وسار عليه كثيرون من التالين للحكم ابن عبدل .. وزعيم البؤس فى هذا الزمان عبدالحميد الديب كثير مما كتبه يصور فيه ذات نفسه البائسة ، ويستخف بها وبالحياة كلها . قال يصف حاله :

ثيابى كمصطاف الغنّى نوافذا
ومِشْتى الفقير ابن السبيل هشيما
ولى غرفةٌ كالقبر لم تحوِ أرضُها
سوى أثاثا كالهباء قديما

وفى موقف آخر يبدو الديب يائسا معطيا ظهره للدنيا بتناقضاتها وهمومها هازئا بها وبنفسه .. يقول :

دع الشكوى وهات الكأس نسكرْ
ودعك من الزمان إذا تنكّرْ
وهام بى الأسى والبؤس حتى
كأنى عبلةٌ والبؤس عنترْ
كأنى حائط كتبوا عليه:
هنا يا أيها المزنوق « طرطر » !!

وإذا كانت سخرية الديب تتركز على الفقر ، والنقص الاقتصادى ، فإن إمام العبد يسخر من سحنته السوداء . كان جالساً فى بار اللواء يكتب خطابا لصديق ، فتساقطت نقطة من الحبر على الأرض ، فقال على الفور : يا خبر أسود ، الواحد بقى يعرق كثير اليومين دول . !!!

وليس المازنى بأقل تندراً على قصر قامته من أمام العبد .. ففى أثناء زيارة العقاد والمازنى للقدس ، وكان معهما فى جوله واحد من أسرة النشاشيبى أطلق مجهول عليهم النار فجأة .. فانبطح العقاد أرضا ، وجرى النشاشيبى ، بينما ظل المازنى ، واقفا مكانه .. فاندهش الناس لثباته فى مواجهة الموت ، وسألوه عن ذلك فأجاب : أنا خفت أجرى الراجل يشوفنى . !!

وتتواصل سخرية المازنى من قصر قامته ، فيقول للعقاد بعد أن اشترى صديرياً: اشتر لى واحداً كهذا ، أعمله بالطو . !! وجاء مرة إلى بعض أصدقائه، فقال لهم بفخر : النهاردة أنا حميت فلان من علقة كان ها يأكلها .. وسألوه مندهشين: إزاى ؟! قال : أنا كنت ماشى معاه ، واتشاكل مع واحد زى البغل ، والراجل حلف إنه لازم يضربه لحد ما يموته .. قالوا : وبعدين ؟! رد : وبعدين الراجل بص ناحيتى وقال : طيب حاسيبك عشان خاطر العيل اللى معالك . !!





الناقصون .. أيضا يضحكون !!

ليس يُضْحك من الجمال ولا الكمال ، إنما هما يثيران أنبساطا ورضا فى النفس ؛ لكنه رضا من طبيعة غير طبيعة الضحك الذى يكون استخفافا بقبح ، ونوعاً من معالجة نقص ما بطريقة غير وعظية . وقد يكون فى حالة سخرية الناقصين من أنفسهم نوع من التصبر والتجلد . وربما ظل الضاحك ضاحكا من الدنيا والناس ونفسه حتى أحرج لحظات حياته . ففى الأيام الأخيرة من عمر حسين شفيق المصرى فقد بصره ، وتطوع شاب من أقربائه لمرافقته . ولما سأله صديق عن الشاب الذى يرافقه . أجاب : دا واحد « ساحبنا» . !!

ولهذا النوع من الضحك أو التصبر تاريخ عريق .. يقال إن رجلا أعرج وَلِي الشرطة بالكوفة ، ثم ولى الإمارة أعرج آخر . وخرج الشاعر الأعرج ابن عَبْدَل ، فلقى سائلا أعرج قد تعرض للأمير يسأله ، فقال ابن عبدل للسائل :

ألقِ العصا ودع التَّحَامُل وَالتمس
عملاً ، فهــذى دولة العرجانْ
لأميرنا وأمـــير شـرطتنا مـعًا
يا قومنـــا ، لكليهـــما رِجْـلانْ
فإذا يكـون أمـيـرنا ووزيــــره
وأنا ، فـإن الـرابع الشـيطـانْ !!

وقبح الصورة على الرغم من أن الإنسان لا ذنب له فيه ، ولو خيروه لاختار وجه مارلين مونرو ، وقوام فريدة فهمى ، وشعر بنت خالتى !! فإن السخرية قد تجرى على الألسنة اللاذعة عابثة بهذه الخلق العكرة .. يقال إن بعض البصريين من أصحاب أبى هذيل قدم بغداد فلقى اثنين من المخنثين فقال لهما : أريد منزلا . وكان هذا البصرى فى نهاية القبح . فقال أحد المخنثين : بالله من أين أنت؟ قال : من البصرة . فأقبل على رفيقه يقول : لا إله إلا الله ، تحول يا أختى كل شئ من الدنيا حتى هذا .. كانت القرود تجيئ إلى بغداد من اليمين فصارت تجيئ من البصرة . !!

وقد ينفع القبح أهله !! فلو كان الجاحظ وسيما « محندقاً » ما قعد فى عقر داره هاجراً الناس ، مرافقا الكتب ، حتى أصبح بحراً من العلم وأصبح واحدا من المراجع التى غاص فيها حتى الموت . !! وهو لا يحرج أن يروى ما وقع له فى هذا السبيل . قال : ما اخجلنى أحد إلا امرأتان : رأيت إحداهما ، وكانت طويلة القامة ، وكنت على طعام فأردت أن أمازحها فقلت لها : انزلى كلى معنا (معرّضا بطولها) . فقالت : اصعد أنت حتى ترى الدنيا (معرضة بقصره) . وأما الأخرى فإنها أتتنى وأنا على باب دارى فقالت : لى إليك حاجة ، وأريد أن تمشى معى . فقمت معها إلى أن أتت إلى صائغ وقالت: مثل هذا ، وانصرفتْ . فسألت الصائغ عن قولها . فقال إنها أتت إليّ تسألنى أن أنقش لها على خاتم صورة شيطان ، فقلت لها ما رأيت الشيطان لأنقش صورته . فذهبت وأتت بك وقالت ما سمعت . » (٣٣)



هوامش

(٣٣) طرائف من التراث العربى – ص ٢٠٩ ـ ٢١٠ .





لصوص .. ومرتشون .. وجهلة !!

أمراض المجتمع يعالجها الحاكمون بالقوة ، ويعالجها الشعب بالنكته .. لكن يبدو أن هذا الشعب ـ أى شعب – لا يعاقب من اللصوص ـ مثلا ـ إلا أضعفهم ، حتى ولو على سبيل التندر بكلمة . فقد تابعتُ حكايات اللصوص كثيراً ، ولم أجد مستهزءاً به ، مقبوضاً عليه إلا « الغلبان» منهم الذى قد يسرق أنيةً أو حذاءً أو لحافاً ممزقاً !! ولم أرَ فيما أُطْلعتُ عليه نكتة تهزأ من لص صاحب ملايين ، أو من حاكم لص سرق المال ، والحكم من أهله !! .. أيعود هذا إلى أن معظم اطلاعاتنا ومراجعنا فى هذا المجال « قديمة» وكان القدامى متواضعين فى سرقاتهم ، وكانوا يلجأون إليها حماية لأنفسهم ـ ولبعض الفقراء ـ من الجوع كصعاليك العرب فى الجاهلية مثلا ؟!! أم يرجع إلى أن اللصوص الكبار يغطون لصوصيتهم بالنفوذ ، والتحكم ، وتوجيه وسائل الدعاية والنشر ـ قديماً وحديثاً ـ لصالحهم ؟!! ربما هذا ، وربما ذاك ، وربما السببان معاً .. وغيرهما .. لكن لنبق نحن مع اللصوص الغلابة وحكاياتهم . !!

« قبض على رجل بتهمة سرقة بقرة ، ثم عرض على مشهد من الناس فى الشارع مقيدا بالأغلال . فسأله صديقه الذى مر بهذا الشارع فى ذلك الوقت : ما الذنب الذى ارتكبته حتى تعرض هكذا أمام الناس ؟ فأجابه الرجل : إننى رجل مشئوم كما ترى . كنت هذا الصباح أتجول فى الشارع ، فوجدت على الأرض حبلاً مضفوراً من القش ، فتناولته لأستخدمه فيما بعد لربط شيء ما . فقال

صديقه : هذا أمر بسيط ، فكيف تعامل هذه المعاملة السيئة ؟ أجابه ثانية : لكن كانت هناك بقرة صغيرة مربوطة بالطرف الآخر من الحبل . » (٣٤) .

وهذا اللص الصينى الصغير على حق لسببين : الأول أن الحبل هو الذى سرق البقرة !! الثانى : أن البقرة غبية ، فهى لم تذكر له أنها مربوطة بهذا الحبل الذى يشده !!

وعلى الرغم من صغر سرقة هذا الرجل الصينى، وكبر فضيحته التى تشبه ما كان يفعله رجال الشرطة فى الدولة الفاطمية والأيوبية بمصر حين يسرق أحد المواطنين شيئا فيضعونه معكوساً على حمار ، وجهه فى ذيل الحمار ووجه الحمار فى ذيله!! ويغرقون وجهه بالدقيق ، ويدقون حوله الأجراس والنواقيس والطبول ، ويلفون به المدينة مسمين هذه الحالة من الفضيحة (الجُرْسَة) .. على الرغم من صغر هذه السرقة الصينية فإن فى مصر ما هو أصغر منها بكثير .. فهذا أمير الشعراء البائسين: عبدالحميد الديب يهديه أحد أصدقائه لحافاً قديما مستهلكا فيفرح به لأنه منقذه الوحيد من التغطى بورق الجرائد والالتصاق بأرض الشتاء وزمهريرها.. لكن الديب المنكود لم يكد يفرح بلحافه حتى سرقه لص. فقال فيه:

لحافى ، وهل غير الهباء لحافى ؟
بقية نَسْجٍ دارسٍ ونداف
أطاف به لص فقير كعيشتى
فيا بؤسها من هجرةٍ ومطاف
ولم أخش من ذا الرُزءِ إلاّ فضيحتى
بأنى قد مُلكتُ شرّ لحاف
فليتك يا لصى الجرئ وجدتنى
غنياً وسعدى فى الحياة موافى
وياليتنى ما كنت صيدك ، إنما
سرقتَ لحافى جاهداً وشغافى
وياليتنى دون اللحاف ضحيةٌ
فإنى صديقٌ فى الحياة موافى

فكم ليلة تحت اللحاف قضيتها
أسامر أحلامي وطيف سلافي
وكم ذا وقاني البردَ في جُنح ليلة
بها الموتُ من كل المواجع شافِ
لقد ضاع مني ذا الغطاء ، فهل تُرى
أدثّر شعرا ضافيا وقوافي ؟!

وبمناسبة هذا الشعر الذى لا يمكن أن يتدثر به عبدالحميد الديب كان بمصر فى الخمسينيات شاعر اسمه خليل جرجس خليل ، أصدر ديواناً بعنوان : (أيام عشناها) ، فلم يوزع الديوان غير عشر نسخ اشتراها الشاعر وآل بيته !! فأعلن خليل هذا توبته عن الشعر ، ورحل فى « حج» طويل إلى الولايات المتحدة الأمريكية لم يعد منه حتى الآن !! وفى هذه الواقعة المفجعة المضحكة قال الشاعر محمد التهامى :

يا فارسَ الشعر مهلاً	فكم قصيدك صارا
لو كنتَ تاجرَ قشٍّ	جمعت منه النُّضارا،
أو كنتَ حتى تغنى	فتضحك السمارا،
أو طفتَ فى ثوب حاوٍ	ورحت تأكل نارا ،
أحرزت فى الناس جاهاً	ونعمة و يسارا
لكنْ بُليتَ بفنٍ	عرضته أشعارا
أنفقتَ عمرك فيه	وبات يشكو البوارا
فقد عرضت اللآلى	فلم تجد تجارا !!

وأقل درجةً من لص الديب لص آخر .. « قال محمد بن سكره : دخلت حماما ، وخرجت وقد سُرقتْ مداسي فعدت إلى دارى حافيا ، وأنا أقول.:

إليكَ أَذُمُّ حمّـامَ ابـن مـوسى
وإن فـــاق المنـــى طِيْــباً وحَــرّاً
تكاثرت اللصوص عليـــه حتى
ليحفـــى من يطـــيف به ويعـــرى
ولم أفقدْ بـه ثــوبـا ولكـن
دخلتُ محمداً ، وخرجتُ بشْرا (٣٥)

يقصد المحدّث المشهور « بشر الحافى » !

وهناك درجة من اللصوصية لا درجة تحتها : من يرغب فى السرقة فيُسْرق هو !! ومما يشاع بهذا المعنى فى الصين أن لصاً تسلل « إلى بيت رجل فقير يبغى السرقة ، ولكن لم يجد فى البيت ثمينا إلاّ وعاء أرز فوق السرير . فقرر أن يسرق ما فيه من الأرز ، فخلع ثوبه ونشره على الأرض بغية وضع الأرز فيه ليحمله بسهولة . وفى ذلك الوقت استيقظ صاحب البيت ، فرأى حركات اللص بكل وضوح تحت ضوء القمر . فشرع يسحب خلسة ذلك الثوب المفروش على الأرض ، وأخفاه تحت السرير . وبعد قليل استيقظت زوجته فسألته : سمعت صوتاً خفيفا فى غرفتنا ، أخشى أن يكون لص دخل بيتنا فقال زوجها : أنا مستيقظ من مدة طويلة ، ولم أجد لصا أبداً . وفجأة صاح اللص بعد أن سمع كلام صاحب البيت : كيف تقول بأنْ ليس هناك لص ؟ فمن سرق ثوبى الذى وضعته على الأرض إذن ؟! » (٣٦)

وهذى الحكاية الضاحكة تعد إحدى حِكَم الصين : فهى تحذير عملى لكل من يرغب فى سرقة (الغلابة) بأى شكل من أشكال السرقة ، فهو الذى سوف يسرق فى النهاية ، وسوف يفضح نفسه بنفسه . !!

غير هؤلاء اللصوص الحقراء ربما وجد لصوص « عديمو الذوق» !! فذات ليلة عاد الفنان التشكيلى بيكاسو إلى منزله بصحبة أحد أصدقائه ، فوجد أثاث

داره مبعثراً ، والأدراج محطمة ، دليل اقتحام اللصوص للمنزل فى غيبة صاحبه وسرقته . وحين عرف بيكاسو ما سطا عليه اللصوص ، بدا عليه الحنق الشديد .. فسأله رفيقه : هل سرقوا شيئا مهما ؟ فأجابه الفنان : كلا .. لم يسرقوا غير أغطية الفراش . فعاد صديقه مندهشا يسأله : إذن لماذا أنت غاضب ؟ فقال بيكاسو فى انكسار : يغضبنى أن هؤلاء الأغبياء لم يسرقوا شيئا من لوحاتى.!!

وليس الحق مع بيكاسو فى هذا ... إن للناس فيما يعشقون مذاهب .. ربما كان هؤلاء اللصوص يحبون اللوحات الواقعية لا السيريالية ، وربما كانوا من عشاق الموسيقى ولم يعثروا على مقطوعة يسرقونها ، ولكنهم فى كل الاحتمالات يفهمون فى « فنون السرير» ولهذا فقد سرقوا الأغطية ، فانحصرت الجريمة فى بعض المتزوجين حديثا . !!

كيف ـ إذن ـ يمكن إكتشاف حالات السرقة هذه ؟! إن لدينا علاجاً قديما وشهيراً . روى « عن محمد بن كعب القرطبى قال : جاء رجل إلى سليمان النبى ﷺ فقال : يا نبى الله إن لى جيرانا يسرقون إوزّى ، فنادى : الصلاة جامعة. ثم خطبهم . فقال فى خطبته : وأحدكم يسرق إوزّة جاره ، ثم يدخل المسجد، والريش على رأسه . فمسح رجل رأسه . فقال سليمان : خذوه إنه صاحبكم» (٣٧)

لكن من لنا بسليمان فى هذا الزمان الذى لا يكفيه مليون سليمان ليحصوا السرقات (السمينة) . ؟!!

★ ★ ★

وهناك نوع آخر من أمراض المجتمع ، سجله الإنسان الساخر بقلمه ، ورفعه سيفا على كل رقبة تُوبَأ به .. ذلك هو الرشوة التى تعد من الأسباب الثابتة لسقوط كثير من الدول .. وما يُؤثر فى السخرية من هؤلاء المرتشين أن أحد

الموظفين الكبار اختلس مالاً ، فعوقب على جريمته هذه وعُزل من منصبه ، ثم أُرسل إلى محافظة صغيرة بصفته محافظاً جديدا . وكان فى هذه المحافظة موظف صغير ، فأراد أن يختبره ليرى هل مازال شغوفاً بالمال ؟! فصنع دمية من الفضة وزنها نصف كيلو جرام . ووضعها على طاولة فى قاعة الاستقبال ، ثم دخل الغرفة الداخلية وقال للمحافظ الجديد : شقيقى ينتظركم فى قاعة الاستقبال ، فتفضلوا بلقائه . لم يكد المحافظ يسمع كلامه حتى أسرع إلى قاعة الاستقبال ، فرأى الدمية الفضية على الطاولة فوضعها فى جيبه وهو فى غاية السرور . وبعد فترة أساء هذا الموظف الصغير إلى المحافظ الجديد ، فحكم عليه بالإعدام . وقبل تنفيذ الحكم عليه توسل إليه الموظف قائلا : أرجو عفوكم وصفحكم عن ذنبى مراعاة لشقيقى الذى قابلته فى غرفة الاستقبال . فأجابه المحافظ الجديد : شقيقك أحمق ، لماذا لم يأتنى مرة أخرى ؟! » (٣٨)

فهذا موظف ذو غرض ثنائى : الاختلاس والرشوة .. وهناك موظفون متعددو الأغراض .. وليس خافيا أن كل موظف يعين حديثا ، أول ما يسأل عنه هو المكتب ، لا ليجلس عليه ويقضى مصالح الناس ، بل ليفتح أدراجه يتلقىٰ فيها النفحات . !!

★ ★ ★

وإذا كانت العيوب البشرية كالسرقة والرشوة والإختلاس أمراضا اجتماعية يجب علاجها بالحقن أو بالكى أو بالبتر فى كل القوانين، فإن هناك مرضاً لا يعاقب عليه القانون، لكنه ينال من استخفاف الشعوب ما يدفع صاحبه للانتحار.!!

وقفت سيدة إيطالية » ذات أناقة مفرطة أمام البائع فى إحدى المكتبات مترددة ، وهو يعرض عليها سلسلة من الكتب لتختار منها . وبما أنها لم تستطع أن تقرر ، فقد سألها البائع إن كانت تفضل قراءة شئ بعينه . فأجابت : بالتأكيد لا .. لكن

كنت أريد كتابا أدبيا مسليا .. كتابا أقطع به الوقت دون أن يرهق عقلى . فقال البائع : تريدين كتاباً خفيفاً إذن ؟! أجابت : لا .. لا يهم أن يكون خفيفا، فمعى السيارة أمام المكتبة !! (٣٩)

فهؤلاء النسوة الفارغات المضمون والرءوس لسن بضاعة عربية فقط إنما هُنّ فى كل شعوب العالم .. تحمل إحداهن ثراء المال وفقر العقل ، وتحكم على كل الأشياء بمفهوم مادى استعراضى .. فلابد أن تذكر أن لديها سيارة وتقف أمام المكتبة ، لينظر إليها البائع فيبتئس هو ، ويعظّمها هى - كما تظن !! ومن الواضح أن هذه الحكاية المضحكة ليست لاذعة كما هو حال الضحكات العربية أو المصرية على وجه التحديد ، وهى تميل إلى الإشارة والإيحاء والاقتضاب .. أما موروث الضحك فى الصين - من خلال متابعتى لكثير جداً منه - فيميل إلى الإطالة والاستطراد والإيضاح وربما التكرار .. وهذا الملمح فى الغرب - كإيطاليا - وفى الشرق - كالصين - يتكئ على طبيعة الناس ، ونمط حياتهم ، ومدى تقييمهم للوقت ، وثقتهم فى عقول سامعيهم ..

وغير هذه المرأة المظهرية الإيطالية ، هناك نموذج صينى أكثر جهلاً وإثارة للسخرية والشفقة معاً .. ذلك أن خادماً جاء يحمل « رسالة إلى أحد الأغنياء ليستعير منه ثوراً . وكان الغنى لا يعرف القراءة ، لكن فتح الرسالة أمام ضيوفه ، وتظاهر بقراءتها خوفاً من أن يسخر منه الحاضرون لعدم قدرته على القراءة ، ثم رفع رأسه وقال للخادم : حسنا ، سآتى بنفسى بعد لحظة . !! (٤٠)

وهو مادام غنيا ، فمن المؤكد أنه سمين الكتفين ، ممتلئ عافية ، فلا ضير أن يحل محل الثور فى جر المحراث . !!



(٣٣) طرائف من التراث العربى ـ ص ٢٠٩ – ٢١٠ .

(٣٤) فكاهات صينية ـ ص ١ـ٢ .

(٣٥) أخبار الظراف والمتماجنين ـ ص ١٢١ .

(٣٦) فكاهات صينية ـ ص ٣٣ ـ ٣٤ .

(٣٧) فكاهات صينية ـ ص ٣٣ ـ ٣٤ .

(٣٨) فكاهات صينية ـ ص ٣٥ ـ ٣٦ .

(٣٩) ضحكات إيطالية من كتاب : Leggiamoe Conversiamo [G.Battaglia] ـ ص ٤٩

(٤٠) فكاهات صينية ـ ص ٦١ .





النكته .. واخواتها !!

إذا نقّبنا عن مرادف لغوى للفظة (نكته) وعلى وزنها نفسه ، فإن أبرز ما يقفز للذهن هو لفظ (نبشه) .. فهذا المصطلح من مصطلحات الضحك يعنى لغويا النبش فى التراب ـ أو الأرض ـ بعود من الخشب أو عصاة للبحث عن شئ دقيق خفى .. وكذا تكون (النكته) التى تنبش فى اللغة وفى الرءوس وفى المواقف لتخرج عبارة كطلقة رصاص مفاجئة .. وهذا النوع من الإضحاك هو أشهر أنواع المضحكات ، حتى إنه يطلق على كثير منها بغير تفريق ، ذلك لقدم جريانه على الألسنة ولسهولة حفظه ونقله وروايته وتأليفه أحيانا .

قديماً عاد جحا إلى منزله يحمل بطيخة ، فقالت له زوجته : لقد طلبت منك أن تشترى لى بطاً ، فلماذا اشتريت بطيخاً ؟ فرد جحا خذى منها « البط ... » واتركى الباقى . !!

هكذا اللعب باللغة أو نكتها باللسان لإخراج معنى ضاحك .. ومن نماذجها القديمة أيضا فى هذا الإطار اللغوى أن شاباً أطال المكث عند الصاحب بن عباد وجاءت الناس وخرجوا ، وهو مقيم . فقال له الصاحب : من أين أنت ؟! فقال الفتى : من قُم . فرد الصاحب : فإذاً قُم !! .

ومن النكت ما يصنعها تأليف المتناقضين .. وتروى غالبا بعبارة : « مرة واحد... » أو « مرة واحد صاحبنا ..» أو « واحد صعيدى ..» وهكذا .. وكان

عبدالله النديم قد عمل فترة تاجر خردوات فلم يشغله العمل (العابر) عن العمل (الأصلى) كمنكتاتى !! فأخذ ينكت على زبائنه . قال : واحد فلاح إمبارح طلب منى عمه صيفى .. واحد خواجه أسلم ولف شال على البرنيطه .. واحد زبون عاوز يشترى فانلة بياقة !!!

وهذا النمط من النكته ـ إضافة إلى بنائه على التناقض ـ يجرى فى لغة سهلة ، لكنها ليست مبتذلة بل هى عامية أقرب ما تكون إلى العربية الفصحى ، لأن تداولها لا يقتصر على الطبقات الدنيا ثقافيا ، بل هى تجرى على كل لسان، وتمر بسائر الآذان ..فالنكته الأولى يمكن تقديمها بالفصحى هكذا : «طلب منى (واحدٌ) فلاح البارحة عصامة صيفية » وهكذا لم نزد ولم نحذف لفظا لتحويلها إلى الفصحى ، وإنما غيرنا بعض مواقع الكلمات . ولفظة (واحد) هذه بدّل للفلاح يمكن تثبيتها ويمكن حذفها . والنكته الثانية تقال بالفصحى هكذا : « واحد ـ خواجه ـ أسلم ولف شالاً على البرنيطة» بغير أى تقديم ولا تأخير ، لكن بتنوين لفظة (شال) فقط .. ثم هناك النكته الثالثة التى قد توحى ببعض الغرابة عن الفصحى لوجود كلمات : عاوز ، ياقة ، فانلة ... أما الياقة فهى عربية .. وأما « فانلة» فهى لفظة مجلوبة شاعت كلفظة « أرشيف» و «تكنولوجيا» .. وأما لفظة «عاوز » التى تتكرر فى اللهجة العامية كثيرا فهى من (العوَز) .. والفعل : عاز يعوز وأعوزه .. بمعنى الحاجة ومشتقاتها . فهى فى مثل هذه العبارات احتلت مكان غيرها من الألفاظ مثل عبارة « يرغب فى» أو «يحتاج إلى » . ولفظة « زبون» عربية . نقول : زبون وزبائن ، وزبانية جهنم ـ والعياذ بالله !!

فهذه النكات لأن منشأها عربى سارت فى المجرى العربى مع الخفة ليسهل نقلها وحفظها .. ويمكن أن نجد لها أشباهاً فى اللغات الأوربية الحديثة . فإحدى النكات الإيطالية تقول :

« ـ عفوا ، ما اسم سيادتك ؟

ـ بيانكو...

ـ هناك جبل أيضا بنفس هذا الاسم ..

ـ نعم .. ولكنى لست أنا . !! (٤١)

فهى هنا تسير على هَدْى النكتة اللغوية العربية .

وربما اعتمدت النكتة فى الإضحاك على الإجابة غير المتوقعة والتبرير غير المنطقى ، ولكى تصل إلى هذه النتيجة فلابد أن تصاغ من حدث بسيط عابر .. يقال إن مأمون الشناوى كان يركب سيارة مع صديقه فقال لصاحب السيارة :

ـ ما تحاسب شويه . فرد الصديق :

ـ أصل الشارع كله مطبات . فقال مأمون :

ـ مش معقول المطبات دى كلها فى الشارع ، دا لازم مطب لزق فى العجلة .!!

وسيارة أخرى قديمة كان يركبها إمام العبد مع صديقه ، ثم انقطع عن ركوبها فترة من الزمان ، ولما سألوه عن السبب قال : يا عم أنا ركبتها أسبوع نعل جزمتى داب . !!

ووقف العبد هذا مع صديق له يتفرج على مشاجرة لفظية ساخنة بين اثنين لا يكفان عن الشتائم ، وكلما اقتربا من بعضهما وهَمَّا بالتشابك بالأيدى ، تراجعا ، وتشاتما ، ثم يعيدان الاقتراب والتراجع . ومرت نصف ساعة ولم تمتد يد أحدهما إلى الآخر ، والعبد متشوق لمباراة مصارعة فخاب ظنه ، فقال لصاحبه : ياعم يا للابنا ، دى إشارة بس لكن الخناقة الأسبوع القادم . !!

★ ★ ★

وفن النكتة هذا أكثر الفنون رواجاً ، لكن هناك نوعاً آخر شبيهها به فى بساطته وسرعة وقعه ، لكنه انقرض تقريبا هذا الزمان ، ذلك هو ما يسمى (بالقافية) التى كان ملعبها الرئيس هو المصاطب وجلسات « الجوزة» وهى أيام انقطعت عنا وانقطعنا عنها . وهى تميل إلى ذوق غير المثقفين أكثر من اقترابها من الذوق المثقف . ومن أمثلة هذه القافية :

- لما تخش بيتكو ...

- إشمعنى ؟!

- يبقى فيه تيس . !!

فهى تقتضى وجود اثنين : متحدث أساس ، وآخر يقول لفظة : إشمعنى ، كأنه (سنيد) أو كومبارس فى المسرح !! وقد يتبادلان الأدوار ، وهو غالبا ما يحدث . أما إذا لم تنطق لفظة (اشمعنى) هذه فسوف تختنق القافية ، ولن تكتمل .. فما هى - إذن- حكاية « إشمعنى » هذه من المنظور اللغوى ؟! .. هى عبارة ليست كلمة ، وهى كاملة (أي شئ يعنى ؟!) فتحولت إلى (أيش يعنى) فحذفت الهمزة من (شئ) ثم تطورت إلى (أيش معنى) وأضغمت اللفظتان مع نقل الهمزة المفتوحة إلى مكسورة لتتناسب مع الياء فى (أيش) .. إنه مجرد (نحت لغوى) على الرغم من ظن كثيرين أنها بغير معنى وغير فصاحة .

★ ★ ★

وفى النصف الأول من هذا القرن ازدهر فن (الحلمنتيشى) .. ذلك النوع من الكلام الموزون المقفى ، الذى (ينتش) المعنى الأصلى من قصائد عربية مشهورة، ثم يحرفه ليسقطه على الواقع الراهن : ساخرا من عظمة الشعر القديم - تلميحا - ومن حقارة الزمن الراهن تصريحا .. واللغة فيه مزج من الفصحى والعامية ، فتبدو (مرقّعة) كثياب المهرجين ، فتثير الضحك ، وربما الحزن معه .

وربما بدأت ملامح (الحلمنتيشى) تتجمع منذ تدهور الشعر العربى بعد الدولة الفاطمية ، وتدنى اللغة لتدنى مستويات التعليم ، والكاتبين بها فسار هذا التدنى فى اتجاهين : الزجل ، الذى هو شعر ضل الطريق فكتب بالعاميات العربية بدل الفصحى . والاتجاه الثانى هذا الحلمنتيشى .. فليس غريباً أن نرى الغالبية الغالبة ممن يمارسون الحلمنتيشى من الزجالين ، مثل : حسين شفيق المصرى ، طه محمد حراز ، عبدالله أحمد عبدالله .

وقد صاغ حسين شفيق المصرى سبع (مشعلقات) حلمنتيشية فى معارضة المعلقات السبع .: وشاعت المشعلقات شيوع المعلقات حينذاك . لكن مشعلقاته لم تكتب بماء الذهب وتعلق على أستار الكعبة ، بل كانت « تُنقَشَ » بماء الفسيخ ، وتعلق على دورات المياه . !!

قال معارضا طرفة بن العبد فى معلقته التى مطلعها :

لخولة أطلال ببرقة ثهمدِ تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليدِ

قال المصرى :

لزينب دكان بحارة مُنجد
تلوح بها أقفاص عيش مقددِ
وقوفاً بها صحبى علىَّ هزارها
يقولون : لا تقطع هزارك واقعد
أنا الرجل الساهى الذى تعرفونه
حويط ، كجن العطفة المتلبِّد
فمالى أرانى وابن عمى مصطفى
متى أدنُ منها ينأ عنها ويبعد
يقول وقد ألقى الرغيف وسابنى :
ألست ترى زوجها عويس بن أحمدِ

فلما تناغشـنا الغـداة وهـزرت
معانا ، وأعطتـنا بـارولاً بمـوعـد
رأت زوجـهـا يـدنو فـفـعلت «برازها»
بشـال طويـل كالمـلاية أسـود
وقالت : ياالهوى جتكم نيلة امشوا من هنا
أفندية إيه دول ؟ جوزى شايف دا شئ ردى
فأقبـل زوج البـنت يلعـن أمـهـا
ويسعى إلـينا بالمـداس المهـريد
فلا خير فى خبـص ترى الضرب بعـده
ولا هاجـم يـأتيـك بعـد الترصـد
ستبدى لك الأيام مـا كنـت جـاهلاً
ويأتيك « بالمـركوب» مـن لم تهـدد

وغير المعارضات هذه يقدم الحلمنتيشى معالجات لمشكلاتنا الفردية أو الجماعية الحديثة .. قال طه محمد حراز فى مجلة البعكوكة القديمة :

إليكـم ما جـرى فالصمـت عيـب
وأنتـم أصـدقـاء مـش أعـادى
يميل القلـب للمحشـى فقـلنـا
نجيـب كرمبـة تـرضـى فـؤادى
ثـلاث بـرايـز ثمـن الكـرمبـا
كأنـا قـد دخلـنـا فى مـزاد
وليـس بهـا مـن الأوراق إلا
وريقات وقـد ذبلـت قـصـادى
دعـوا ورق الكرنـب عـلى هـواه
خـلوا منـا طريقـتنـا السـنه دى
ففى ورق الجرايـد خيـر محشـى
عليه وحـده كـل اعتمـادى (٤٢)

وفى شوق وهيام بالطلعة البهية ، للحوم الحيوانية ، زار حراز الجزار – فى نزهة – فقال :

ذهبت إلى الجـزار يوماً لفـرجـة
على ما يسمى من البهـائم ضـانى
فكبرت للجـزار حـين رأيتـه
وكبـر بالسـاطور حـين رآنى
وقلت له : ما اسم البـتاعة هـذه
أتـلك التى تـدعى لحـوم صوانى ؟!
فزغزغ بالسكين جنبى وقـال لى
سـتدفع أجـراً إن وقفـت كـمـانى
فأطلقت ساقى للريـاح لأننى
وجدت ضمان العمر فى الزوغان !!(٤٣)

وربما يتساءل الباحث فى هذا المجال : أين ذهب هذا النوع من الكتابة التى تخفف عنا حين نقرأها الآن فى أزمتنا العميقة العريقة المستعصية التى تنجب كل يوم طابوراً من الأزمات ؟! نقول – حسب تصورنا – إن الإعلام الحديث غير كثيرا من الثوابت وقلب كثيرا من الأصول .. فالإعلام الحديث – وخاصة الإذاعة المسموعة والمرئية – اتخذ من الصياغة الدرامية إناءً تصب فيه المضحك والمحزن من الفنون ، فتراجع من هذه الفنون ما يخلو أولا يقوم على الحدث المتشابك المتطور – أي البناء الدرامى – ومن هذا الذى تراجع فن الشعر، لأنه لايُغَنَّى كثيراً ، لعجز الأصوات الحالية عن أدائه ، وعجز الملحنين وأشباه الملحنين عن التعامل معه ، وتراجع الزجل والحلمنتيشى وكثير من الأشكال التقليدية للضحك .. لكن النكته بالذات تساير وسائل التوصيل الحديثة من خلال أشرطة الكاسيت التى ينشرها فيها أمثال فكرى الجيزاوى وخلفائه .. كما تقدمت فنون

ضحك راقية أخرى كفن الكاريكاتير الذى يجمع بين النكتة والرسم ويفهمه كل طبقات المجتمع .

ويسير مع هذا السبب لتراجع الزجل والحلمنتيشى ما تشبع به الناس ـ بعد ثورتنا الأم فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ـ من رؤية قومية واسعة طموح لتتجاوز المفاهيم الإقليمية الشعوبية الضيقة ، وتسعى إلى غرس مفاهيم الإحساس الواحد والمصير الواحد والواقع الواحد .. وما يكتب باللهجات العامية والروح المغرقة فى المحلية المصرية قد لا يتفق مع الروح العربى العام ولا يسايره ، ولا يصلح لتناول القضايا الكبرى التى تحتاج إلى جدية وعمق ، إضافة إلى ما فى هذا الحلمنتيشى من تعريض بجزء من تراثنا الحضارى ـ الشعر ـ وتشويهه بحيث يمكن أن يؤثر فى الناس بعامة والنشء وغير المثقفين بخاصة .

أما ما ينتظر من مستقبل لفنون الضحك فهو استمرار تقدم (التمثيليات) الدرامية والمسرح اللاهى واالكاريكاتير .. وليست النكتة بمتأثرة سلبيا بهذا الحال .

ولا تعنى هذه الرؤية أن الحلمنتيشى قد انقرض تماماً .. لأن بعض الفنون قد تزدهر فى زمن وقد تخفت فى آخر ، لكن لا تنقطع للأبد ما دامت جديرة بحمل مصطلح (فنون) . فالمقامة ـ مثلا ـ كفن عربى خالص ـ لم تنته تماما بعد الهمذانى والحريرى ، بل قدم فيها المويلحى ـ حديثا ـ إضافة جديدة ... والملاحم الشعرية ـ التى يمتد تاريخها إلى آلاف السنين ـ مازالت فى فتوتها ونشاطها فى سائر اللغات .

وحديثا من هذا الكلام الحلمنتيشى قال د. مصطفى رجب :

رحتُ فى الصبح إلى الشغل بنفسٍ مش تمامْ
فإذا اليوم اجتماع بالمديرين العظام
كلهم بالعطر مغسول و «لبلب» فى الكلام
فإذا خلص شخص ، غيره فى التو قام

وأنا أنظر حولى ، فى وجــوم ... وانسجـــــام
فإذا أكبرهم سنـــاً على الكرسـى نــــام!!
غمــزوه ، فصحا يصرخ : إخوانــى الكــرام
« نحن نبنى مصر فامضوا فى بناهــا باهتمــام »
قال باقينا : سمعنـــا .. وأطعنـــا .. يا ســـلام
كل شئ مستـقـر ، وتمـــام فى تمـــام !!

★ ★ ★

ومع الفنون الصحفية والإذاعية سماعاً ورؤية تتضح معالم فن ضاحك قديم جديد ، هو ما يمكن أن نسميه (القصة الضاحكة) .. ومصطلح (القصة) هذا نقوله مجازا ، فليس شرطا أن يقوم على بناء القصة بالمعنى النقدى الحديث .. لكن فيه حدثاً وأشخاصاً ، وربما الزمان ، ويصيب فى هذا ما يصيب من الضحك. وقد تجيئ القصة كلها نثراً ، أو يغلب عليها الشعر أو تجمع بين هذا وذاك .

تتدرج مثل هذه القصص — من ناحية الحجم والبناء — من حكاية بسيطة تنتهى بضحكة إلى شئ أقرب مايكون للقصة القصيرة بمفاهيم هذا الزمن : سئل أحد الظرفاء : إلى أين ؟ قال : إلى السوق لأشترى حماراً . فقيل له : قل إن شاء الله . قال : وما وجه الإستثناء ؟! الدراهم فى جيبى والحمير فى السوق !! فلما ذهب سُرقت منه الدراهم ، فعاد حزينا ، فقيل له : ماذا فعلت ؟ قال : سُرقت الدراهم إن شاء الله .!!

ثم تميل الحكاية إلى بعض التركيب ، فنرى نمطاً منها فى كتاب (الشاعر عبدالحميد الديب .. حياته وفنه) حيث كان الديب بصحبة صديقه الدكتور عبدالرحمن عثمان فى زيارة إلى منزل المرحوم طاهر حزين الذي كان يعجبه

شعره ، فراعه أن يراه فى ملابس رثة ، وحذاء متهرئ بالٍ ، فخلع عليه بذلة جديدة وحذاءً جديداً لامعاً ، وصباح اليوم التالى قدم الشاعر بهذه الهيئة الجديدة الفخمة متباهياً فى مشيته ، أنفاً فى تعامله مع أصدقائه ، واضعاً رجلا فوق رجل ، حتى يكاد حذاؤه يلامس وجوههم ، كأنه ينتقم من حالته السابقة بإخفاء حذائه الممزق تحت الكرسى .. ثم انفجر ضاحكاً لهذه الحالة التمثيلية التى رسمها . وأنشأ يقول :

نَعْلٌ تعالى عن الإكبار والعِظَمِ
تَوِّجْ به الرأسَ لاتلبسْه فى القدمِ

لو كان فى رجل (موسى) يوم موعده
لكان أقدسَ من وادٍ ومن عَلَمِ

فى هذا المستوى من بساطة تركيب الحكاية — أو القصة — يقال إن أينشتين كان لا يستغنى أبداً عن نظارته .. وذهب ذات مرة إلى أحد المطاعم ، واكتشف هناك أن نظارته ليست معه ، فلما أتاه الجرسون بقائمة الطعام ليقرأها ويختار منها ما يريد ، طلب منه اينشتين أن يقرأها له فاعتذر الجرسون قائلا : إنى اسف ياسيدي ، فأنا أميّ جاهل مثلك . !!

والنسيان عند أينشتين لم يكن يقتصر على نظارته الطبية التى تقوده فقط ، بل قد ينسى طعامه نفسه .. وقد دعا صديقاً له ليتناول الغذاء معه ، وبعد إعداده الطعام وضعه على المائدة ، ثم دخل إلى معمله حتى يحين موعد حضور صديقه الذى كان يحمل مفتاحاً لبيت اينشتين ، فحضر ، وانتظر طويلا خروج العالم من المعمل فلم يخرج ،ولم يرد الصديق أن يقطع عليه أبحاثه فأكل وشرب وانصرف.. وعندما خرج اينشتين من معمله ، ناسياً أنه قد دعا صديقه للغداء معه ، وجد بعض الأطباق فارغة ، فصاح قائلا : يا إلهى . لقد تناولت غدائى ، وأعود الآن لتناوله مرة أخرى . !!

ماذا نرى من مثل هذه القصص الضاحكة لو عدنا للخلف عدة قرون لننظر فى تراثنا العربى ؟! . يُحكى أن بشاراً قدم إلى بعض أصدقائه يوماً مغتمًا ، فقالوا له : مالك مغتمٌ ؟! فقال : مات حمارى فرأيته فى النوم ، فقلت له : لمَ متّ ؟! ألم أكن أحسن إليك ؟! قال :

سيدى خُذْ بى أتانـــا	عند باب الأصفهانـــى
تيّمتنى ببنــــــــان	وبدَلٍّ قد شجانـــــى
تيّمتنى يوم رحنـــــا	بثناياها الحســـــــان
وبغنــــــج ودلال	سَلَّ جسمى وبرانـــى
ولها خدٌّ أسيــــــلٌ	مثل خدّ الشيفـــــرانِ
فلذا مت ولوعشـــت	إذاً طال هوانـــــــى

فقيل له : وما الشيفران؟! قال : ما يدرينى !! هذا غريب الحمار ، فإذا لقيته فاسأله !!

فهذا حب حميرى رومانسى لايقل عن حب قيس بن الملوح الذى جُنّ بليلى راعية الغنم التى كانت تجرى بين الصخور حافية ، وشقوق رجليها تختفى فيها الثعابين !! لكن – رغم ذلك – حب الحمار كان أصدق من حب قيس لأن الحمار مات – رحمه الله !! – فكان شهيد الحب ،ولم يكن مجنون الحب فقط . !!

وهى حكاية من أبسط ما يصوغه الخيال العادى .. فبشار بن برد تخيَّلَ لو أن حماراً أحب أتانا ومات بها عشقا.. ثم نسج هذه الأبيات ، وقدمها فى « لفافة » مشوقة .

ثم تميل القصة التراثية الضاحكة إلى شئ من التركيب من خلال هذه الأحداث : كان القاضى أبو القاسم التنوخى « نائما فى أحد الأيام فاجتاز واحدٌ غثٌ وأزعجه مما يصيح : شراك النعال ، شراك النعال . فقال لغلامه : اجمع كل

نعل فى البيت وأعطها لهذا يصلحها ويشتغل بها حتى لا نسمع مرة ثانية صوته المزعج ، ثم نام . وأصلحها الإسكافى واشتغل بها إلى آخر النهار ومضى لشأنه فلما كان فى اليوم الثانى فعل كما فعل فى المرة الأولى فلم يدعه ينام . فقال للغلام : أدخله ، فأدخله . فقال له : ياماصّ بظر أمه (٤٤) .. أمس أصلحت كل نعل عندنا ، واليوم تصيح على بابنا ، هل بلغك أننا نتصافح بالنعال ونقطعها؟! قفاه ، قفاه . فقال : ياسيدى أتوب ولا أعود أدخل إلى هذا الدرب أبداً»(٤٥)

ثم تبرز اللحظة القصيرة كعنصر من عناصر القصة الحديثة فى حكاية الحطيئة حينما حضرته الوفاة ،واجتمع إليه قومه ، فقالوا : يأبا مليكة ، أوْصِ . فقال : ويل للشعر من راوية السوء . قالوا: أوصِ رحمك الله يا حطيئة ، ألكَ حاجة ؟! قال : لا والله ولكن أجزع على المديح الجيد يمدح به من ليس أهلاً له . قالوا : فمن أشعر الناس ؟ فأومأ بيده إلى فمه وقال : هذا الحُجَيَرْ إذا طمع فى خير ، واستعبر باكيا . فقالوا له : قل لا إله إلا الله وقالوا له : ماتقول فى عبيدك وإمائك ؟ فقال : هم عبيدٌ قنٌ ما عاقب الليل والنهارُ . قالوا : أوصِ للفقراء بشئ . قال : أوصيهم بالإلحاح فى المسألة . فإنها تجارة لاتبور واستَ المسئول أضيق . قالوا : فما تقول فى مالك ؟قال للأنثى من ولدى مثل حظ الذكر . قالوا : ليس هكذا قضى الله – عزّ وجلّ – لهن . قال : لكنى هكذا قضيت . قالوا : فما توصى لليتامى ؟ قال : كلوا أموالهم ونيكوا أمهاتهم . قالوا : فهل شئ تعهد فيه غير هذا ؟ قال : نعم . تحملونى على أتان (٤٦) وتتركوننى راكبها حتى أموت فإن الكريم لا يموت على فراشه ، والأتان مركب لم يمت عليه كريم قط. فحملوه على أتان وجعلوا يذهبون به ويجيئون عليها حتى مات وهو يقول :

لا أحـدٌ ألأم مـن حُطَيّـهْ   هجـا بنيـه وهجـا المُرَيّـهْ
مـن لؤمـه مـات علـى فُرَيّـهْ(٤٧)

هنا اللحظة المكثفة الحرجة : لحظة خروج الروح .. ومع ذلك نرى أبعاد شخصية البطل واضحة تلخص حياته كلها بما فيها من طمع وبخل وبذاءة لسان. ونرى فيها جانبا مضيئاً أيضا حينما ساوى فى الميراث بين الفتاة والصبى فأقر مبدأ سبق به زمانه بأكثر من ألف عام . ونرى فى هذه القصة (بطولة حيوانية) أيضا هى الأتان التى تُختم بها القصة ، فتكون آخر ما يشاهد المتلقى لهذا الحدث .

فى « قصة » أخرى نرى الصراع أكثر وضوحاً ، وفيه ريح المفاجأة .. فقد غذا أشعب جديا بلبن زوجته وغيرها من النساء حتى بلغ الغاية .. ثم جاء به إلى اسماعيل بن جعفر بن محمد فقال : بالله إنه لابنى ، قد رضع بلبن زوجتى وقد حبوتك به ، فلم أرَ أحداً يستأهله سواك . فأمر به إسماعيل فذبح وتناوله الضيوف . وقال اسماعيل لأشعب : ما عندى اليوم شئ ، لكن ذلك غير فائت لك . فلما يئس منه أشعب قام من عنده فدخل على أبيه جعفر بن محمد مندفعا يشهق حتى التقت أضلاعه ، ثم قال : أخلنى – أى أريد أن أختلى بك– قال : ما معنا أحد يسمع ولا عين عليك . قال : وثب ابنك إسماعيل على ابنى فذبحه وأنا أنظر إليه . فارتاع جعفر وصاح : ويلك ! ولماذا؟ وتريد ماذا؟ قال: أما ما أريد فوالله مالى فى إسماعيل حيلة ، ولا يسمع هذا سامع أبداً بعدك . فجزاه جعفر خيراً ، وأخرج إليه مائتى دينار ، وقال له : خذ هذه ولك عندنا ما تحب.!!

لقد أحال أشعب لبن زوجته إلى تجارة رابحة ، تدر منها الرضعة دينارا كاملاً ، رغم أنه وزوجته لو كانا قد بيعا ما وصل ثمنهما مائة دينار !!

ثم تميل الحكاية – أو القصة – العربية التراثية الضاحكة إلى شئ من التعقيد أو العقدة حين نقف معها ها هنا : كان أبو سعيد ماهك بن بندار المجوسى الرازى من كبار كتاب الديلم ، وكان يكتب لعلى بن سامان أحد قواد الديلم ، فأراد الوزير أبو محمد المهلبى أن يُنفذ ماهك فى بعض الخدم ، فقال له وقد أراد

الخروج من عنده : يا أبا سعيد لاتبرح من الدار حتى أوقفك على شيء أريده معك ، فقال : السمع والطاعة لأمر سيدنا الوزير . ونهض من بين يديه . فقال الوزير : هذا رجل مجنون ، وربما طال بي الشغل وضاق صدره وانصرف ، فتقدموا . إلى البواب أن لا يدعه يخرج من الباب ، فجلس ماهك طويلا ، وأراد دخول بيت الخلاء ، فقام يطلب ذلك فرأى الأخلية مقفلة ، وكان قد تقدم الوزير بذلك ، وقال : كانت دار أبي جعفر الصيمرى منتنة الرائحة لأجل خلاء كان بها لعامة الناس .فوجد ماهك الخلاء الخاص غير مقفل ، وعليه ستر مسبل، فرفع الستر ليدخل ، فجاء الفراش فمنعه ودفعه ، فقال : ياهذا أليس هذا بيت خلاء ؟ قال :بلى . فقال : أريد أن أعمل فيه حاجتي فَلِمَ تمنعني ؟! قال: هذا خلاء خاص لايدخله غير الوزير . قال : فبقية الأخلية مقفلة ، فكيف أعمل وقد جئت أخرج فمنعني البواب . أفأخرى في ثيابي ؟!! فقال الفراش : استأذن في دخول بيت الخلاء ليتقدم لك بذلك ويفتح لك أحد الأخلية فتقضي حاجتك . فاشتد به الأمر ، فكتب إلى الوزير رقعة قال فيها : قد احتاج عبد سيدنا الوزير ماهك إلى بعض ما يحتاج إليه الناس ولا يحسن ذكره ،والفراش يقول لاتدخل ، والبواب يقول لاتخرج ، وقد تحير العبد في البين والأمر في الشدة ، فإن رأى سيدنا الوزير أن يفسح لعبده بأن يعمل ما يحتاج إليه في بيت الخلاء فَعَل إن شاء الله تعالى ، والسلام .. ودفع الرقعة إلى بعض الحجاب ، فأوصلها إلى الوزير ، فلم يعلم ما أراد بالرقعة ، فاستعلم ما الصورة فعرف بها ، فضحك واستلقى علي ظهره ،ووقّع على ظهر الرقعة : يَخْرى أبو سعيد أعزه الله بحيث يختار ، إن شاء الله تعالى . فجاءه الحاجب بها ، فأخذها ودفعها إلى الفراش وقال : هذا ما طلبت ، وهو توقيع سيدنا الوزير ، فقال الفراش : التوقيعات يقرأها أبو العلاء بن أبرونا كاتب ديوان الدار ،وأنا لا أحسن أن أكتب ولا أقرأ ، فصاح ماهك في الدار : هات من يقرأ في الدار صك الخرا!! فضحك فراش آخر وأخذ بيده ، وحمله إلى بعض الحجر حتى قضى حاجته . !!

وإذا كان من حق قارئ هذه الحكاية أن يضحك ، فمن حقى أن أجزم بأن بها ملخص سقوط دولة العرب الكبرى فى العصر الوسيط .!! حين وصل بها الحال بأن يطلب المواطن حقاً من حقوق الطبيعة فلا يستطيعه إلا بإذن الوزير !! وحين يأذن له الوزير يمنعه جهل موظفى الوزير .. فماذا لو كان الأمر قتالاً على ثغور أو دفاعاً عن محارم ؟! وماذا لو أراد هذاالإنسان - المواطن - أن « يستحم» ؟! لاشك فى أنه كان سيحتاج إلى صك من الخليفة نفسه !! إنه (الروتين) الذى ورثناه من دولة كانت تقود العالم ، قبل أن يتسلل إليها السوس وينخر فى عقلها وعظامها.

وعلى الرغم من أن الحدث فى الحكاية يبنى على مسألة تافهة جداً فإنه لا يمكن تجاهل ما فيه من «عقدة» بدأت تُرسَم خطوطها حتى وصلت إلى الذروة، ثم أتى الحل بعد حين ، وهنا اللحظة ضيقة متوترة أيضا ..

هذا هو تراث نوع من المضحكات (القصة الضاحكة) .. فماذا عن حديثه لدينا كعرب ؟.. إن النية - فى القديم - لم تكن مبيتة لصياغة هذا النوع من الإضحاك بطريقة بذاتها .. أما فى زماننا الحديث فقد أضحت هذه النية قائمة ، وسجل بعض الكتاب من أجيال عديدة قصصاً ضاحكة - ومرة أخرى نطلق مصطلح القصة مع بعض المرونة - من هؤلاء : محمد عفيفى ، محمود السعدنى . إميل حبيبى، فتحى سلامة، محمد مستجاب، وأصغر هذه السلسلة : مجدى صابر ويوسف معاطى.. قدموا لنا - غالبا - قصصاً سريعة ، وأحيانا روايات طويلة كرواية (المتشائل) لإميل حبيبى و(عريس فتكات) لمجدى صابر .. وللرواية هذه مكان بين الدراسات النقدية أفسح من مكانها هنا .

فماذا عن الحكاية أو القصة القصيرة الضاحكة ؟. كتب محمود السعدنى يقول : « مازلت أذكر كل شئ كأنما حدث بالأمس ! كُتّاب الشيخ محمد وتلاميذه الفقراء .. أتعس تلاميذ على وجه الأرض ، جلابيب وشباشب وجزم

برقبة وألواح اردواز ، وأصابع طباشير ، وفى جيوب بعضهم ملاليم . والشيخ محمد قصير كأنه تلميذ نسيه أهله فشاب شعر رأسه ، مقوس تماما كأنه حدوة حصان انبرت من كثرة الاستعمال ، ليس له بيت فهو ينام فى المدرسة ويسهر الليل بطوله فى قهوة السروجي يلعب الكوتشينة وهو دائما يخسر ، وهو دائما يغادر القهوة آخر الليل يترنح ويلعن سنسفيل جدود الذين غلبوه .. ولكنه – رغم ذلك – كان شديد الحرص على شيئين اثنين فى الحياة ولا شئ أكثر : طابور الصباح فى المدرسة وسط التلاميذ المهربدين المعمصين المرتعشين من البرد والجوع ، يصرخ معهم بصوته المسلوخ : مصر العزيزة لى وطن .. وهى الحمى وهى السكن . ثم وقوفه عند الباب أول كل شهر يجمع مصاريف الدراسة وفى يده « خرزانة» لهلوبة ، المصاريف خمسة قروش صاغ ، وياويل الذى يحضر أول الشهر وليس معه شئ . اللهلوبة إذن هى أسلوب التفاهم الوحيد ! وكنت – والحق يقال – أنيقا وسط المجموعة ، جلبابى مخطط ، وحذائي برقبة ، ومعى لوح اردواز ، وفى جيبى مليم وأحيانا مليمان ! وكما كان الشيخ مواظبا على الوقوف بالباب أول كل شهر ، كنت أنا الآخر مواظبا على دفع الخمسة قروش. ولم يكن ثمة تعليم ولائمة دراسة : مصر العزيزة لى وطن .. وهى الحمى وهى السكن ، وخطبة منبرية عن محمد على باشا الكبير ، وكان الله بالسر « عليم» . وكان يمكن أن تمضى الحياة فى كتاب الشيخ محمد هائئة ولذيذة كما هى دائما ، لولا صدقي باشا ، ورغم أنى طفل فى السادسة ، وفى كتاب الشيخ محمد ، إلا أن السياسة – قاتلها الله – تتدخل أحيانا لتفسد حياة الصغار : صدقى باشا طردوه من الوزارة فى عام ١٩٣٣ ، وهبت مصر كلها تهتف بسقوطه ، وتهتف لسقوطه . ومرت مظاهرة من أمام مدرسة الشيخ محمد ، وخرج جميع التلاميذ يتفرجون على المظاهرة ، وبقيت وحدى أرسم على لوح الاردواز جملا بثلاث « رجول » وفجأة شعرت بمغص شديد فى بطنى ، فجلست وسط الحجرة وقضيت حاجتى فى هدوء شديد وفى بهجة أشد ! ثم

نهضت مرتاحاً وعدت إلى لوح الاردواز أرسم جملا بثلاث « رجول » . وبعد قليل عاد التلاميذ وعاد الشيخ محمد ، وبدأ كل شيء يأخذ مجراه ، ولكن الشيخ محمد توقف فجأة . وأمسك أنفه وصاح صيحة مروعة وكأنه طارق بن زياد :

– فيه كلب ميت فى الفصل .

وركع الشيخ محمد على الأرض ، وراح يتشمم هنا وهناك ، ولأنه ضعيف البصر فقد راح يتحسس الأرض بأصابعه ، وفجأة غاصت يده فى شيء طرى ، فلما رفع يده إلى وجهه صاح مرة أخرى ويده مرفوعة إلى أعلى متعاصة ومعكوكة :

– مين اللى عمل دى ياولاد الكلب .

وخيم صمت رهيب على الفصل فلم يتكلم أحد وأعاد الشيخ محمد صيحته وكررها أكثر من مرة ثم وقف فى هدوء شديد ، ومسح يده فى جبته ، وقال فى منتهى الوقار :

– الصدق منجى .. اللى عمل دى يقول وأنا مسامحه .

وصدقت الشيخ فرفعت إصبعى فخوراً كأنى « غزيت عكة» ..وقبل أن يصل إصبعى إلى رأسى كانت عصا الشيخ محمد تسلخ جلد وشى بالعرض والطول . ولم أحتمل كل ذلك فخرجت من كتاب الشيخ محمد أجرى إلى بيتى . وأقسمت وأنا أجرى وألهث ألا أقول الصدق !! (٤٨)

ونأمل ألا يكون الأستاذ السعدنى قد برّ بقسمه هذا .!!

وقد يقول قائل : هذه قصة قصيرة شحماً ولحماً ، لكنّا نراها مقطعاً من (سيرة ذاتية) .. فهى – رغم مافيها من لحظة سريعة ، وشخوص ، ومرتكز للأحداث .. فهى مسترخية العبارات ، متعددة الجزئيات التى يمكن الاستغناء عنها – لو كانت قصة – فبينها وبين القصة القصيرة خطوة سواء أطالت أم قصرت .

وعلى هذا المستوى من العلاقة القريبة بين هذا النوع من القصص الضاحكة والقصة القصيرة بمعناها الفنى الكامل تقف (حكايات مجنونة) التى قدمها مجدى صابر فى كتاب كامل تحت هذا العنوان . يصور فيها المبالغة التى قد تصل الى حد التهويل (٤٩) ..وإذا كان عنصر الإضحاك فيما عرضناه من «إبداع» السعدنى فى هذا المجال يغلب على ماسواه من الأحاسيس فإن الإضحاك لدى مجدى صابر يغلف بالأسى ، ويترك ندوباً فى المشاعر والأفكار ، ويجعلنا ننكشف أمام أنفسنا ونسخر منا . !!

تحت عنوان (اقطع شجرة) كتب : « كان البرنامج التليفزيونى عن « حب مصر » قد استضاف وزيراً له شدقان كبيران وتعلو وجهه حمرة صحة ، وكان صوته يتهدج انفعالاً عندما يجيء الحديث عن « مصر » .

وقال المسئول فى شبه بكاء وتوسل ، إنه إذا كان المشاهدون يحبون مصر مثلما يفعل هو ، فعلى كل واحد منهم أن يبدأ بنفسه فى زرع شجرة أمام منزله .

ولما كنت من النصف الذى يبكى تأثرا إذا ما كان الحديث عن حب مصر ، لذلك فكرت فى أن أقرن المشاعر بالعمل ..وأن يكون مبدئى منذ تلك اللحظة هو أن « أزرع شجرة » وأن أبدأ بنفسى ، ولذلك أسرعت إلى مشتل قريب واشتريت شتلة شجرة صغيرة . وفى نفس المساء كانت الشتلة واقفة فى ذلك الركن الذى خصصته لها أمام مدخل المنزل على الرصيف .

ولكنى فى الصباح التالى اكتشفت أن أحد الجيران قام بتحويل شجرتى إلى عصا مقشة ، فاشتريت غيرها وزرعتها فى نفس المكان ، غير أن جارة أخرى حولتها إلى « زعافة » للسقف ، وقد عبرت الجارتان عن عمق نظرتهما للاستفادة التى يمكن أن يحصل عليها الإنسان من الأشجار بوجه عام .!

ولذلك – وفى المرة الثالثة – أقمت سياجاً حديدياً أشبه بالقفص حول الشجرة ودعمته بالأسمنت ، وفكرت فى أن أزيل القفص الحديدى حالما يشتد عودها ،

ويستحيل على البعض استخدامها كعصا مقشة أو زعافة ، أو حتى حطب للنيران فى الشتاء .!!

وفوجئت فى اليوم التالى بالشجرة منزوعة من مكانها والقفص الحديدى محطما .وعمال البلدية وهم يشحنون الشجرة الصغيرة والقفص إلى سيارتهم الضخمة ، فلما سألتهم ذاهلاً عما يفعلون قال لى كبيرهم : إنت ازاى تزرع شجرة وتحط حواليها قفص من غير ترخيص ؟

– ترخيص ؟

– أمال انت فاكرها سايبه ، كل واحد يعمل فى الشارع اللى هو عاوزه .. هى إيه فوضى .. دى جنحه يا أستاذ وعقوبتها ممكن توصل للسجن .!

ولما جاءتنى الغرامة فى الأسبوع التالى مهددة بالدفع أوالحبس أصابنى غيظ شديد ، وفكرت أنه إذا كانت البلدية تمنع زراعة شجرة دون ترخيص ، فليس أقل من أن أحافظ على بقية الأشجار فى شارعنا ، باعتبارها تحمل ترخيصا قانونيا للبقاء فى مكانها بعد أن سألت وتأكدت أن البلدية هى التى قامت بزراعتها.! وهكذا صار من مهامى اليومية المرور على أشجار شارعنا صباحاً ومساءً للاطمئنان على سلامتها ، وأصبت بالفزع عندما شاهدت ذات ليلة عدداً من الأشجار فى الحى وقد تمدد فوق الأرض ، وهناك بعض عمال البلدية قد راحوا ينشرون جذوع بقيتها بمناشير ضخمة .

فلما اندفعت صارخاً إليهم أعترض على ما يفعلون أجابنى رئيس العمال قائلا : إحنا يا أستاذ بنفذ تعليمات !

– أنهى تعليمات ؟

– تعليمات المحافظة.. أصلهم حيسفلتوا الشارع ويعملوا رصيف من جديد علشان مقاول الرصف محتاج فلوس يجوز بنته . وصرخت فيهم : تقوموا تقطعوا كل الأشجار علشان تعملوا رصيف جديد وتجوزوا بنت المقاول ؟

ولكن رئيس العمال زمجر فيَّ مهدداً : اتفضل روح شوف شغلك خلينا نشوف شغلنا .. إحنا لوما قطعناش كل الشجر فى الشارع الليلة حيخصموا لنا حوافز الشهر ده كله ، يعنى حتبقى خسارة علينا كلنا !

وأثارتنى إجابة رئيس العمال ، وفارت الدماء التى تحب مصر فى عروقى ، فلما جززت على أسنانى غضباً ونطحت رئيس العمال فى غيظ أشد ، أصر ضابط الشرطة فى القسم على تحويلى للنيابة بتهمة الاعتداء على موظف حكومى أثناء تأدية وظيفته الرسمية.!

دفعت الكفالة فى النيابة وغادرتها ، وأصررت على الذهاب إلى ذلك الوزير الذى كان يدعو لزرع شجرة ، ورأيت فيه سندى الوحيد .

فلما استقصيت عن عنوانه وذهبت إليه ، فوجئت بشجرة ضخمة وارفة عريضة أمام باب فيلته الرسمية وعشرة من العمال يجتثونها من جذورها بمنشار كهربائى ، فاندفعت صارخاً فيهم كالمجنون : انتو بتعملو إيه عندكم ؟ فأجابنى أحدهم : زى ماانت شايف .. بنقطع الشجرة ، فصرخت فيهم : وبتقطعوها ليه؟

– دى أوامر سيادة الوزير .

فسألتهم ذاهلاً : والوزير عاوزكم تقطعوا الشجرة ليه ؟ فأجابنى رئيسهم : ما هو حضرتك عارف إن الشجرة بتلم العصافير .. والعصافير دى بتزقزق وتزعج النايمين .. وسيادة الوزير لازم ينام كويس علشان لما يصحى يعرف يصدر القرار المناسب فى الوقت المناسب !» (٥٠)

ويبدو أن الأستاذ مجدى صابر لم يسمع القول المأثور : الوزراء يقولون ما لايفعلون ، ألم ترَ أنهم فى كل رحلة يهيمون ويجنون من بدل السفر من الألف للمليون ؟!!

★ ★ ★

وقد برز فن من فنون الضحك يشبه القصص هذه فى القضايا والموضوعات الساخنة التى يتناولها ، لكن يختلف عنها جذريا فى (الحجم) : ذلك هو ما يكتبه أحمد رجب فى جريدة (الأخبار) وأصبح به معروفاً على مدى عدة سنوات تحت عنوان (نص كلمة) .. وهو يعتمد فى بنائه لهذا الفن على التبرير غير المتوقع ، وإقامة علاقات بين النتائج والمسببات غير منطقية ..ثم إنه لا يتجاوز فى مساحته خمسة أسطر غالبا . وهو من ناحية الحجم هذا يتداخل مع تعليقات الكاريكاتير التى تتسم بأنها معبأة بطعم لاذع يُضْحك ويترك مرارة فى الفم ، ويدفع للتفكير مع هذا جميعا . وليس لهذا الفن المَركّز سوابق مستقرة محددة الملامح تجعلنا يمكن أن نلحقه بها ، وإنما أقرب تسمية من المقنع إطلاقها عليه هى :

(الومضة الصحفية الضاحكة)

★ ★ ★

ولا يترك فن الزجل قضية طريفة باستطاعته معالجتها ، والمعوّل فى هذا على قدرة الزجال نفسه ـ أى موهبته ـ وانغماسه فى هموم الحياة وآمال الناس .. لأن الزجل يتخفف من كل مقتضيات اللغة العربية : من نحو وصرف ـ وضرورة امتلاك معجم لغوى واسع .. فهنا اللهجة العامية ـ التى يملكها الأمىّ كما يملكها المثقف ـ هى أداة التعبير .

وقد وقف بيرم التونسى ـ أمير الزجالين ـ فى وجه المدفع حين قال لفؤاد حاكم مصر حينذاك :

وجابوك الإنجليز يا فؤاد قعدوك
تمثل على العرش دور الملوك
وخلوك تبهدل فى أمة أبوك
ومين يلقوا مثلك مغفّل ودوْن ؟!

وهو لا تقع جزئيات الحياة اليومية عليه موقعا عابراً ، بل تتلقفها حواسه المبدعة ، وتصوغها فى أداء تحريضى حين يقول :

أربع عساكر جبابرة يفتحوا برلين
ساحبين بتاعه فجل جاية من شربين
أنا قلت إيه الحكاية قال خالفت الجوانين
طب اشمعنى ميت ألف واحد فى البلد سارحين
يشرّطوا فى الجيوب ويكسروا الدكاكين

ففى هاتين المقطوعتين تحدث عن جميع لصوص مصر : أكبرهم (فؤاد) وأصغرهم (النشالون) !! فهو كان شوكة لكل خائن لص للوطن ، ولذا فلم يكن يستقر فى موقع حتى « يجلوه» منه ، ليس فى مصر فقط بل فى تونس أيضا:

والمغربى المسلم راخر
أبو زر فاشوك
لما انتقدته فزع قاللى
يلعن بابوك
وأنا اللى قصدى أشوف قيده
يصبح مفكوك
لقيته فرحان بيه راضى
طيب مبروك !!

وهذا جميعا يدخل فى إطار (الزجل البشرى) لكن هناك (زجلا كلابيا)

كقول مصطفى حمام

يا مدلعـــين الكـــلاب والآدمـى منســـى
ضحكى على الكلب بكانـــى على نفسى
وفضلت أفكر فى سعد الكلب وف نحسـى
وأقول لروحى ياريت الدنيـــا تتشقلـــــب
وادخل فى جنس الكلاب والعن أبو جنسى

وهذا الكلام من قبيل (الحقد الإنسانى) على الكلاب أولاد الكلاب !! فإذا كنت يا « حمام» قد رأيت كلبا كابن الجاموسة جالساً فى سيارة فخمة على حجر امرأة ملونة الشعر والعينين ، وهو يتشمم صدرها ويلعق خدها ، وأنت تتخبط على قدميك فى الشوارع تحت لفح الشمس .. فماذا يفيدك أنت ، ولست غير « حمام» إذا علوت أو انحطيت؟!!

وإذا كانت هذه الطريقة الزجلية تدخل البيوت من أبوابها ، فإن هناك من يتسلل إليها من الخلف ، فى صيغة الرمز .. عن الحمار يقول فريد طه :

حـمـار بيشكى .. ضهـــرى انهرى م الشيـــل
وبـقـيـــت هـــزيل م التعب .. وانهد فىَّ الحيل
فـاض كاس مـرار الحمـار ـ. طفح عيـار الكيل
قال الحمار للحمار : يا حمـار دا شئ معـــروف
طـول عمـرنا للشـقا .. والبـرطعـة للخـيل !!

فمن هذا الحمار الذكى ، ومن ذاك الحصان المنعّم المبرطع ؟!! صاحب العقل يميز . !!

(٤١) ضحكات إيطالية : Leggiamo e Canversiamo ص ٢٠

(٤٢) عبدالله أحمد عبدالله : اضحك مع البعكوكة ـ ط مكتبة مصر ـ عام ١٩٩٣ ـ ص ١٢ ـ ١٣ .

(٤٣) اضحك مع البعكوكة ـ ص ١٣ـ ١٤

(٤٤) سباب كان قديما يتردد على ألسنة العرب .

(٤٥) طرائف من التراث العربى ـ ص ١٦٠ ـ ١٦١ .

(٤٦) الأتان : أنثى الحمار .

(٤٧) الفَرِيَّةُ : الأتان .

(٤٨) ملحق جريدة (الوطن) الكويتية ـ بتاريخ ١٩٩٣/١/٣١ .

(٤٩) انظر ما كتب تحت عنوان (من لم يمت بالسمنة مات بغيرها) من كتاب (حكايات مجنونة لمجدى صابر ـ ط دار الأمين عام ١٩٩٣

(٥٠) مجدى صابر : حكايات مجنونة ـ ص ٢٢٩ ـ ٢٣٢ .




معرض الكتاب
سيبك منه ... ده إيدك منه والأرض
البخلاء



بخلاء .. وطماعون

كان الناس قديماً يسمون الأشياء بأسمائها ، غير ما نفعل الآن .. فالمرأة الضخمة يسمونها (سمينة) ونسميها نحن الآن (ممتلئة) كأنها مثلا « زير» أو «بلاص» !! وكانوا يقولون عن المرأة (المسلوعة) « نحيفة» و « ناحلة» ويقولون عنها فى زماننا « سيمباتيك» أو « جسمها فرنساوى» !! والبخل فى أيامنا هذه يسمونه « ادخاراً» والكذب « دبلوماسية» . !!

ولهذا قلت السخرية من هذه الطبائع الإنسانية غير القويمة ، وندر تسجيلها فى كتب أو دراسات .. أما قديما فكان البخيل بخيلا بملء فيه ، والطماع طماعاً بغير مواربه .. سألوا أشعب مرة : أرأيت من هو أطمع منك ؟! فقال : نعم ، كلب سار ورائى أربعة أميال !!فلم ينف الرجل عن نفسه تهمة ، لأنه لم يكن يراها تهمة . ويقبل كل من يستخف به لهذا السبب ، لأن نباح الناس عليه لن يمنعه من التساقط على أية وليمة وملء معدته بأطايب الطعام ، وعلى الحاقدين السلام . !!

ويوما طلبت امرأة من أشعب خاتماً ، فسألها عن السبب .. فقالت له : لأذكرك به .. فقال أشعب : اذكرى أنك سألتنى إياه ومنعته عنك !! (٥١)
فأشعب يرى طمعه فيما بيد الآخرين وحصوله عليه ذكاءً منه وغباءً منهم ، وليس هو غبياً حتى تحصل منه امرأة على خاتم ولو كان حديدا .. ويبدو أن المرأة

لم تكن على مستوى الخاتم ، كانت دميمة ، فلم تحرك لديه غريزة أقوى من غريزة الطمع .. فالنساء بجمالهن يستطعن خلع ملوك من على عروشهم وإجلاس آخرين محلهم ، وليس مجرد خاتم .

وأشعب ـ أشهر مثل للطماع في التاريخ العربي ـ ممتلئ بهذا المرض في صحوه وفي نومه أيضا . يحكي هو عن نفسه يقول : « رأيت في النوم كأني أحمل بدرة (كيس يوضع فيه الدراهم) فمن ثقلها أحدثت ، فانتبهت فرأيت الحدث ، ولم أر البدرة . » !! (٥٢) .

ويتلبسه الطمع تماماً حتى يكذب ويصدق نفسه ، فيقول : « أضجرني الصبيان يوماً ، فأردت أن أصرفهم عني ، فقلت لهم : إن بموضع كذا في جنوب المدينة عرساً فامضوا إليه . فلما تهافتوا وتبعهم بعض الفضوليين قلت في نفسي : لعل ثمة عرساً حقيقة ، فرحت أعدو وراءهم .» !! (٥٣)

وهناك طماعون (درجة ثانية) ليسوا على مستوى أشعب ـ إمامهم ـ لكن أحوالهم تغيظ .. فقد ذكر المبرّد أن قوماً استضافوا شخصاً « فكرهوه، فقال الرجل لامرأته : كيف نعلم مقدار مقامه ؟ فقالت : ألق بيننا شراً حتى نتحاكم إليه . ففعل . فقالت للضيف : بالذى يبارك لك في غدوك غداً أينا أظلم ؟! فقال الضيف : والذى يبارك لى في مقامي عندكم شهراً ما أعلم . » !! (٥٤) وكان الحل الذى يتبغى على أهل البيت اتخاذه هو ترك المنزل له وحده . !!

ومعظم حالات الطمع تبدو في المأكل والمشرب .. فقد « تغدى أعرابي مع مزبد (هو صاحب النوادر أبو إسحاق المدني) فقال له مزبّد : كيف مات أبوك ؟ فأخذ يحدثه بحاله ، وأخذ مزبد يمضى في أكله ، فلما فطن الأعرابي قطع الحديث ، وقال له : أنت كيف مات أبوك ؟ ! فقال : فجأة .. وأخذ يأكل ..» !! (٥٥) وربما لايهاب الطماع الموت من أجل قطعة حلوى .. فيذكر أن أعرابيا ـ والأعراب دائما تأسرهم مظاهر الحضر ـ حضر عند الحجاج بن يوسف

الثقفى « فقدم إليه فطيرا طيبا ، فلما أكل الأعرابى منه قليلا وتذوق لذته ، قال الحجاج من أكل هذا ضربت عنقه ، فامتنع الناس ، فجعل الأعرابى ينظر إلى الحجاج مرة وإلى الطعام مرة ، ثم قال : أوصيك أيها الأمير بالصبية خيراً !! وابتدأ يأكل . فضحك الحجاج » (٥٦)

لكن من الطماعين من لا يكفيه المأكل ، بل يرسم الخطط ويدبر الأحداث ليستولى على (خميرة) كبرى . « قال أبو الأصبغ : ألح أبو القماقم على قوم عند الخطبة إليهم ، يسأل عن مال المرأة ويحصيه . فقالوا : قد أخبرناك بما لها ، فأنت أى شئ مالك ؟ قال : وما سؤالكم عن مالى ؟ الذى لها يكفينى ويكفيها.» !! (٥٧)

وليس الطمع سُبَّة ، ووسيلة تندر وإضحاك لدى العرب فقط ، بل هو مرض إنسانى موجود لدى كل شعب بمقدار .. فمن الحكايات الصينية القديمة يقال إن طماعاً صادف « رجلاً غنياً ، فقال له الغنى : ما رأيك أن أعطيك ٥٠ ألف جرام من الفضة ثم أضربك حتى تموت ؟ فكر الطماع برهة وقال : اضربنى حتى (أقترب) من الموت ، ثم أعطنى ٢٥ ألف جرام من الفضة . » !! (٥٨) ولأن الطماع يرى نفسه ذكيا ، فقد أراد أن يستغفل الرجل ويحصل منه على نصف ما اقترح عليه ويحتفظ لنفسه بالحياة والمال معاً .. لكن الطماع الصينى هنا ليس فى شجاعة طماع العرب الذى لم يخشَ الموت على يد الحجاج ، وفضل الشهادة فى حضن الفطير على أن يعيش بعيداً عنه !!

وقد تتعدى مواقف الطماعين فى روايتها حدود العقل والواقع ، فتذكر القصة الصينية أنه قد « قبض نمر على رجل فأسرع ابنه لإنقاذه حاملاً سكينا لقتل النمر . فصاح ذلك الرجل وهو فى فم النمر : يا بنى ! يا بنى ! ابتر رجل النمر فقط ، ولا تقطع فروته لتتمكن من بيعه بسعر أعلى » !! (٥٩)

وإضافة إلى ما ذكرنا من أن الطمع فى زماننا يتزيا بثياب مختلفة ، ويدخل تحت مصطلحات جديدة ، فإن ملاحظة ينبغى ألا تغيب عنا وهى أن المغفلين فى زماننا أقل من مغفلى الأزمنة القديمة ، فلا يجد الطماع من يضحك عليه . وأيضا ظاهرة الكرم لم تعد مزدهرة ليزدهر حولها الطماعون والفضوليون . كما أن وسيلة أكثر سخاءً وكسباً سادت هذا الزمن ، هى التسول !! فامتصت كل (العمالة الزائدة) فى مجال الطمع بغير تدخل من وزارة القوى العاملة ولا صندوق النقد الدولى . !!

★ ★ ★

وإذا كان أشعبُ يتربع على عرش الطمع العربى فإن « خالد بن صفوان» هو ملك البخلاء العرب بغير منازع .. وحين يمسك الفقير على لقمة خبز فى يده فليس ببخيل ، لكن إذا رأى الثرى سواه ماداً يديه جوعاً أو استجداءً ولم يعطه ، فهذا هو البخل الذى عالجهُ الدين بالزكاة وعُشر المال ، وعالجه القانون بالضرائب، وعالجه الشعب بالسخرية ، وهى ألذع علاج وأمضُ سلاح .. يقال إن خالد بن صفوان سأله « سائل فأعطاه درهما ، فاستقله السائل . فقال : ياأحمق إن الدرهم عشر العشرة ، وإن العشرة عشر المائة ، وإن المائة عشر الألف ، وإن الألف عشر العشرة آلاف . أما ترى كيف ارتفع الدرهم إلى دية مسلم؟!» (٦٠)

وإذا كان قد جاد بدرهم للسائل ، فإنه قد لا يجود بأقل منه فى مواقف أخرى. فقد جاءه غلام « بطبق خوخ » ، إما أن يكون هدية ، وإما أن غلامة جاء به من البستان . فلما وضعه بين يديه قال : لولا أنى أعلم أنك أكلت منه لأطعمتك واحدة » !! (٦١)

وقد يبدو البخيل متناقضاً : فهو فى العمل جاف اليد ، وفى الكلام طرى اللسان متدفق الألفاظ .. فهذا أحد ولاة الخلافة العباسية بفارس « بينما هو يوماً فى مجلس ، وهو مشغول بحسابه وأمره ، وقد احتجب بجهده ، إذ نجم شاعر من بين يديه ، فأنشده شعراً مدحه فيه وقرظه ومجده . فلما فرغ قال : قد أحسنت . ثم أقبل على كاتبه فقال : أعطه عشرة آلاف درهم . ففرح الشاعر فرحاً قد يستطار له فلما رأى حاله قال : وإنى لأرى هذا القول قد وقع منك هذا الموقع؟ اجعلها عشرين ألف درهم . فكاد الشاعر يخرج من جلده . فلما رأى فرحه قد أضعف ، قال : وإن فرحك ليتضاعف على قدر تضاعف القول؟ أعطه يا فلان أربعين ألفا . فكاد الفرح يقتله . فلما رجعت إليه نفسه قال له : أنت ـ جعلت فداك ـ رجل كريم، وأنا أعلم أنك كلما رأيتنى قد ازددت فرحا زدتنى فى الجائزة ، وقبول هذا منك لا يكون إلا من قلة الشكر . ثم دعا له وخرج .. فأقبل عليه كاتبه فقال : سبحان الله ! هذا كان يرضى منك بأربعين درهماً ، تأمر له بأربعين ألف درهم ؟ قال : ويلك أو تريد أن تعطيه شيئاً ؟ قال : ومن إنفاذ أمرك بد ؟ قال : يا أحمق ، إنما هذا الرجل سرنا بكلام ، وسررناه بكلام. وهو حين زعم أنى أحسن من القمر ، وأشد من الأسد ، وأن لسانى أقطع من السيف ، وأن أمرى أنفذ من السنان جعل فى يدى من هذا شيئا أرجع به إلى بيتى ؟ ألسنا نعلم أنه قد كذب ؟ ولكن قد سرنا حين كذب لنا ، فنحن أيضا نسره بالقول ونأمر له بالجوائز ، وإن كان كذبا ، فيكون كذب بكذب وقول بقول . فأما أن يكون كذب بصدق وقول بفعل ، فهذا هو الخسران المبين» !!(٦٢) وهذا الرجل أكثر كذبا وخداعاً من المرشحين للانتخابات البرلمانية.!!

والبخل درجات ، أحطها من لا يكتفى بالشح على الناس ، وعلى أهله ، بل يمسك يده عن نفسه هو أيضا .. وقد « زعموا أن رجلاً قد بلغ فى البخل غايته، وصار إماما ، وأنه كان إذا صار فى يده الدرهم ، خاطبه وناجاه وفداه واستبطأه.

وكان مما يقول له : كم من أرض قد قطعت ، وكم من كيس قد فارقت ، وكم من خامل قد رفعت ،ومن رفيع قد أخملت . لك عندى أن لا تعرى ولا تضحى .. ثم يلقيه فى كيسه ويقول له : اسكن على اسم الله فى مكان لا تهان ولا تذل ولا تزعج منه .. وإنه لم يدخل فيه درهما قط فأخرجه .. وأن أهله ألحوا عليه فى شهوة ، وأكثروا عليه في إنفاق درهم ، فدافعهم ما أمكن ذلك . ثم حمل درهما فقط . فبيناه ذاهب إذ رأى حواء - أى حاوى - قد أرسل على نفسه أفعى لدرهم يأخذه ، فقال فى نفسه : أتلف شيئاً تبذل فيه النفس ، بأكلة أو شربه ؟ والله ما هذا إلا موعظة لى من الله . فرجع إلى أهله ورد الدرهم إلى كيسه . وكان أهله منه فى بلاء ، وكانوا يتمنون موته والخلاص منه بالموت، والحياة بدونه .. فلما مات وظنوا أنهم قد استراحوا منه ، قدم ابنه ، فاستولى على ماله وداره ، ثم قال : ما كان أدم أبى ؟ فإن أكثر الفساد إنما يكون فى الإدام . قالوا : كان يتأدم بجبنة عنده . قال : أرونيها . فإذا فيها حزّ كالجدول من أثر مسح اللقمة . قال : ما هذه الحفرة ؟ قالوا : كان لا يقطع الجبن ، إنما كان يمسح على ظهره ، فيحفر كما ترى . قال : فبهذا أهلكنى ، وبهذا أقعدنى هذا المقعد . لو علمت ذلك ماصليت عليه . قالوا : فأنت كيف تريد أن تصنع ؟ قال: أضعها من بعيد ، فأشير إليها باللقمة » !! (٦٣)

والبخل قديما كان يرتكز على المطعم أولاً والملبس ثانيا . أما غير هذا من مظاهر الحياة فهو لعامة الناس متواضع قريب المستوى .. فالمركب كان الحصان أو الجمل أو البرذون أو الحمار . والحمار بالذات كان هو « أتوبيس» ذلك الزمان .. والمساكن كانت الخيام فى البوادى والمنازل البسيطة فى المدن .. أما الطبقات الثرية : الحكام والتجار وقادة الجيوش فلم تكن قاعدة متسعة بل قلة قليلة .

فى زماننا هذا تبدو عناصر البخل فى أشياء كثيرة .. فمن يأكل الفول والطعمية ـ وقانا الله شرهما !! ـ ومعه ثمن أكلة كباب فهو بخيل ! ، ومن

يلبس حذاء قماش ومعه ثمن حذاء جلد فهو بخيل ! ، ومن يركب سيارة «فيات» ويملك ثمن « المرسيدس» فهو بخيل .. ومن لا يصحب زوجته إلى «نيس» أو بلغاريا أو الإسكندرية للمصيف فهو بخيل ! . وإذا كان بإمكانك أن تنفق على أربع زوجات ، ولست متزوجاً إلا بواحدة فسارع بإكمال الأركان الأربعة ، وإلاّ اتهمتك زوجتك الواحدة ـ فى سرها ـ بالبخل!! ويمكنك أيضا ـ حتى لا تعطيها فرصة لاتهامك ـ أن تطلقها وتريح نفسك .. من إنفاقها . !!

من بخل هذا الزمان أن رجلا قال لصديقه فى البخل : لماذا أنت حزين هكذا؟ فرد عليه : لأن ثمن البنزين قد ارتفع كثيرا . فسأله : هل أسرفت إذن واشتريت سيارة ؟ فرد فى حدة : لا .. لقد اشتريت ولاعة . !!



(٥١) ظرفاء ولكن حكماء – ص ١٨ .

(٥٢) أخبار الظراف والمتماجنين – ص ٨٦ .

(٥٣) طرائف من التراث العربى – ص ٣٠٢ .

(٥٤) أخبار الظراف والمتماجنين – ص ١١٥ .

(٥٥) المرجع السابق – ص ١٢٤ .

(٥٦) طرائف من التراث العربى – ص ٣٤٨ .

(٥٧) أبو عمرو الجاحظ – البخلاء – ص ١٢٤ – تحقيق طه الحاجرى – ط دار المعارف – عام ١٩٥٨ م .

(٥٨) فكاهات صينية – ص ٧٤ .

(٦٠) البخلاء – ص ١٥١ .

(٦١) المرجع السابق – ص ١٤٧ .

(٦٢) المرجع السابق – ص ٢٦ .

(٦٣) المرجع السابق – ص ١٣١ .



كذابون .. حمقى .. أغبياء !!

نزل أعرابى على قوم بالشام ، فأكرموا وفادته ، وحين أراد السفر عبر لهم عن رضاه وشكره ، فمدح أميرهم بقوله :

أنت كالدلو ، لا عد مناك دلواً

من كثير العطا ، قليل الذنـوبِ

أنت كالكلب فى الحفاظ على الودّ

وكالتيس فى قراع الحروب (!!)

ولو كان هذا البدوى قد مر على باب « البلاغة» ولو من بعيد لعلم أنه أحمق، وأن ما قاله ـ رغم صدقه الفنى ـ بلَه !! فقد ذم من حيث أراد المديح . فهو لم يضع الكلام فيما يقتضى الحال ... وإذا كان هذا نوعاً من الحمق ، فإن الحمق ـ بصفة عامة ـ ربما يعنى فهم الكلام والأحداث على غير الذى اصطلح الناس عليه ، والحكم على الأشياء بغير ما يحكم العقل القويم . والدافع إلى الحمق قلة الخبرة بالحياة وتقلباتها فى الزمان والمكان .. أما الغباء فهو قصور عقلى طبيعى ، حتى لو وضع الغبى فى موقف التعلم لما استطاع أن يتعلم .

ومن الحمق القديم أنه « كان بأصبهان رجل حسن النعمة ، واسع النفس ، كامل المروءة يقال له سماك بن النعمان . وكان يهوى مغنية من أهل أصبهان

لها قدر ومعنى تعرف بأم عمرو . ولفرط حبه إياها وصبابته بها وهبها عدّة من ضياعه ، وكتب عليه بذلك كتباً ، وحمل الكتب إليها على بغل . فشاع الخبر بذلك ، وتحدث الناس به ، واستعظموه وكان بأصبهان رجل متخلف بين الركاكة يهوى مغنية أخرى ، فلما اتصل به ذلك ظن بجهله وقلة عقله أن سماكا أهدى إلى أم عمرو جلودا بيضا لا كتابة فيها ، وأن هذا من الهدايا التى تستحسن ويحل موقعها عند من تهدى إليه . فابتاع جلوداً كثيرة وحملها على بغلين لتكون هديته ضعف هدية سماك ، وأنفذها إلى التى يحب ، فلما وصلت الجلود إليها ووقفت على الخبر فيها تغيظت عليه ، وكتبت إليه رقعة تشتمه وتحلف أنها لا تكلمه أبداً ، وسألت بعض الشعراء أن يعمل أبياتا فى هذا المعنى لتودعها الرقعة ، ففعل ، وكانت الأبيات :

لا عاد طَوْعَكَ من عصاكا وحُرِمتَ من وصلٍ مناكا
فلقد فضحت العاشقين بقبح ما فعلتْ يداكا
أرأيت من يهدى الجلود إلى عشيقته سواكا
وأظن أنك رُمْت أنْ تحكى بفعلك ذا « سماكا »
ذاك الذى أهدى الضياع لأم عمرو و الصكاكا
فبعثت منتنة كأنك قد مسحت بهن فاكا
من لى بقربك يا رقيع ولست أهوى أن أراكا
لكنْ لعلى أن أقطع ما بعثت على قفاكا » (٦٤)

وإذا كان من بعث الجلود المنتنة إلى عشيقته المغنية أحمق فالاكثر حمقاً من بعث إليها الصكوك ، وتنازل لها عن بعض أملاكه !! لكن الصكوك هذه تطورت فى عصرنا الحديث فتحولت إلى جنيهات ودولارات تنضم فى خيط كالعقد ، وتوضع حلول عنق الراقصات فى الفنادق والملاهى !! أو ترشق حول

أثدائهن التى لم يرها البشر وحدهم فقط ، بل رآها ، وعبث بها ، وملّها الليل والنهار والفرش والتراب !! إنه حمق حديث ، ولكل زمان حمقاء !!

لم يفهم العاشق الأحمق ما وراء البغلة التى حصلت على أحمالها أم عمرو المغنية ، ولم يدرك إلا الظاهر من الحدث .. وربما يكون الحمق بعدم إدراك ما وراء الكلام أيضا . فيقال إن رجلاً من مرو سمع « الحسن وهو يحث الناس على المعروف ، ويأمر بالصدقة ، ويقول : ما نقص مال قط من زكاة . ويعدهم سرعة الخلف . فتصدق بماله كله فافتقر ، فانتظر سنة وسنة ، فلما لم يرَ شيئاً بكر على الحسن ، فقال : حسن .. ما صنعت بى ؟ ضمنت لى الخلف ، فأنفقت على عدتك ، وأنا اليوم مذكذا وكذا سنة أنتظر ما وعدت ، لا أرى منه قليلا ولا كثيرا . هذا يحل لك ؟ اللص كان يصنع بى أكثر من هذا ؟» !! (٦٥)

وقد يأتى الحمق فى شكل عناد وإصرار على أتفه الأشياء ، وقد يورث الحمق أيضا فينتقل من الأب لابنه ، فيكون أحمق خلف لأحمق سلف !! .. « كان هناك أب وابنة متصفان بالعناد ، لا يتساهلان مع غيرهما ولو فى أبسط الأمور . وذات يوم استضاف الأب رجلاً ، فأرسل ابنه إلى المدينة لشراء اللحم . وفى طريق العودة قابل الابن رجلاً ، وأبى كل منهما أن يتزحزح لغيره عن الطريق ، فوقفا هناك وجهاً لوجه . وبعد وقت طويل قلق الأب لعدم عودة ابنه ، فأسرع فى البحث عنه ليطبخ اللحم للضيف ، وبعد دخوله المدينة وجد ابنه يجابه ذلك الرجل ، فقال له: عد باللحم أولا ، واصحب الضيف لتناول الغداء ، ودعنى آخذ مكانك فى مجابهة هذا الرجل.» !! (٦٦)

وقد يحيِّد الطمع عقل الإنسان ، فيدفع الطامع إلى الحمق كأنه مخدر. فقد «كان أحد ملاك الأقنان بخيلا ، ولديه كثير من الطناجر . ولكن لم يُعر أحداً قط ولو طنجرة واحدة خوفاً عليها من التلف . وذات يوم ذهب دنغبا (رجل حاد الذكاء من قومية التبت) الى بيت هذا المالك ، فحياه وطلب منه أن يعيره طنجره.

ثم ألح فى الطلب . فوافق المالك مكرهاً على إعارته طنجرة مدة يومين فقط . وبعد يومين جاء المالك إلى بيت ذنغبا ، فأعاد له دنغبا طنجرته وفى داخلها طنجرة صغيرة ، فاستغرب المالك وسأله : من أين جاءت هذه الطنجرة الصغيرة ؟ فأجاب دنغبا بلهجة حادة : هذه الطنجرة الصغيرة قد ولدتها طنجرتك ، فكلتاهما لك . وبعد بضعة أيام عاد دنغبا إليه ثانية ليستعير طنجرة ، ففكر المالك : إذا أعرته طنجرتى فسأحصل على طنجرتين كما حدث فى المرة الأولى . فوافق على ذلك فوراً . وفى هذه المرة استعار دنغبا منه طنجرة كبيرة . وبعد عدة أيام جاء المالك لاسترداد طنجرته ، فأعطاه دنغبا طنجرته وبداخلها طنجرة صغيرة . فألح عليه المالك فى السؤال : لماذا تلد طناجرنا التى أعيرك إياها ؟ تظاهر ذنغبا بأنه مستغرق فى التفكير ، ثم أجاب : فى الواقع لا أعرف أى سبب لذلك . لكن أعترف بأنك رجل محظوظ وأننى محظوظ أيضا مع كونى فقيرا . وقد تلاقى المحظوظان فولدت الطنجرة ! قهقه المالك مسروراً، معتقداً أن دنغبا على صواب وقبل مغادرته قال لدنغبا :

ـ لا تتردد فى طلب أى شئ منى . !

ـ حسنا ، سأستعير منك طنجرة بعد أيام ، طنجرة كبيرة نوعاً ما !

بعد عودة المالك إلى البيت أخبر زوجته بالأمر . فقالت زوجته : من المؤسف أن تلك الطناجر ليست طناجر ذهبية ، فلو كانت طناجر ذهبية لولدت طناجر ذهبية صغيرة ، ولأصبحت لدينا ثروة ما بعدها ثروة . وذهب دنغبا بعد أيام إلى بيت المالك لاستعارة طنجرة منه . فأعاره المالك طنجرة ذهبية كبيرة حديثة الصنع . ووجد دنغبا إثر عودته إلى البيت أن هذه الطنجرة مصنوعة من الذهب ، فكسرها الى قطع ، ووزعها على الفقراءالذين لا يملكون المال لشراء الطناجر . انتهت المهلة فجاء المالك إلى بيت دنغبا مفعما بالأمل والثقة ، معتقدا أن طنجرته الذهبية الكبيرة قد ولدت طنجرة ذهبية صغيرة .ولكن ما إن دخل غرفة دنغبا حتى قال له دنغبا فى كآبة :

ـ يا لحظنا السيء ! لقد ماتت طنجرتك الذهبية الكبيرة وأصبحت شظايا لا فائدة منها ، فوزعتها على الفقراء .

ـ ماذا ؟! مستحيل ! كيف يمكن أن تموت الطنجرة ؟!

ـ عجيب : كيف لا تفهم حتى هذا الأمر البسيط ؟ أليس كل من يلد يموت ؟!

غضب المالك غضبا شديدا بعد سماعه كلام دنغبا ، ولكن لم يُحر جوابا . وما كان منه إلا أن انصرف جاراً أذيال الخيبة » (٦٧) ودنغبا هنا هو جحا فى موقف مشابه من الحكايات العربية ، و«الطنجرة» كانت مع جحا « ديناراً » وهذه الحكاية تلخيص لرغبة الشعب ـ أى شعب ـ منذ القدم فى (الاشتراكية) . فى العدالة بين الأثرياء والفقراء .. لكن الأغنياء حريصون كل الحرص على أموالهم، لأنهم لا يملكون من المواهب الإنسانية شيئاً ، هم جشعون حمقى ، أما الفقراء فيملكون المواهب والقدرات العقلية .. فيحاولون الإفادة من قدراتهم هذه فى توفير ظل من العدالة بينهم وبين الأغنياء ـ بكسر الطنجرة الذهبية وتوزيعها عليهم ـ لكن ألا يخشى الفقراء بطش الأغنياء إذا تجرأوا وطلبوا هذه الاشتراكية أو المساواة؟! الإجابة قدمها دنغبا عمليا بأن من يولد لابد أن يموت ، ومن يأخذ عليه أن يعطى . ولذا لم يعد فى يد (المالك) إلا الحزن الصامت فليمت بغيظه إذن !!

تُرى ما الأسبق : حكاية دنغبا الصينية هذه ، أم حكاية جحا العربية ؟! سؤال تحتاج الإجابة الحاسمة فيه إلى مبحث دقيق مستقل، عن التأثير والتأثر بين الحضارتين : العربية والصينية .. فالحكاية الصينية لم يحدد المرجع الذى أوردها نشأتها ولو بالتقريب ،ولكن ذكر أن كل محتوياته من فكاهات تعود إلى الفترة من ٢٢٠ م إلى ١٩١١م . ووسط هذه القرون الطويلة تتوه حقيقة السبق فى مثل هذه الحكايات . لكن المعهود فيما ينقل عن الحضارات الأخرى أن الناقل

يضيف من عنده رتوشاً وهوامش كثيرة بحيث تتضخم الحكاية وتناسب البيئة الجديدة التى جلبت إليها ، وحكاية جحا سريعة مركزه ليست عليها تفسيرات ونوافل كثيرة ، أما الحكاية الصينية فقد مسحت كثيرا من المسائل الهامشية بالنسبة لبنية الفكاهة .. فمنها نعرف إحدى الأدوات المنزلية (طنجرة) وعلاقة الأثرياء بالفقراء ـ وقد تكون هناك علاقة بين رواية هذه الحكاية والثورة الشيوعية فى الصين ـ والعادات المعيشية (دخل المالك على دنغبا فى غرفته ، وليس فى الصالة أو الصالون مثلا) ..

ومن محصلة هذه الظلال جميعا نلمح خيط الحكاية العربية يتسرب بسيطا إلى العينين لتنسج حوله هذه التفاصيل الكثيرة المتشابكة ، كما هو الشأن بالنسبة لألف ليلة وليلة ، وكليلة ودمنة ، وسيرة أبى زيد الهلالى ، التى تنقلت جميعا بين الشعوب والأزمنة فتضخمت .

ومن الموضوعات الفكهة عدم تكيف الريفى مع طبائع أهل المدينة وسلوكهم، وخاصة إذا كان يطأ المدينة لأول مرة ، وهذا مبعث السخرية من « الصعايدة» و«البحراوية» حين يزورون القاهرة ، فيتحدثون بلهجاتهم ، ويتصرفون بطرائق حياتهم التى تربوا عليها .. لكن ليس الريفى المصرى هو موضوع الضحك وحده، بل الفلاح الإيطالى أيضا عنصر تسلية لأهل المدينة الإيطالية .. فيقال إن قرويا وصل « إلى المدينة ليلتقى بأحد المحامين والعنوان معه ، فسأل رجلاً عن هذا العنوان ، فأخبره أنه بعيد ، وربما يذهب ولا يجد المحامى بالمكتب ، فالأفضل أن يتصل به تلفونيا . فسأل القروى :

ـ تليفونيا ؟! وكيف يكون ذلك ؟!

ـ إنه أمر بسيط ! ها هو ذا التليفون ..

ـ هل يمكن أن تشرح لى ما يجب أن أفعله ؟!

ـ نعم .. باليد اليسرى تناول السماعة ، وباليد اليمنى تطلب الرقم ...

وتتكلم !! كان القروى معتاداً أن يتحدث بالحركات أكثر مما يتحدث بالكلمات، فنظر إليه مندهشاً ثم قال : باليد اليسرى أتناول السماعة ، وباليمنى أطلب الرقم.. ثم.. بأى يد أتكلم ؟! » (٦٨)

والأحمق يرى نتائج الأحداث على غير مايراه سائر الناس . فقد « ذهب رجل إلى بيت صديقه ، حافى القدمين ، فعضه كلب هناك من رجله ، فصاح صيحة ألم . ولمس بيده رجله المعضوضة ، فوجد الدم ينزف منها . ولم يغضب هذا الرجل ، بل سر سروراً عظيما ، وصاح : من حسن حظى أننى لم ألبس الجورب ، وإلا أتلفته عضة الكلب !! (٦٩)

وربما أتى الحمقى بالحلول « العبقرية» التى لا تخطر على ذهن إنسان ، بل على أذهان الحمير فقط !! فهذا رجل ذبح جملا « وكانت سكينة صدئه فلم يستطع سلخه بها ، فراح يبحث عن المشحذ فى كل مكان ، ووجده أخيراً فى الطابق الثالث من بيته . فشحذ السكين حتى صارت حادة ، ثم نزل إلى الفناء لسلخ الجمل ، فإذا بالسكين تتثلم مرة أخرى بعد وقت قصير . وهكذا ظل يتردد صعودا وهبوطا بين الطابق الثالث والفناء مما جعله يحس بالإنهاك ، فخطرت فى ذهنه فكرة فقال فى نفسه: إننى فى غاية البله ، لماذا لا أرفع الجمل إلى الطابق الثالث بواسطة حبل، فأستريح من الصعود والنزول مراراً وتكراراً؟!» (٧٠)

وهاك حل « صينى» أكثر عبقرية من الحل السابق : « أدخل ثور رأسه فى الجرة ليلتهم ما فيها من الحبوب ، ولم يستطع إخراجه ثانية . ولم يجد أحد من أفراد الأسرة حلا ، فأرسل الفتى فى طلب خاله . وحضر الخال فقال فور رؤية المشهد: هذا ليس صعباً.. اقطعوا رأس الثور . ! فقطع الفتى رأس الثور حسب رأى خاله . وعندها وجد الجميع أن رأس الثور ظل داخل الجرة ، فسألوا خال الفتى

عن كيفية إخراج الرأس فقال : أمر سهل .. اكسروا الجرة ! كسر الفتى الجرة ، فتدحرج رأس الثور على الأرض .. أثنى الجميع على خال الفتى بأنه حلاَّل المشاكل ، غير أنه أخذ يبكي بحرقة . فسألوه عن سبب بكائه ، فقال بعد أن جفف الدموع على خديه : إنى كبير فى السن ، وأيامى فى الدنيا معدودة ! فمن ستجدونه بعد موتى لحل المشكلات التى تواجهكم ؟! » (٧١)

ولا حرمنا الله من كبار السن من أمثاله ، « ليزدهر » على أيديهم « خراب» البشرية . !!

★ ★ ★

هذا القصور العقلى المسمى بالغباء سر الإضحاك فيه هو مفاجأة الغبى لغيره بتساؤل أو تعليق أو تصرف لم يكن ينتظره . وفيه من الطرافة ــ غير المقصودة ــ ما يدهش المتابع .. فقد لقى الشعبى « رجل وهو واقف مع امرأة يكلمها فقال الرجل : أيكما الشعبى ؟ فأومأ الشعبى إلى المرأة وقال : هذه » !! (٧٢)

وقال « سليمان الأعمش لابنه : اذهب فاشتر لنا حبلاً يكون طوله ثلاثين ذراعاً، فقال : يا أبَه فى عرض كَم ؟ قال : فى عرض مصيبتى فيك . » (٧٣) وإذا كان الحبل فى عرض مصيبته فيه فعرضه كعرض السموات والأرض . !!

ولو تفكّر « الأعمش» و«تبصّر» حينا لرأى ابنه الغبى هذا سابقاً لزمانه فى دقته ، فكل ما له طول له عرض . !! ومن التساؤلات الغبيةأيضا أن امرأة وضعت مولودها « بعد سبعة أشهر من الحمل، فقلق زوجها على نموه قلقاً شديدا . وذات يوم حدَّث أحد أصدقائه بهذا الأمر ، فقال له صديقه : لا تقلق على ولدك لولادته بعد سبعة أشهر ، فجدى كان خديجاً مثل ولدك فسأله الرجل فى دهشة : لكن، هل كبر جدك بعد ذلك ؟ » !! (٧٤)

أحيانا يجيء الغباء موقفا .. وقد سجلت الذاكرة الصينية بالذات كثيرا من هذه المواقف . ولا يعنى هذا انتشار الأغبياء لدى هذا الشعب العظيم ، بل يعنى قوة ذاكرته ورغبته فى تكريم الأذكياء بتحقير الأغبياء ، ولجذوره الممتدة فى أعماق الدهر ، وثرائه البشرى الكبير .

من حكايات الغباء الصينى أنه « ذات يوم عزق رجل أرضا ، فوجد فيها وعاءً مملوءاً بالفضة كتبت عليه العبارة التالية : « فيه ثلاثمائة أوقية من الفضة البيضاء» فأسرع الى دفنه من جديد ، وهو فى غاية السرور ، كى يأخذه إلى بيته بعد حلول الظلام حيث لايراه أحد . لكنه تخوف من أن يسرقه الآخرون ، فنصب إلى جانبه لوحة خشبية كتب عليها مقاطع صينية تقول « ليست هنا فضة » وانصرف . وبعد ذلك جاء جاره إلى الحقل وسرق هذه الفضة كلها بعد أن قرأ ما كتب على اللوحة الخشبية وكتب بدوره العبارة التالية : إن جارك لم يسرق الفضة التى كانت فى الوعاء . » (٧٥) وإذا اجتمعت اللصوصية والغباء والكذب فى واحد من الناس لا ينقصه إلا البذلة العسكرية ليحكم دولة من دول العالم (النائم) . !!

وطلب « مالك الأرض من كهرمانه شراء بعض التفاح من بستان الفواكه وأكد عليه عدة مرات قائلا : اشتر لى تفاحاً حلوا ، وإلا فلا تشتر ! بعد وصول هذا الكهرمان إلى البستان راح يختار التفاح من الأشجار واحدة واحدة ، وكلما اقتطف تفاحة قضمها ليتأكد من حلاوتها حتى ملأ سلته بالتفاح وعندما عاد إلى سيده وضع سلة التفاح على الطاولة وقال له : تفضل بالأكل يا سيدى ، فكل التفاح فى السلة حلو : » (٧٦)

وهذه صورة تمثيلية من فيلم ضاحك على الطريقة الصينية تسخر من رجال الادارة الجهلة .. فقد « طلبت الإدارة الحكومية المحلية من أحد رجالها ذات مرة أن يرسل نسخة من الوثائق الهامة والعاجلة إلى مكان ما ، وأعطته جوادا بدلاً من

السير على قدميه كي لا يتأخر فى إنجاز هذه المهمة الخطيرة بيد أنه لم يركب الجواد ، بل انطلق يعدو معه . فدهش الناس لتصرفه وسألوه : لماذا تركض ولا تركبه ؟ فأجابهم لاهثاً : الجواد بأربع أقدام يركض أسرع من الإنسان ذى القدمين . وإذا جمعت أقدامه الأربع إلى قدمى ، أصبحت جميعا ست أقدام . أفليست الأقدام الست أسرع من أربع ؟» (٧٧)

وتستعرض هذه الحكاية غباء موظفى الحكومة أيضا : « تسلم حاجب من حجاب المحكمة المحلية أمراً بأخذ راهب مجرم إلى محكمة المقاطعة ، وقبل سفره عدّ بدقة ما سيجلبه معه من الأشياء الضرورية خشية نسيانها ، ثم ألّف من أسماء هذه الأشياء أرجوزة كى يحفظها عن ظهر قلب :

رزمة ملابس ومظلة وغلّ ، ووثيقة وراهب وأنا

كان يتلو هذه الأرجوزة بلا انقطاع فى طريقه خوفا من ضياع أى منها . وجده الراهب المجرم بليدا ، فاسكره فى الفندق الصغير الذى نزلا فيه . وبعد أن فقد الحاجب رشده حلق شعره كاملاً فأصبح أصلع الرأس ، ثم وضع الغل فى رقبته ولاذ بالفرار . وعندما استيقظ الحاجب من النوم أحس كأنه فقد شيئا مما معه ، فترنم بالأرجوزة قائلا : آه ! إن رزمة الملابس والمظلة موجودتان . ثم لمس رقبته فقال : آه ! لم يفقد الغل ووجد الوثيقة معه أيضا ، ثم صاح فجأة فى دهشة: يا سلام ! أين الراهب ؟ وانتابه القلق الشديد وهو يهرش رأسه . وعندما لمس رأسه الأصلع بيده قال مسروراً : من حسن الحظ أن الراهب لم يهرب ، ولكن أين أنا » !! (٧٨)

★ ★ ★

لا تسخر البشرية من سمات التفوق الذهنى أو الجسدى ، بل تسخر من النقص فيها ، سواء أكان مكتسبا كالكذب والنفاق ، أو أصلاً فى الشخص كالقصر الشديد و الغباء ... وسجل الإنسان سخريته من الكذب فى رواية بعض حكاياته ، التى قد تكون كذبا لفظيا أو تهويلاً أو غيرهما .

والطريف أن بعض الكذابين يحرصون على الكذب حرصهم على حياتهم نفسها وأسمائهم .. وقد « قيل لكذاب : تذكر أنك صدقت قط ؟ فقال : لولا أني أخاف أن أصدق لقلت : نعم » !! (٧٩) فبعض الناس يسعون إلى الشهرة بأية سبيل ، فإن لم تكن في البطولة والخير ففي الجبن والشر !!

والتهويل نوع من الكذب الذي يعرف مستمعه غالبا أنه كذب ، لكن يستسيغ الاستماع إليه . وقد تطور هذا الصنف من الإضحاك حتى أضحى عملاً دراميا إذاعيا على لسان (بيجو وأبو لمعة) وغيرهما من فشاري هذا الزمن .. وقديماً « قال رجل لجليسه: في قريتي طبل كبير يمكن أن ينتشر صوته إلى مسافة ٥٠ كيلو مترا بمجرد أن يقرع مرة واحدة . فقال جليسه : في قريتي ثور كبير ، عندما يشرب الماء من النهر على الضفة الجنوبية يمتد رأسه إلى الضفة الشمالية . فهز الرجل رأسه مستنكراً : أين يوجد ثور بهذا الحجم الهائل ؟ فقال الجليس : إن لم يكن هناك ثور بمثل هذا الحجم ، فمن أين تجد جلدا لطبلك الضخم ؟» !!(٨٠) وهذا الذي يستنكر وجود الثور الضخم لم تمر عليه الحكاية الشعبية لدينا بأن الزلزال يحدث لأن ثوراً عظيما يحمل كرة الأرض على أحد قرنيه ، وكل عدة سنوات يريحه بنقل الأرض إلى القرن الآخر فتهتز . وهذا يحدث بدون أن « تندلق» المحيطات والأنهار على اليابسة !! وهذه أكذوبة دينية تشبه كثيرا من الخرافات التي لحقت بالدين ، وأصبح من يستخف بها أمام العامة من الجهلاء كأنه يستخف بالدين نفسه . مثل وجود الجن وقدراتهم الخارقة في تحريك الجبال ، وحكاية « البراق» ذلك الحصان الذي يطير في الهواء !!

وبعض الأسماء تزيف حقيقة حامليها ، فلا تشير إلى كنههم ، بل تؤكد عكس الواقع : فيسمى أحدهم (المهدى) وهو ملعون !! ويسمى بعضهم (سيد) وهو مسود مغلوب على أمره !! وبعضهم (جابر) ويحتاج لمن يجبر خاطره ، ويسمون أبناءهم أحيانا (رشيد) وهو مولود حديثا لم يرشد بعد !! وقد « أدخل مخنث على العريان بن الهيثم وهو أمير الكوفة فقال : يا عدو الله أتتخنث وأنت

شيخ ؟ فقال : مكذوب على كما كذُب على الأمير . فقال : وما قيل فيَّ ؟ قال : يسمونك العريان ولك عشرون جبة . » !! (٨١)

وأعلى مراتب الكذب ـ أو أحطها ـ أن يتلبس الإنسان الكذب حتى يظنه الحق .. وقد « أراد جحا أن يبيع حماره فذهب إلى السوق وأعطاه للدلال ليبيعه، فأخذ الدلال يدور به وينادى : هذا حمار سريع السير ، متين التركيب ، واسع الخطى ، لا يشعر راكبه بأى تعب . وبينما الناس يتزايدون على الحمار إعجابا بكل هذه المزايا .. قال جحا لنفسه : لابد أن الحمار به كل هذه الصفات ، وأنا لا أدرى .. وفى لمح البصر اندفع بين المتزايدين ، وأخذ يتبارى معهم فى رفع ثمن الحمار إلى أن رسا عليه البيع ، فأخرج نقوده من كيسه ثم أعطاها الدلال ، وتسلم الحمار ـ وانصرف عائدا إلى البيت سعيداً بهذه الصفقة.. وفى المساء جلس يقص على زوجته نبأ المزايدة فقالت له : وأنا سأحدثك عما هو أعجب من هذا ، لقد مر أمام دارنا بائع القشدة فناديته ، وأخذ يزن لى فغافلته ووضعت أساورى الذهبية فى الكفة التى يضع بها المكاييل ، وهكذا أخذت من الوزن أكثر مما أستحق فلما انتهى حملت الوعاء فورا ودخلت البيت دون أن استعيد الأساور حتى لا يكتشف أنى ضحكت عليه فى الميزان . فقال لها جحا وهو يغالب الضحك والسخرية بارك الله فيك !! أنا من الخارج وأنت من الداخل ، وبهذا يعمر البيت !! » (٨٢)

إن حكايات من هذا القبيل لو صاغتها ـ صياغة حديثة ـ أقلام لكتاب المسرح والدراما من أمثال فتحى سلامة ولينين الرملى ويوسف عوف وفرج مكسيم ويوسف معاطى وقدمتها للمسرح أو الإذاعة لأخرجتنا من عته بعض الممثلين ، وانعواج مؤخرة فؤاد المهندس . !!

★ ★ ★

(٦٤) طرائف من التراث العربي ـ ص ١٧٠ .

(٦٥) البخلاء ـ ص ٢٧ .

(٦٦) فكاهات صينية ـ ص ٥٩ ـ ٦٠ .

(٦٧) المرجع السابق ـ ص ١٨١ ـ ١٨٣ .

(٦٨) Le ggiamo e conversiamo ص ٤٣

(٦٩) فكاهات صينية ـ ٢٢٠ ـ ٢٢١ .

(٧٠) المرجع السابق ـ ص ٥ .

(٧١) المرجع السابق ـ ص ١٧٣ ـ ١٧٤ .

(٧٢) أخبار الظراف والمتماجنين ـ ص ٧٩

(٧٤) فكاهات صينية ـ ١١٢ ـ ١١٣

(٧٥) المصدر السابق ـ ص ١٦ ـ ١٧ .

(٧٦) » » ـ ص ٩

(٧٧) » » ـ ص ٦ ـ ٧

(٧٨) » » ـ ص ١٠ ـ ١١

(٧٩) أخبار الظراف والمتماجنين ـ ص ١٢٧ .

(٨٠) فكاهات صينية ـ ص ١٣٤ ـ ١٣٦ .

(٨١) أخبار الظراف والمتماجنين ـ ص ١٥٥

(٨٢) ظرفاء ولكن حكماء ـ ص ١٥٣ ـ ١٥٤





سرعة البديهة .. وحسن التخلص

لسنا نبسم للقصور الإنسانى فقط ، بل نُسَر للتفوق البشرى أيضا ، ونسجله - كما نسجل عناصر الضعف - لكنا هنا نتعلم من إزكاء أذهاننا ، وتعميق قدرتنا على مواجهة الأحداث ، والالتفاف حولها ، وتوظيفها لما نبغى .. وممانبتسم له هذا الذكاء الإنسانى الذى يتدفق من أصحابه فى عبارات كالبرق المتقطع فيبهر ويأخذ بالألباب .. هذا الذى يدخل تحت مسمى (سرعه البديهه وحسن التخلص) . وإذا كنا نسعد جميعا بأن نرى هذا التفوق البشرى - المرتكز أولا على اللغة - فاننا نراه ضروريا لأصحاب السياسه والمفاوضين فى المؤتمرات ، خاصه إذا كانوا يواجهون مفاوضا داهية . !!

والفارق بين سرعه البديهة وحسن التخلص مثل ورقه السيجارة ،..فكلاهما قول عبقرى غير منتظر يدل على فهم الشئ وما وراءه ، لكن حسن التخلص يومض بعد أن يبدو هذا الذكى منحصراً فى ركن كأنه لن يتخلص منه ، فإذا به ينسلت منه بحل مدهش أفضل مما يتوقعه المتابع .

وسرعه البديهة ليست خاصية مقصورة على زمن بعينه ، ولا شعب واحد ، بل البشرية فى كل أزمنتها تأخذ منها بنصيب ، كما تأخذ من الحمق والغباء أيضا !:

وسواء أكان الزمن حديثا أم قديماً يستأثر الأدباء بالنصيب الأوفر من سرعة البديهة . وبعضهم – من أمثال امام العبد – يتفوق فيها على ابداعه الأدبى نفسه. يقال إن الأديب الصينى سودونغ بوه حضر «مأدبه بسيطة أقامها جاره . وكان على المائده صحن فيه أربعة طيور صفراء مطبوخه ، فأكل أحد الضيوف ثلاثه منها تاركًا واحداً للأديب ، فابتسم سو دونغ بوه وقال له مشيرا الى الطير الوحيد الباقى فى الصحن : تفضل بأكله : لاتدع الطيور الأربعه تفترق ! »(٨٣)
وسألوا الشاعر أبا العيناء : ما بال الحمير إذا أحست بالرجوع الى مرابطها ، والقرب من دور أهلها، أسرعت المشى إلا حمارك، إذا قرب من دارك تخابث فى المشى؟ !! فقال : لعلمه بسوء المنقلب.!! وليس أبو العيناء وحده الذكى بل حماره أيضا !! واستضاف الشاعر اللباد أحد الغرباء ، فأكرم وفادته ، لكنه أهمل حماره الذى أرهقه السفر ، وقدم لمهرته هو علفا . فقال الضيف :

أنا فى ضيافتك العشية ها هنا

فاجعل حمارى فى ضيافة مهركا

وليس من حق الحيوانات أن تستضيف أجناسها فقط ، بل هى تعشق بعضها ايضا .. وفى الجاهلية قال المنخّل اليشكرى فى المتجرّدة زوجة الملك النعمان بن المنذر :

ولقد أمر على الفتــاة الخـدر فى اليـوم المطيـــر

الكاعب الخنساء ترفل فى الدمقس وفى الحريـــر

وأحبهــــا وتحبنــــى ويحب ناقتها بعيرى !!

ومر ببشار بن برد قوم يحملون جنازة وهم يهرولون بها : فقال : مالهم مسرعين ؟ أتراهم سرقوها ، فهم يخافون أن يُلحَقوا فتؤْخذ منهم ؟!

ومرض الأعمش [٨٤] فدخل عليه رجل ثقيل يعوده فقال له : ما أشد ما مرّ بك فى علتك هذه ؟ قال : دخولك !!

وجشعُ ملاك المنازل قديم جداً ، حتى إن الحكاية الشعبية عالجته على لسان جحا – الذى حمل كثيرا مما لم يقل – فقيل إن جحا سكن فى دار ، فشكا الى صاحبها أنه يسمع فرقعة فى سقفها . فقال صاحب الدار : لا تخف ، إنه يسبح الله . قال : وهذا الذى أخشاه ، تدركه رقه فيسجد علينا !! ومر رجل من الحكماء برجل قائم فى طريق . فقال : ما وقوفك ؟ قال : أنتظر إنسانا . قال :يطول وقوفك إذن.» !! [٨٥]

وإذا كان أشعب قد استأثر بثلثى الطمع العربى ، ونال جحا ثلثى الضحك ، و«فاز» خالد بن صفوان بتاج البخل – هو تاج من ريش البوم ، مرصع بنوى النخيل – فإن رجلا اسمه مزبد عرف بسرعه البديهة .. مر به رجل « وهو جالس يتفكر فقال له : فى أى شئ تتفكر ؟ قال : فى الحج قد عزمت عليه السنة . قال فما اعددت له ؟ قال: التلبية ، فما أقدر على غيرها .. وزُفتْ إليه – من الزفت !! امرأة قبيحة فقيل له : بم تصبحها ؟ قال : بالطلاق ! . ونظر إلى قوم مكتفين يحملون إلى السجن ، فقال : ما قصة هؤلاء ؟ قيل: خير . قال فإن كان خيرا فكتفونى معهم .! وغضب عليه بعض الولاة فأمر بحلق لحيته ، فقال له الحجام : افتح فمك . فقال: الأمير أمرك بحلق لحيتى أو تعلمنى الزمر؟» [٨٦] ويبدو أن « الأمراء » فى كل زمان يكرهون اللحى وأصحابها !! ويوما قال «الجماز لأبى شراعة : كيف تجدك ؟ قال : أجدنى مريضا من دماميل قد خرجت فى أقبح المواضع : فقال : ما أرى فى وجهك منها شيئا » !! [٨٧] .

وقديما أيضا قال أبو سعيد بن دراج : « مرت بى جنازة ومعى ابنى ، ومع الجنازة امرأة تبكى وتقول: بك يذهبون الى بيت لافرش فيه ولاوطاء ، ولاضيافة ولاغطاء، ولا خبز ولا ماء . فقال ابنى : يا أبت ، إلى بيتنا والله يذهبون بهذه الجنازة » !! [٨٨] .

ومن أدباء هذا الزمن الحديث من يملك بديهة حاضرة ، سريعة الاستجابة ، وقذفاتها كطلقات الرصاص ، لكن العامية هى المسيطره فيما سُجّل من هذه المضحكات .

كان محمد البابلى يلعب الطاوله مرة مع صديق ، فلعب لعبة لم ترض منافسه، فسخر منه قائلا : بقى دى لعبه يا سى بابلى ، أمال ايه الفرق بينك وبين الحمار ، ؟ فرد البابلى فورا : ما فيش فرق بينى وبين الحمار ..غير الترابيزة.!!

ومات لإمام العبد صديق كان يملك ورشه لحام ، وحين سمع الخبر بدا وجهه متأثرا وقال : الله يلحمه !! وكان للعبد أيضا صديق جزار – يبدو أن أصدقاءه جميعا من خريجى مدرسة الصنايع – وهجر الجزار هذا عمله واحترف الأدب . وكان الجزار يجلس مع العبد وحافظ ابراهيم ، فقال له حافظ : إزاى الحال ؟ فرد الجزار : الحمد لله . وعاد حافظ يسأله :الجزارة الأحسن ولاّ الأدب ؟ ! فأجاب العبد على الفور : هوّه لما كان جزار كانت الكلاب بتمشى وراه ، دلوقت لما أصبح أديب ، بقى يمشى ورا الكلاب !! (٨٩)

وللشيخ عبد العزيز البشرى مشاركته الثريه في هذا المجال .. كان يوما فى مأدبه عند الأباظية . وذهب يغسل يديه بعد الغداء تاركا جبته السوداء معلقة على أحد المقاعد وحين عاد وجد أحد الحاضرين قد رسم وجها لحمار بالطباشير على الجبة . فقال البشرى متسائلا : مين فيكم اللى مسح وشه فى الجبة ؟ !!

وكثيرا ما كان البشرى مرافقا لحافظ ابراهيم فى السهرات الخاصة والحفلات العامه .. وفى إحدى الرحلات دخل البشرى على حافظ فى غرفة النوم ، وطلب إليه أن يرتدى ملابسه : فقال حافظ : أنا لسه ما غسلتش وشى . فقال له

البشرى: وشك مش عايز غسيل .. نفضه كفايه !! (٩٠) وكان الشيخ عبد العزيز معتادا استخدام صيغ مختلفه فى القسم بالله ، فكان يقول مثلا : أقسم بالله ثلاثا.. وحق ذات الله العلية .. قسما بذات العزة والجلال .. وإذا استخدم قسماً منها فى أول الليل ظل يستعمله إلى آخره . وفى إحدى الليالى لاحظ حافظ أن عبد العزيز البشرى استخدم كل صيغ القسم . فسأله : إيه الحكاية ؟هو ما فيش «يمين» نوبتشى الليله ؟!!

وكان حماده الطرابلسى صديقا لمأمون الشناوى ، وكانت السمنة قد اتخذته لها مأوى ومقراً دائما ، فوصفه مأمون فى تضخمه فقال : كنت قاعد مره مع الطرابلسى .. وشفته وهو « بيتخن » !!

وإذا كان الأدباء يستأثرون بجل هذا النوع من الذكاء الإنسانى ، ويملكون القدرة على إظهاره ، بحكم امتلاكهم للغة ، واتساع أفق ثقافتهم وعقولهم ، فإن فئات أخرى لها باع «قصير» فى هذه « الفرفشة» .

قال عالم ألمانى لزميله مفتخراً : لقد اكتشفت مادة تذيب كل شئ : الحديد، النحاس ، الزجاج ، الخشب ..... فرد زميله : تهنئتى لك .. لكن هل لى أن أعرف فى أى إناء وضعت هذه المادة ؟!

ومن بين الشخصيات التى لمعت فى مجال النكته ، وليست لها صفة عامة : المعلم دبشه الجزار ، والأسطى حسين الترزى .. كان الترزى يسير فى الطريق ، فلمحه أحد أصدقائه وهو يقود سيارته الخاصة ، فدعا الترزى إلى الركوب معه لتوصيله إلى حيث يريد .وكانت السيارة متهالكه فقال له الترزى : ما أقدرش .. علشان مستعجل !! أما دبشة الجزار فقد زار إحدى الفنانات بمنزلها ، فرأى عندها رماناً أعجبه . فقالت له :أفرط لك رمان يادبشه ؟ فقال لها : فرطى لى .. فى عرضك !!

وكان « وزراء زمان» مفرفشين ، لأنهم كانوا مشقفين ، مرنى العقول ، واسعى الصدور .. أما « أبناؤنا » وزراء هذا الزمان فليست لهم « صدور » حتى تتسع !! وحفنى محمود واحد من هؤلاء الضاحكين المضحكين .. كان وزيراً للمواصلات . وسمع صوتا عاليا يرتفع من الغرفه المجاورة لغرفة مكتبه . فاستدعى الساعى وسأله : إيه الزيطه دى ؟ فقال الساعى إن السكرتير يتكلم من الاسكندرية: فقال حفنى محمود : قل له بدل ما يزعق كده .. يتكلم فى التليفون .!!

وبعد تفكر وتدبر ، وتدبر وتفكر عرفت سبب تدهور الأدب العربى فى السنين الأخيرة ، وحصول نجيب محفوظ على نوبل ، ونبوغ عشرات الشعراء : الكبار والشباب : ذلك أن الجزارين والترزية والسمكرية تابوا عن الأدب ، وغسلوا أيديهم منه وعادوا إلى قواعدهم سالمين.. وعقبال مدرسى الجامعة وباقى المهن .!!

★ ★ ★

الصراع السياسى يدفع الى بذاءة القول ، وطول اللسان ،. حتى لو كان بين نخبة من أشراف قريش : بنى هاشم وبنى أمية .. ومعاوية بن أبى سفيان الذى انتصر على بنى هاشم بالحرب كانت له حربه الدعائية أيضا ضدهم .. وأحيانا كان يمارسها بنفسه .. فقد « قال معاويه لعقيل إن فيكم لشبقا يا بنى هاشم : قال : هو منا فى الرجال ، وهو منكم فى النساء »!! [٩١] وللحق فهذا القول إهانة مزدوجة خلاصته أن قريشا – أهل الشرف والسؤدد – شطر من رجالها فيهم شبق، وشطر من نسائها أيضا .!!

ولا يستبعد أن يكون مثل هذا القول اختراعاً محضاً .. ومثله حادث يستخف بمعاوية ويهزأ من عقله .. وليس بعيداً أن يكون من وضع الشيعة ..يقال إنه مر

«على رجل وقد علق حماره فى الطاحونة يديرها ، وقد علق بعض الأجراس فى عنقه وفوق رأسه .. فسأل معاويه عن سبب ذلك ، فقال له الرجل : إن النوم يغلبنى أحيانا فتأخذنى سنة منه وصوت الأجراس يدلنى على أن الحمار يدور بالطاحونه ، فإذا توقف دق الأجراس فإننى أعلم أن الحمار قد توقف عن الدوران .. فقال معاوية : وماذا تصنع إذا توقف الحمار مكانه وأخذ يهز رأسه ليوهمك أنه يدور بالطاحونه ؟ ! فأجاب الرجل : يا صاحبى .. أنّى لى بحمار له رأس مثل رأس معاوية ؟!! (٩٢)

ونادراً ما تفتح نافذه للضحك ولا يطل منها لسان جحا .. سئل مرة : هل يولد للرجل بعد بلوغ الستين ؟ قال : يجوز : قيل : وبعد بلوغ الثمانين؟ قال : يجوز: قيل وبعد بلوغ المائة ؟ قال : نعم .. إذا كان له جار فى العشرين .!!

ومثل هذا الرجل الذى يتزوج فى المائه يضرب عصفورين بحجر واحد :أنه يعطر داره بامرأة : يسمع صوتها وهو نائم دائما على سريره فيظل نائما !! وتناديه: يا جدو !! ويصادقه كل جيرانه من الرجال ويجعلون من منزله (البيت الكبير المريح) .. ثم إنه فى النهاية يحصل على أطفال بغير عناء !! فمّن الله علينا بعجوز كهذا !!

وجحا يُسأل أيضا : أيهما أفضل : السير خلف الجنازة أم أمامها ؟ فيقول : لا تكن فى النعش ، وسر حيث تشاء !! وجنازات أيامنا هذه لا يسير الناس وراءها وخلفها فقط ، بل يمينها ويسارها أيضا لأنهم دائما أربعة يحملونها إلى القبر .!!

وفى حسن التخلص هذا يبرز الأدباء أيضا ، ويحملون فى أجولتهم معظم ما خلفته البشرية من هذه المضحكات المعجبات .. « قال الجاحظ : سألنى بعضهم كتابا بالتوصية إلى بعض أصحابى ، فكتبت له رقعة وختمتها . فلما خرج الرجل من عندى فضها ، فإذا فيها : كتابى اليك مع من لا أعرفه ولاأُوجب

حقه، فإن قضيت له حاجه لم أحمدك ، وإن رددته لم أذمك . فرجع الرجل إلىّ ، فقلت له : كأنك فتحت الرقعه وقرأتها ؟ قال : نعم قلت : لا يضيرك ما فيها ، فإنه علامة لى إذا أردت العناية بشخص ! فقال : قطع الله يدك ورجليك ولعنك ! قلت : ما هذا ؟ قال : هذه علامة لى إذا أردت أن أشكر أحدا » !!(٩٣)

ومشهورة جدا هذه الأبيات التى قالها ثلاثه من الشعراء الشباب السُّيّع – أو الصيع بالعامية !! – ولم نعرفهم ولا عرفنا لهم غيرها .. قال راوى الحادثة : كنت عند رئيس الشرطة صباح أحد الأيام ، فجيئ اليه بثلاثه شبان قبض عليهم يغنون ويضجون فى ساعة متأخرة من الليل ، فسأل الأول : من أنت ؟ فرد :

أنا ابن الذى لا تنزُل الدهرَ قِدرُهُ
وإنْ نزلتْ يوماً فسوف تعودُ
ترى الناس أفواجاً إلى ضوء ناره
فمنهم قيام حولها وقعودُ

فظنه رئيس الشرطة ابن أحد أجواد العرب فأطلقه : وسأل الثانى : فقال :

أنا ابن الذى خاضَ الصفوفَ بعزمه
وقوّمها بالسيف حتى استقلت
ركاباه لا تنفكّ رجلاه منهما
إذا الخيلُ فى يوم الكريهة ولت

فقال رئيس الشرطة فى نفسه : قد يكون أبوه أحد صناديد العرب . فتركه ، وسأل الثالث . فقال :

أنا ابنُ مَنْ دانت الرقابُ له
من بين مخزومها وهاشمها

تأتيــــه بالرغــــم وهى صاغــرة

فيأخـذ من مالهـا ومـــن دمهـــا

وحسبه رئيس الشرطة أحد اشراف العرب فخلّى سبيله . ولما انصرف الشبان، وكنت أعرفهم – هكذا يقول الراوى – قلت : أتعرف من هؤلاء ؟ قال : لا . قلت : الأول ابن فوّال – بائع فول – لا تنزل الدهر قدره والثانى ابن حيّاك – أو حائك – رجلاه فى ركاب نوله . والثالث ابن حجّام يأخذ من دم الناس ومالهم.!!

وهذا الحادث من أطرف ما خلفّه لنا التراث العربى فى حسن التخلص، وانقاذ النفس من الأزمات .

وليس الأديب فى المواجهات من هذا النوع منتصرا دائما . فهذا هو الفرزدق ، لا ينهزم من الشاعر الكميت فقط ، بل من أحد النبط غير الأدباء . قال الفرزدق: « كنت أنشد بجامع البصره ، وفى حلقتى الكميت بن زيد وهو صبى، فأعجبنى حسن استماعه . فقلت له : كيف سمعت يا بنىّ ؟ قال لى : حسن: قلت : فسرّك أنى أبوك ؟ قال : أما أبى فلا أريد به بديلا ، ولكن وددت أن تكون أمى ! قلت : استرها علىّ يا ابن اخى ، فما لقيت مثلها . وأما النبطى ، فانى لقيت نبطيا بيثرب فقال لى : أنت الفرزدق ؟ قلت نعم ، قال : فأنت الذى إذا هجوتنى يموت فرسى هذا !؟ قلت: لا، قال : فيموت ولدى ؟ قلت: لا ، قال : فأموت أنا ؟ قلت لا . قال : فأدخلنى الله فى حر أم الفرزدق من رجلى إلى عنقى . فقلت : ويلك ! ولمَ تركت رأسك ؟ قال : حتى أرى ما تصنع الزانية » (٩٤)

وما دام هذا الرجل نبطيا ، وليس بأديب ، فيتساوى عنده أن «يتهم» الفرزدق أمهّ بالعفه والشرف ، وأن يكشف لؤمها ودنسها .!! فالذين يخافون الشعر إذا هجا

– هم أهل الشرف وأهل الذوق المثقف .. إنهم يملكون أعراضا مصونة ، ويجب أن تصان ، ويدركون خلود الشعر بين الناس بما يحمل من خير وشر .

وقد يستند حسن التخلص الى التلاعب بالألفاظ .. «قال يموت بن المزرّع : قال لى سهل بن صدقه ، وكان بيننا مداعبه : ضربك الله باسمك : فقلت له مسرعا : أحوجك الله إلى اسم أبيك .» (٩٥)

هناك ظاهرة استوقفتنى ، بعد كل ما وقع تحت يدى من مواقف « سرعه البديهة وحسن التخلص » هى أن النساء ليست لهن أيه مشاركة فى هذا المجال .. أيرجع هذا إلى انعدام اختلاطهن بالمجتمعات : قديما وحديثا .. أم أن الرجل ظلمها « فسرق اجتهادها » فىّ هذه الناحية كما يسرق قلبها دائما .. أم أن حسن تخلصها يتم بساقيها الجميلتين ، وسرعة بديهتها تعبر عنها بحواجبها .. أم أن المرأة عملية جدا ولم ترهق لسانهافى « مسائل شكلية » واحتفظت بها لسلق زوجها ؟! الله أعلم والأزواج !!

ومن حسن التخلص – حديثا – أن أحد أصدقاء المفكر الساخر برنارد شو ذهب لزيارته ، وحين دخل عليه حجرته وجده يتحدث إلى نفسه . فسأله الضيف مندهشا : أتتكلم مع نفسك ؟! فرد عليه برناردشو : نعم هذه عادة لدىّ فقد اعتدت منذ الصغر أن أتحدث يوميا مع شخص ذكى .!!

وسأله كاتب مبتدئ : أريد أن أكتب شيئا لم يكن قد كتبه أحد من قبل .. فبماذا تشير علىّ ؟ فأجابه برناردشو : الأمر بسيط .. اكتب رثاءك !!

وحكاية أخرى لأديب شاب لكن مع الروائى الفرنسى اسكندر ديماس . حيث عرض عليه الشاب أن يتعاونا معاً فى كتابة إحدى القصص التاريخية .فرد عليه ديماس ساخراً : كيف يمكن أن يتعاون حصان وحمار فى جر عربة واحدة ؟ ! فرد الشاب عليه لطمته فوراً : هذه إهانة يا سيدى .. كيف تسمح لنفسك أن تصفنى بأننى حصان ؟!!

أديب آخر مبتدئ أراد أن يلقى على إمام العبد إحدى قصائدة ، فهمس اليه العبد : طب استنى لما نروح خرابة أحسن حد يشوفنا .!!

وقد يتبارى طرفان ذكيان بقصد أو بغير قصد ، ولا بد أن يفوز أحدهما .. فيوماً عرض الرسام الفرنسى برنار بوفيه على ثرى أمريكى أن يشترى إحدى لوحاته .. وهى لوحة جيدة تصور واجهة كاتدرائية .. فقال الأمريكى بعد التمعن فيها : يحيرنى فى لوحتك أننى لا أرى أى أشخاص فيها !! وصُدم الفنان بهذه الملاحظة الجاهلة . فقال له فى استخفاف: إن السبب فى عدم رؤية من كنت تتوقع رؤيتهم أنهم يؤدون الصلاة داخل الكاتدرائية !! وتنبه الأمريكى إلى سخرية الفنان منه ، فقال له بسخرية أيضا : حسنا ..سوف أشترى لوحتك حينما يخرجون .!!

ومباراه ثانية دارت بين حافظ ابراهيم وعبد العزيز البشرى – وكثيرا ما كانا يتباريان – وكان حافظ جالساً بحديقة داره بحلوان ، وحين قدم اليه البشرى بادره قائلا : حين رأيتك من بعيد تصورتك واحدة ست .. فرد حافظ : يظهر إن نظرنا ضعف .. أنا كمان لما شفتك وانت جاى افتكرتك راجل .!!

أما هذه فمشادة أسرية بين محمد البابلى وابنه المسرف ، الذى ملّ أبوه كثرة إنفاقه فقال له :

– انت بتودى الفلوس فين ؟

– فلوس إيه ؟ هى دى فلوس ؟!

– طب اسمع لما أقولك .. تبادلنى ، يعنى انت تاخد مركزى وأنا آخد مركزك، وتخلصنى من أعبائك ؟ !

– أنا مستعد !!

– يعنى اتنازلك عن الأرض ، وعن الفلوس ؟!

– موافق !!

– بس بشرط .. اتنازلك كمان عن امك !!

أخيراً ، نرى المرأة طرفا فى هذا النوع من الإضحاك : قابل سليمان نجيب إحدى السيدات فى ميدان لسباق الخيل .. فسألها عن اسم الحصان الذى تسابقت به . فقالت له : اذا قلت لك اسم الحصان ، فهل تشاركنى عليه ؟ فقال لها : أنا موش عاوز أشاركك .. أنا عاوز أشارك جوزك .!!

ومن المؤكد أن سليمان جميل كان يدعو الله فى نفسه قائلا :

ياليتنى كنت حصانا .!!



(٨٣) فكاهات صينية – ص ٥٥ .

(٨٤) الأعمش : هو أبو محمد سليمان بن مهران ، الذى ينتسب لبنى أسد بالولاء . تابعى مشهور . كان عالماً بالقرآن والحديث والفرائض وجاءت وفاته عام ١٤٨ هـ .

(٨٥) أخبار الظراف والمتماجنين – ص ١٥٧

(٨٦) المرجع السابق – ص١٥٩

(٨٧) المرجع السابق – ص ١٥٩

(٨٨) انظر .. من قصص الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى .

(٨٩) الظرفاء – ص ٥١

(٩٠) من مقدمة كامل الشناوى لكتاب (الظرفاء) .

(٩١) أخبار الظراف والمتماجنين – ص ٧٤

(٩٢) ظرفاء ولكن حكماء – ص ٢٣

(٩٣) طرائف من التراث العربى – ص ٢٠٩

(٩٤) المرجع السابق – ص ٣٢٨ – ٣٢٩

(٩٥) اخبار الظراف والمتماجنين – ص ١٥٧


يا قيس .. أنا مهر بنتى ليلى ..
٤ جمال زلمكة .. ٥ .. وصندوق
الدنيا ٧ أنظمة .. و دِش

مع النسوان ..!!

الإنسان أكمل الموجودات وأجملها .. لأنها صيغتْ جميعا لأجله .. وهو الذى يمنح للأشياء الجمال . فالوردة جميلة لأنه يراها هكذا ، والقمر جميل حسب رؤيته هو كإنسان له ،، إنه مانح الجمال للجمال . ولا شك فى أن المرأه بها عناصر الجمال التى تعادل عناصر القوة لدى الرجل . المرأة إذن أجمل الموجودات على الإطلاق .

ويبدو لى حقا وصدقا – فى بعض الأحيان أن العالم كله لم يرسم هكذا الا لتستمتع به النساء !! ولا حتى جادت الطبيعة بنا نحن الرجال إلا لأجل المرأة !! ولأنها قد استأثرت بالجمال دونه ، وامتلكت القدرة على تحريكه من وراء ستار فإن الرجل – بما لديه من عنجهية وهلفتة – يدعى غالبا أن المرأة قاصر ومخلوق ضعيف ، تافه ، مشوه العقل وما الأمر كله إلا حقداً فى حقد !!

وعبر الرجل عن هذا الموقف – غير المنصف – تجاه المرأة الزوجه والعشيقة والحماه والنساء بعامة .. فى صيغه من الاستخفاف قلما يتيح لها من خلالها أن تعبر عن نفسها .. وحتى أحداث الحب بينهما غالبا ما يرويها الرجل على الرغم من أنها لا يمكن أن تتم بدون الطرف الأول : المرأة .

فالزواج بامرأة قد يعد فى نظر بعض المفكرين عقابا أكثر ردعا من السجن .. وفى هذا يروى أن شابا انجليزيا صدم فتاه بسيارته ، وبعد البرؤ من

جراحها خيرته الفتاه بين تقديمه للمحاكمه أو الزواج بها ..فتحامل على نفسه وتزوجها !! وعلق برنارد شو على هذا الحدث بقوله :

لو أننا عممنا هذه القاعده لقل طيش أصحاب السيارات من الشباب والعزاب وندرت الحوادث .!!

وقد لا ترتقى المرأة إلى مرتبه الحيوان فى عرف بعض الرجال !! فهذا رجل «استرالى» فى الخمسين من عمره ينشر اعلانا عن رغبته فى الزواج من سيدة فى مثل سنه تملك حصانا . وكان رجاؤه الوحيد هكذا : أرجو إرسال صورة الحصان .!!

والأنثى تعرض فى أسواق الزواج ، ولها دلالات .. «وقد جاءت دلالة إلى رجل فقالت : عندى امرأة كأنها طاقة نرجس ، فتزوجها فإذا هى عجوز قبيحة فقال للدلالة : غششتنى . فقالت : لا والله ، إنما شبهتها بطاقه نرجس لأن شعرها أبيض ، ووجهها أصفر ، وساقها أخضر ، » !! (٩٦)

وما سُجّل لنا عن العلاقة بين الزوجين يصورها دائما متوترة ، فيها النفور ، والرغبة فى الهروب .. فقد قال زوج فى شكوى إلى قسم الشرطة :اشتريت أنا وزوجتى دجاجا من السوق ، وأثناء عودتنا للمنزل فقدت زوجتى والدجاج .. وأنا الآن أبلغ عن فقد الدجاج فقط !! .. وأحد الأصدقاء ظل فترة يطارد زوجة صديقه ، حتى ضاق ذرعاً به فقال له : هذا آخر إنذار لك .. أذا لم تتوقف عن مطاردة زوجتى فسوف .. أتركها لك .!!

وقالت امرأة انجليزية لزوجها : كيف تتجرأ على تقبيلى فى الطريق العام هذا الصباح .. إنه جنون منك .. فأجابها : لو كنت أعلم أنك أنت لما قبلتك .. فسامحينى .!!

وهي عنيدة تتحدى زوجها ، وتدفعه لتعطيل أعماله وخلف مواعيده..فهذا زوجا ن تشاجرا ، وتخاصما .. وفي إحدى الليالي وضع الزوج في يد زوجته قبل النوم ورقة مكتوبا فيها : « أيقظيني في السابعه صباحاً » وحين استيقظ في الصباح وجد الساعة قد بلغت العاشرة ، ووجد ورقة في يده مكتوبا فيها : استيقظ .. فقد بلغت الساعة السابعه .!!

ويبلغ الكره مداه حين قيل لبعضهم : أتحب أن تموت امرأتك ؟ فقال: لا . قيل : لَم ؟ قال : أخاف أن أموت من الفرح !!

فهي إذا ماتت فسوف تقتله – بعد موتها !! – فما بالك لو كانت حية – لا أقصد أنها من الزواحف !! – ويقال إن المطلب بن محمد كان « على قضاء مكه ، وقد كان عنده امرأة قد مات عنها أربعة أزواج ، فمرض مرض الموت ، فجلست عند رأسه تبكي وتقول : إلى مَن توصي بي ؟ قال : إلى السادس الشقي » (٩٧) أي أن كل واحد من هؤلاء الرجال الخمسة لم يأخذ في يدها « غسلة » واحدة وعلقته بمشبك في حبل الغسيل !! وهذا ذنب الرجال «المغوخين » الذين تزوجوها منفردين ، ولم يتزوجوها بالجملة !!.

فما هو السبب في هذا التوتر الزوجي الدائم ؟! السبب ـ كما يرويه لنا ما خلّفه المجتمع الإنساني قديما وحديثا ـ لا يعود إلا إلى الزوجة !! فقد ظلت ثرثرتها تتدفق حتى في الفراش ، وحين مدت يدها لإطفاء النور ، قالت لزوجها :هل أقفلت كل شئ يا حبيبي ؟ فقال لها : نعم يا حبيبتي .. ما عدا فمك !!

وكثيرا ما تؤدب طفلها الصغير (الزوج) بيد المكنسة أو القبقاب ، والتاريخ يذكر أن هذا الإدب النسائي القبقابي قد فازت به شجرة الدر على زوجها بالقاضية !! وفي الصين « ضربت امرأة زوجها ، الذي يخاف منها ، فأختبأ تحت السرير مذعورا ، ولم يجرؤ على الخروج ، فصاحت به : أسرع في الخروج: فأجابها قائلا : إذا الرجل الحقيقي قال: لا أخرج . فلن يخرج» !! (٩٨)

واشتراكية الضرب الحريمي للأزواج غطت كل الأوساط . فهذا «حاكم إحدى المحافظات يخاف من زوجته التي دأبت على شتمه وضربه لأتفه الأسباب. وقد خدشت له وجهه ذات مرة ، وأخذ ينزف دما . وفى اليوم التالى حضر إلى مقر عمله ، ورآه حاكم الولاية المشرف على شئون حكام المحافظات ، فسأله قائلا: كيف جرح وجهك ؟ فقال حاكم المحافظه مخفيا الحقيقة : مساء أمس جلست تحت تعريشة فى منزلى للتبرد ، فانهارت عليّ فجأة ، وجرحت وجهى. لم يصدق حاكم الولاية كلامه وقال : هذه الخدوش من زوجتك بكل تأكيد ، إن امرأة كهذه بغيضة وكريهه ثم التفت إلى رجاله قائلا : اذهبوا واقبضوا عليها وقودوها الى هنا ! واتفق أن سمعت زوجه حاكم الولاية هذا الكلام من خلف قاعة المقر ، فخرجت غاضبةوما أن رأى حاكم الولاية زوجته حتى قال لحاكم المحافظة : إذهب عنى مؤقتا ، ستنهار التعريشة فى فنائى الخلفى أيضا!»(٩٩)

وأوامر الزوجة قضاء ، لا رادّ له .. لكنها – ولها الشكر !!–تمنح « هامشا من الحريات » لرعاياها : الزوج !! وقد جلس صديقان يتذكران زوجتيهما .. وأخذ أحدهما يستعرض نفوذه المنزلى ، وقد سية تعليماته الزوجية لدى زوجته ، فقال : إننى آمر زوجتى فتطيع ، لقد طلبت منها بالأمس ماء ساخنا فجاءت به فوراً. أعجب الرجل « بحماشة» صديقه وسأله : أطلبت هذا الماءلتستحم ؟ قال: لا .. لأغسل الأطباق .!!

ويحل شرع الإسلام للرجل أن يقترن بأربع نسوة .. وليس للمرأة كذلك لكن إحدى نجمات هوليود عبرت عن قناعتها وزهدها فى الأزواج فقالت : إننى لا أريد أسرة كبيرة سوف أكتفى بزوجين فقط !! نعم العقل أيتها المرأة الهوليودية.!!

وأقرب المقربين إلى الزوجه هو رئيس هيئة أركانها ، وصاحب خططها : أمها – وقانا الله الشر !! – ولهذا قد تلخص العداء التقليدى المشروع بين الزوج وحماته فى هذا السؤال والإجابه عنه : قال أحدهم لصديقه : ما الفرق بين المصيبة والكارثة ؟ فرد : المصيبة أن تغرق حماتك .. والكارثة أن ينقذها شخص ما ! !

ووسط هذا الركام من تقبيح المرأة وتسفيه ذوقها وعقلها تتسلل إلينا ومضة من امرأة أديبه هى أجاثا كريستى حين سئلت :لماذا تزوجت واحداً من رجال الآثار؟ فقالت : لأننى كلما كبرت ازددت قيمة عنده !!

ولهذا النكد الزوجى الدائم – الذى لم يدفع أحد الأزواج للوقوع فيه ، هم اختاروه طائعين غالبا – يؤثر مجموعة من الناس – وخاصة ذوى الفكر والعلم – حياة العزوبية والوحدة ، ويقدمون فى انفرادهم غذاءً للبشرية أخلد من الأطفال الذين يتدحرجون زرافات ووحدانا من بطون النساء .. نتذكر الشاعر العّتابى الذى سألوه : لم لا تتزوج ؟ فقال : وجدت الصبر عنهن أيسر من الصبر عليهن.!! (١٠٠) وأبا نواس الذى دفعه أقرباؤه للزواج دفعاً ، وزفوا إليه زوجة ، وحين عادوا ليهنئوه « بالصباحية» أعادها إليهم ، ولم يكن قد مسّها بخير أو بشر .!!وجان بول سارتر الذى عاش مع سان دى بوفوار بدون مراسيم الزواج وقيوده.. وعباس العقاد الذى منح قلبه لعشيقته (ساره) فلفته فى ورقة جريدة ، وباعته لمطعم كبدة .!!

★ ★ ★

أما المرأة المعشوقة فحالها لدى الرجل مختلف كل الاختلاف .. هى ممتعه ، آسره ، ذكية ، تستدعى أن يجن لأجلها قيس ، وأن تحارب أثينا اسبرطة بسببها ،

ويظل العاشق المتيم بكل ما فيها من جمال – وقبح –!! يتابعها من النافذة ويغني لها « شحات الغرام » وإذا التقيا فملعونة الدنيا وما فيها ، لأجل رشفة فيها.. قال ابن الجوزيه : « قال محمد بن يحيى المدني: سمعت عطاء يقول : كان الرجل يحب الفتاه فيطوف بدارها حولا كاملاً ، يفرح إن رأى مرآها ، وإن ظفر منها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار فاليوم يشير اليها ، وتشير اليه ، فإذا التقيا لم يشكوا حباً ، ولم ينشدا شعرا وقام إليها كأنه أشهد على نكاحها أبا هريره وأصحابه »!! (١٠١)

ومالك أنت يا بن الجوزية ممتعضا من تطور هذه العلاقة البشرية ، كما تتطور كل الكائنات الحية ؟!! لا عيب أن يقطع الرجل والمرأة المسافه بينهما في غمضه عين ، بل العيب أن يتلظى كل منهما شوقا ، ويحومان ، ويطوفان ويدوران حول « الموضوع » حتى يضيع العمل ويفنى العمر ويموت كل منهما مجنونا أو فاشلاً ومريضا بالانفصام في الشخصية !!

وابن قيم الجوزية – هذا الرجل الثقة – يلخص لنا تطور الحياة الاجتماعية في الدولة الاسلامية من خلال هذا الموقف الذي صوره .. كانت الحياة الاسلامية – حينها – مزدهرة ثقافيا ، واقتصاديا ، واجتماعيا وكانت الناس بغير عقد، شأنها في كل الدول المتقدمه المالكة زمام القيادة والسمو .

وإذا عدنا بالتاريخ إلى الوراء – قبل ابن القيم – نتوقف عند حادثه طريفه .. هي أن الشاعر العرجي واعد « محبوبته عند شعب من شعاب عرّج الطائف إذا نزل رجالها يوم الجمعة إلى مسجد الطائف .فجاءت على أتان لها ومعها جاريه لها وجاء العرجي على حماره ، ومعه غلام له ، فواقع المرأة (١٠٢) ، وواقع الغلام الجارية ونزا (١٠٣) الحمار على الأتان فقال العرجي : هذا يوم قد غاب عذّاله » (١٠٤) .

والرجل مهما كان قدره يستخفه الفرح إذا أمكنته المرأة التى يحبها من نفسها.. فقد «حكى الشيخ أبو على الفارسى النحوى، فقال : دخلت مع شيخنا أبى إسحاق الزجّاج على القاسم بن عبيد الله الوزير ، فورد إليه الخادم فسارّه بسرّ استبشر له ثم نهض ، فلم يكن بأسرع من أن عاد وفى وجهه أثر الوجوم ، فسأله شيخنا عن ذلك لأُنس كان بينهما ، فقال له : كانت تختلف إلينا جارية لاحدى القينات فسمتها أن تبيعنى إياها ، فامتنعت من ذلك ، ثم أشار عليها أحد منْ ينصحها بأن تهديها إلىّ رجاء أن أضاعف لها ثمنها . فلما جاءت أعلمنى الخادم بذلك ، فنهضت مستبشرا لافتضاضها فوجدتها قد حاضت فكان منى ما ترى ، فأخذ شيخنا الدواة من بين يديه ، وكتب :

فــارس مــاض بحربتــه حـاذقٌ بالطّعـن فى الظُلـم
رام أن يـــدمى فريستــه فاتقتَه من دم بــدم » (١٠٥)

فهذا « وزير » ويجلس مع اثنين من أجلّ العلماء .. ثم يتركهما فجأة ، وينط كالطفل إلى فتاه صغيره ولوكانت زوجته لهرب منها .!!

وللحق فإن النساء أيضا يعتريهن النهم إلى الذكر والشبق للحاجة الغريزية وقد تلتهب هذه الحاجة فلا يكفيها رجل ولا اثنان ولا طابور ، كما قال أبو نواس :

ومظهرة لخلق اللــه حبــا وتُلقىَ بالتحيــة والســلام
أتيتُ فؤادها أشــكو إليــه فلم أخلص إليه من الزحــام
فيا من ليس يكفيها خليــلٌ ولا ألفا خليـل كل عــامَ
أراك بقية من قـوم مـــوسى فهم لا يصبرون على طعـام

وللحق أيضا فإن الرجل – أحيانا – تنتابه حالة « مرضية » من « العفاف» فلا يرغب من المرأة إلا فى أقل القليل « قال أبو عثمان :

قد ترى الأعرابى ، وظاهره ظاهر الجفاء ، فما هو إلا أن يعشق حتى تجده أرق من الماء وألطف من الهواء ومع ذلك يلقى أحدهم عشيقته فيترشفها ويعانقها من فوق الثياب ويمنعه التكرم ويحجزه الورع عن وطئها وإن أمكنته .... ويقتصرون على الحديث والقبل واللمس » (١٠٦) وهذا أمر طبيعى للهوة الواسعه بين أهل البداوة والتحضر .

وقد تكتفى المرأة المحبة بالمغازلة الكلامية من حبيبها إذا لم يكن فيه لها أمل !! وربما استنطقته هى هذه المغازله ودفعته إليها دفعا .. تقول فتاه يابانيه لحبيبها : ألا ترى أن عينى مثل النجوم ؟ قال : أجل .. قالت :وأن أسنانى مثل حبات اللؤلؤ ؟ قال : أجل .. قالت : وأن شعرى الذهبى مثل سنابل القمح ؟ فرد : أجل .. أجل .. فقالت : أوه حبيبى ، ما أجمل العبارات التى تقولها لى .!!

وهى ذكية أيضا ، ما دامت ليست زوجه .. فقد ألحّ شاب إيطالى بالطريق فى متابعة فتاة جميلة ، ومغازلتها .. فالتفتت إليه سائله : لماذا تتبعنى ؟! قال : لأنى مفتون بجمالك .. وعشقتك من أول نظره .. قالت : إن أختى الأجمل منى قادمة ورائى وهى جديرة بحبك .. ونظر الفتى خلفه ليرى الأجمل ، فإذا بها عجوز دميمة شمطاء . فرد على الفتاه : لماذا تكذبين علىّ ؟! قالت له : لأنك أنت أيضا تكذب علىّ .. فلو أنك تحبنى حقا لماآثرت علىّ أخرى .. ولا نظرت للخلف باحثا عن فتاه قد تكون أجمل منى ..!!

إنها خسارة لهذا الإيطالى لا تفوقها خساره إلا أن يحرم من فطيرة بيتزا فى أحد الأيام .!!

★ ★ ★

لا تقتصر العلاقة بين الرجل والمرأة على الزواج والعشق .. فهناك الزمالة والمصالح الحياتية الأخرى التى تربط حياتهما بغير انفصام .. ولعل أبرز هذه

العلاقات الكثيرة رباط الزمالة الحديثة فى العمل .. وهى علاقة قائمة على المينى جيب ، والمكياج و« الزنقة» فى المواصلات ، ونسج التريكو ، وإعداد الملوخية فى المكاتب من ناحية المرأة .. وقائمه على الغمز واللمس و«الرسم» من ناحية الرجل .. إنها علاقة مثالية جداً ، يظهر كل طرف فيها ماليس فيه من الميزات ، ويسلم الطرف الآخر بهذه الميزات ويستسيغها ، ويفيد منها مادام لم يقع الزواج وتحدث الورطة !!

والعمل فى الزمن الحديث لم يعد عنه غنى للمرأة المتطورة فى بلادنا العربية.. فهى كل يوم مضطرة لتجميل وجهها وشد جلده والتعطر ، والسير فى دلال بعيدا عن أعين الزوج الممل !! إنها تجد فسحة من الوقت – فى مكاتب العمل – لتجهيز طبيخ اليوم التالى .. وأحيانا إعداد بديل جاهز للزوج المشاكس !! لكن قلما تجد زوجا مشاكسا لزوجته بسبب العمل ، لأنه يفيد ويستفيد .. فإذا فَرَّجَ عن زوجته – بالعمل – كربة ، فرجت عنه زوجات غيره كربة من كربات منزله .!!

من حكايا زمالة العمل هذه – وخاصة فى العمل السياسى – أن ونستون تشرشل خطب يوما فى البرلمان الانجليزى ، فهاجم المرأة وكال لها الاتهامات فصاحت فى وجهه إحدى عضوات البرلمان قائلة : لو كنت زوجى لوضعت لك السم فى القهوة . فرد فوراً : ولو كنت زوجك لشربته فوراً .!!

ثم إن للمرأة « لسانها السليط » الذى تستطيع به أن ترد سموم الرجل فقد «دخلت بثينه على عبد الملك بن مروان ذات يوم ، ولما نظر إليها وجدها حمقاء بدا عليها الكبر ، وكادت تولى ، وينتهى أجلها ، فقال لها : ما الذى رأى فيك ، فأحبك ، وشغف بك ؟ قالت بثينه : الذى رآه الناس فيك حين استخلفوك» !!(١٠٧)

ولهـا لدغاتهـا التى تفت فى عظام الرجل فقـد « كـان على بن المحسن بن على، أبو القـاسم التنوخى ظريفـا نبيـلا ، تقلد قـضـاء عـدة نواح منهـا المدائن وأذربيجان وغيرها ، وكان جيد النادرة اجتاز يوماً فى بعض الدروب فسمع امرأة تقول لأخرى : كم عمر بنتك يا اختى ؟ فقالت : رزقتها يوم صفع القاضى التنوخى وضرب بالسياط . فرفع رأسه إليها وقال : يا بظراء (١٠٨) صار صفعى تاريخك ؟ ! ما وجدت تاريخا غيره !!» (١٠٩)

وفارق الزمن الذى يعنى فارقاً فى المفـاهيم والمظاهر يتلخص فى هذه الحكاية الإيطالية : « توقف عجوز ينظر بدهشة إلى فتاه ترتدى بنطلونا ، لم يصدق عينيه ، فاتجه الى أقرب المارة وسأله :

– تُرى .. هل هو شاب أم فتاه ؟!

– إنها فتاه !

– وترتدى زى الرجـال ؟! لكن كـيف يسمح لهـا والداها أن تخرج بهـذا الزى؟!

– إنها ابنتى أيها السيد !!

– آه .. معذرة ، لم أكن أعرف أن حضرتك والدها !!

– أنت رجل وقح !! أنا والدتها !! » (١١٠)

ويبدو أن هذا العجوز الإيطالى اسمه .. حسنين !!!



(٩٦) أخبار الظراف والمتماجنين – ص ١٧٢ .

(٩٧) المرجع السابق – ص ٨٨ .

(٩٨) فكاهات صينيه – ص ١٤١ – ١٤٢ .

(٩٩) المرجع السابق – ص ٢٠٢ – ٢٠٣ .

(١٠٠) ظرفاء ولكن حكماء – ص ١١٧ .

(١٠١) ابن قيم الجوزية (٦٩١ – ٧٥٠ هـ) : أخبار النساء – ص ٣٤ – شرح وتقديم عبد مهنا – ط دار الكتب العلمية – بيروت – ط ١ عام ١٩٩٠ .

(١٠٢) واقع المرأة : ضاجعها وجامعها .

(١٠٣) نزا : جامع الحيوان الحيوان .

(١٠٤) طرائف من التراث العربى – ص ٢٣٧ .

(١٠٥) المرجع السابق – ص ١٣٢ .

(١٠٦) أخبار النساء – ص ٣٧ .

(١٠٧) من قصص الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى .

(١٠٨) البظراء : ذات البظر .. وهو اللحمة النائتة بين شطرتى فرج المرأة .

(١٠٩) طرائف من التراث العربى – ص ١٦٠ .

(١١٠) Leggiomo e comversamo – ص ٢٧ .





رجل الحمار !!

على الرغم من أن الضحكة – فى بعض طرائقها – قد تؤلف نفسها بنفسها، فتتفجر فجأة على أحد الالسنه الحكيمه ، أو فى الموقف غير المعد مسبقا ، فإن بعض أشكالها يقتضى الجلوس والتفكير والتدبير والتطوير .. وكذلك بعض الأماكن كمعامل لتفريخ عناصر الإضحاك ..ففى المدينه يتبوأ المقهى مقاما كبيراً فى هذا المجال وكذلك الصالونات الأدبية .. والصياغه الغالبة على ما يفرز فى هذه الأماكن هى السرعه والخفه والاعتماد على ذكاء المتلقى وتوهج ذهنه . ولهذا يشاع فى المضحكات المسجله على شرائط كاسيت أو تلقى فى افراح المدن لأمثال شكوكو وفكرى الجيزاوى وحماده سلطان ، شاع الروح السريع بحيث تجد الاستجابه لدى من يرغب المضحك المحترف فى إضحاكهم وخاصة أنه قد قبض مقدم الثمن وإذا لم تنفشخ أشد اقهم أكثر فربما لا ينال غير جمرة الطماطم المعفنة تغطى وجهه ، وفرقعة اللطمات الساخنة تدفىء قفاه ،!!

وفى الريف تعد المصطبة المأوى المثالى لإلقاء النكات والسخرية والقفشات مع كركره « النرجيلة» وطعم الشاى الأسود الذى يذيب الكبد .. ويدلدل الرجال أرجلهم من فوق المصاطب وهم يتابعون مضحكا ريفيا غالبا لا يمتهن هذا العمل، إنما هو من «غلابة» القريه الذين يتطلعون إلى الجلوس مع كبار القوم على المصطبة ، فيتخذ الإضحاك وسيلة إلى هذا الإرتقاء !! وربما يتفرغ بعضهم

للإضحاك فينام نهارا تحت أى حائط أو فى خص ببعض الحقول ، ويدور فى المساء على البيوت العامرة بالكركرة والإصوات الخشنه فيتقوت العشاء والإفطار ويقوتهم ابتسامات فظه أو رقيقه !!

أما النساء فيقاطعن جلسه المصطبة مجبرات بحكم التقاليد لكنهن يقرفصن خلف الأبواب قريبا من جلسة الدردشة وتتولى آذانهن التقاط ما تفيض به ألسنه الرجال من قفشات ونكات ،، وكثيرا ما تقع إحداهن صريعة هوى أحد هؤلاء المجتمعين أمام البيت علي المصطبه لأن صوته أكثر غلظه أو لسانه أحد نطقاً ، أو أنه قريب العمدة !! فكم من حكايا الهوى الريفى ولدت وعششت على المصاطب !!

وإذا كانت هناك مضحكات تنبع من الواقع غالبا ، فإن جل مضحكات الريف تصاغ فى الإطار الأسطورى والتخريفى .. فتتكئ على حكايا الجن والعفاريت وبركات الأولياء ، وهم يروون ما يقدمونه من هذه التصانيف بصيغة قصصية فيها الاسترخاء والتمهل ، وفيها اصطناع التوثيق .. وهم فى هذا ربما كانوا متأثرين بالقُصّاص الذين كانوا يجلسون فى المساجد – عهد الدولة العباسيه – يروون الأحاديث والحكايا ، ويسندونها لناس من المختصين أو غيرهم .

ولا نرى طفلا ريفيا فى مصر لم يشاهد شجرة أو حجراً ، أو قبراً وسط الحقول والمبانى يتبرك به آباؤه وأهله ويطلقون عليه أسماء كالشيخ العجمى والشيخه مريم .. وقد يتطور الخيال الريفى ليذكر أحدهم بثقه لا يعتريها التردد أنه شاهد فى إحدى الليالى المظلمه الشيخ العجمى والشيخه مريم يسيران بفانوس يحمله الشيخ المتقدم أمام الشيخة ويرتديان ملابس خضراء ، وهما قصيران كالأطفال ، ثم يختفيان فجأة !! وينبرى واحد وثلاثه وأربعة لتأكيد الرواية وذكر مشاهداتهم هذه .!!

ولكل إنسان عفريت ، بمجرد قتله يظهر عفريته - الذى يكون أعمى فى حياته - فيكحل عينيه بدم رفيقه المقتول فيبصر ، ويبدأ فى ممارسة أعماله العفريتية ليلاً . فأحيانا تراه نخلة قصيرة انزرعت أمامك فجأة ، وكلما اقتربت منها ترتفع للسماء حتى تصل الى النجوم ثم تتهاوى فجأة بلا حس ولا خبر !! وقد يظهر العفريت فى هيئة ثياب بيضاء تغطى الأرض على مساحة شاسعة ، وتنحسر، وتمتد ، وترتفع لأعلى ، وتهبط لأسفل !! وربما تحول العفريت إلى شخص يرتدى ملابس بيضاء ويكبر أمام عينيك حتى يقطع رأسه السحاب ، وربما تحول إلى صاروخ من النيران ، وإذا أقرأته السلام لا يرد ، بل يهز رأسه بهمهمة غير مفهومة .!!

وللقطط والكلاب نصيب من هذه التهيؤات العفريتيه ، حتى إن الأمهات يحذرن الأطفال من ضرب القطط ليلاً لأنها جنيات تخرج تلقّط رزقها ليلاً من الآدميين ..أى أن الجن القادرين يتسولون من البشر الجائعين !! يالهم من جن سخفاء عديمى النظر !!

أما الحمار فله نصيب كبير من حكايا المصاطب .. فهو ليس كائنا عُتُلاً يحتمل الضرب والجوع ، إنما هو قد يكون عفريتا إذا امتطيته ليلاً التصقت به فإذا ظهره حقل من الشوك ينغرس فى فخذيك وفى ....!! ويطير بك الحمار قافزاً الترع والبحار ، ويتخذك لهوه طوال الليل ، فلا تعود إلى أهلك إلا كتلة باردة « ملبوسة» بالعفريت !! لكن هذه الحالة الحميرية - لكثرة تكرارها - وجد لها الفلاح حلاً ، هو أن يحمل معه مطواة أو «ميبر» - أى الإبرة الكبيرة التى يحاك بها الغبيط - وبمجرد أن يقفز على ظهر الحمار العفريت يغرس هذا الميبر فى قفاه ، فيفقد خصائصه العفريتيه ويتحول إلى حمار مستأنس مطيع : يتحدث إليك ، وإذا اقتربت به من الكلاب والأضواء رجاك أن تطلق سراحه لأنه

يخشاها.. ثم لا يظهر لك بعدها أبداً !! ومن فعلوا هذه الفعله البشرية التى تفوقت على العفاريت كثيرون جداً ، وكلهم من الأموات الذين لم ترهم ، ولا تستطيع أن تسألهم .!!!

ومن الكلاسيكيات العفريتيه الحميرية أن « الواد روبى ابن اسماعيل فرج» كان يعتزم رى حقله فجراً ، فنام مبكرا فى منزله ليستيقظ قبيل الفجر ويذهب الى الغيط لريها . واتفق مع « محمد احمد شعبان » أن يأتى إليه ويوقظه فى التوقيت المطلوب .. وبعد استغراقه فى النوم طرق الباب وفتح «روبى» فرأى «محمد» يستحثه على سرعه مغادره المنزل إلى الحقل لأن الفجر قد بص بعينيه.. فخرج روبى ومعه محمد على سبيل الونس .. ولأن الشتاء كان قارص البرودة فقد جمع روبى حطبا وبعض كيزان الذره ليشويها ويأكل مع محمد ويتدفأ كلاهما.. وأثناء الدردشه فى أمور الدنيا ، وهما يمدان أيديهما إلى النار لاقتباس الدفء رفع « محمد» رجله ليدفأها أيضا . ووقعت عين روبى على رجل محمد فما هى برجل آدمية ولا تشبهها إنما كانت رجل حمار بحافر وشعر !! فصرخ روبى وأدرك أن العفريت قد خدعه ، وهب جريا إلى داره ليكمل رحلة النوم !!!

وبعد أن استرخى جسد روبى على الفرن وأحكم لف الغبيط على جسده ، ونام .. سمع طرقا على الباب فهب وفتح ، فإذا محمد احمد شعبان أمامه يوبخه على تأخره كل هذا الوقت عن رى أرضه وقد أذن الفجر وأوشكت الشمس على البزوغ .. فحمل روبى فأسه بسرعه ، وخرج مع محمد .. لكن لسعه البرد لم ترحمهما فجمع حطبا ، واشعل نارا ومد يديه يتدفأ وهو يحدث محمد عن هذا المقلب الذى أوقعه فيه العفريت فتلبس شكله وحين نظر إلى رجله وجدها رجل حمار .. فرفع محمد رجله وقال له أكانت رجل العفريت مثل هذه ؟ !! فإذا بها نفس رجل الحمار التى رآها منذ ساعه !! فبصق فى عبه وجرى إلى داره

ورفض أن يفتح بابه حتى أذنت الديوك ، واستيقظت البنت « مكاسب» زوجته لتجده منفوخ الجسد من الرعب !!!

هذه الحكاية تروى فى كل أقاليم مصر الزراعية تقريبا .. لكن بطلها فى الفيوم « روبى» وفى المنوفيه « متولى زهران» و«ابراهيم عبد المنعم» وفى اسيوط محمد كيلانى ، وفى سوهاج محمود الطهطاوى ، وفى المنيا محمود مطر وسيد حسين، وفى الشرقيه أمير أباظه ومحمود كريم والسيد المخزنجى، وفى كفر الشيخ احمد الشامى ، وفى قنا محمد جبريل ......!!

أما حكايات أمنا الغولة ، وست الحسن والجمال ، والشاطر حسن فقد انقرضت جميعا بعد أن تحولت أمنا الغوله إلى « أمنا أمريكا » وست الحسن والجمال إلى ليلى علوى وعزة الشباسى وحنان الصناديدى وسعديه بنت عب سميع ، وأصبح الشاطر حسن : الخائب حسن .!!!





مره واحد صعيدى ......!!

أصبحت النكتة وأخواتها هذا الزمان سهام الضعفاء ، ودواء الفقراء الذين لا يملكون قوة يدفعون بها عن أنفسهم ظلما ، ولا مالاً يقيمون به أوداً فاستخفوا بكل ما هو مستقر ثابت لأن الثبات معناه بقاؤهم فى الحضيض . وسخروا من أنفسهم علّهم يتحركون وينافحون الأقوياء عن حرماتهم وقوتهم ، فانتشرت النكتة السياسية التى تسخر من الحكام وأولى الأمر - وأفرد لها كاتب جيد مثل عادل حموده مؤلفاً كاملاً - وتدفقت النكتة الاجتماعية ، والنكات الإقليمية التى « تُدبّج للصعايدة » مبتدئة بعبارة :« مره واحد صعيدى » واصفة طرائق تعاملهم مع وسائل المدنية الحديثة وخاصة حينما يقبلون على القاهرة . ورغم أن هذه السخريه من الصعايده توحى بالحط من شأنهم ، فإنها تلمحّ من بعيد بهذا الاضطهاد الذى يعانونه فى قراهم ونجوعهم من البيئه الخشنة الجافة ، ومن فقدان الرعاية الحديثة وعدم الاهتمام بمساواتهم مع مواطنى المدينة ، فيصطدمون بهم وبطرق حياتهم المتطوره عنهم بعض الشئ .

وربما تتناول النكته بعض السمات التى يظن الناس أنها ملتصقه ببعض الأقاليم كالبخل الدمياطى والدهاء المنوفى والفهلوه الإسكندرانية و« الهجس » البورسعيدى وتصاغ كل منها فى الأداء اللهجى المناسب للإقليم الذى تصور طبائعه .. وليس مستبعدا مثلا أن يؤلف صعيدى نكاتا على الصعايدة . ويقال إن

مواطنى المنيا دعوا (منولوجستا) لإحياء حفله ، وكان صعيديا ومشهورا رغم ذلك بالسخرية من الصعايدة .. وبعد الحفل ربطوه فى نخله ، وقدموا له مؤخر أجره لطمات وبصقات وشلاليت !! فتحولت العباره التقليدية بعد ذلك على لسانه من « مره واحد صعيدى» إلى « واحد بلدينا » !!

ونشأ فى السنوات الأخيرة عنصر إضحاك جديد هو (الفزورة) التى تقوم على سؤال مركز واجابه اكثر تركيزاً باللهجة العامية وبعيدة كل البعد عن المنطق والإجابه المتوقعه .. من هذه الفوازير :

– إيه الفرق بين الفيل والنملة ؟

– إن الفيل رجله بتنمل ، لكن النمله رجلها ما بتفيلش .!!

– إيه الفرق بين الليمونه والزيتونه ؟

– إن الليمونه ممكن تنعمل لامونانه ، لكن الزيتونه ما تتعملش زيتونانه .!!

– ليه النمله بتذاكر فوق الشجرة ؟

– عشان بتحضر دراسات عليا !!

– ذهبت النملة مع عرسها الفيل إلى المأذون لإتمام عقد الزواج ، مالت النمله هامسة فى أذن المأذون .. فماذا قالت له ؟!

– أرجوك انقذ الفيل اللى فى بطنى .!!

....

– شئ أزرق مرق من أمام عينيك .. فما هو ؟

– ذبابه تلبس بنطلونها الجينز !!

....

– شئ أبيض يجرى على الأرض .. فما هو ؟

– صرصار يذهب لأداء الحج .. !!

....

– دخان أبيض يجرى على الأرض .. فما هو ؟

– صرصار يركب موتسيكله !!

....

– ليه الصعيدى لما بيدخل الحمام يسيب الباب مفتوح ؟

– عشان ما حدش يبص عليه من خرم الباب !!

★ ★ ★

وربما كان التلميح الجنسى دافعاً للإضحاك .. لكن هذا النوع من الضحك يدور فى إطار شبه سرى ، أى لا يذاع فى إذاعة ، ولا يسجل فى شرائط كاسيت ، ويتعفف الابن أن يقوله أمام الأب أو يسمعه منه .. ولكن النساء يضعن رءوسهن فى رءوس بعضهن ، ويفيض كبتهن فى مجتمعنا بحاراً من هذه التلميحات ، وكذا يفعل الرجال فيما بينهم .. وهذه الحاله من السريه تعد تسرية عن النفوس ، وبديلا للممارسة الصحية للعلاقات بين الرجل والمرأة .. وكلما كان المجتمع أكثر انغلاقا فى هذه الوجهة كانت النكته الجنسية أكثر فيضا وسفوراً .. وقد تكون بذيئه ، وربما تخفت فى الألفاظ والتعبيرات العادية ، لكنها مشحونه برغبه وأبعاد يفهمها المتلقى كما يفهمها الملقى .

من هذه الابتسامات الجنسية الوقور أن فتاه وقفت فى البلكونه .. وانتظرت الواد بتاعها .. ولما جه نده لها بكلاكس العربية : انزلى .. قالت له : أحسن بابا

يشوفنى ، فشخط فيها : انزلى .. راحت نازله .. وقال لها : ادخلى العربية .. فقالت : لحسن بابا يشوفنى . قال لها : ادخلى . دخلت .. ولما وصل لحد بيته وقالها : ادخلى قالت : لحسن بابا يشوفنى . فقالها : ادخلى . راحت داخلة ففتح حجره النوم وقال لها : ادخلى . قالت : لحسن بابا يشوفنى . فقال : ادخلى .. راحت داخله .

فدخّلها وقفل الباب بتاع أوضه النوم كويس ، وطفى النور ، وقال لها ضاحكا : ها ها ها .. شوفى ساعتى بتنور فى الضلمه ازاى ؟؟!!!

★ لما عرف الراجل من الجيران إن مراته بتخونه ، وقف فى الضلمه تحت بير السلم .. ولما جه الراجل اللى كان عند مراته ينزل طلع له الزوج فى الضلمه وقال له : (بخ) .. فاتخض الراجل . فقال له الزوج : كل يوم من ده !!!

والسخريه هنا – رغم التلميح الجنسى – من الرجال المخوخين أزواجاً وغير أزواج .. وإذا كان الصعايده يحظون بقدر « محترم» من السخرية فإن الذين ينافسونهم فى هذه السخرية هم « عيال» مصر الجديدة والزمالك « المايصين» المدللين المائعين .

★ ★ ★

ومما يقال عن الصعايدة : مرة واحد صعيدى اشترى عربيه بيجو عشان يشتغل عليها – وبعد ما شحنها بالركاب بدأ يسوق بنفسه . فزاد من سرعه العربيه فاتفزع الركاب ، فقال له واحد منهم : حاسب يا اسطى شويه .. فقال له الصعيدى : ع تفهم فى البيجو ؟ فقال له : لأ .. فقال له : يبقى تسكت . وزاد السرعه أكثر . وبعد فترة قال واحد من الركاب : حاسب شويه يا اسطى . فقال له الصعيدى : ع تفهم فى البيجو ؟ فقال له : لأ .. فقال له الصعيدى : يبقى

تسكت ، وبعد فتره زادت سرعه العربيه جدا ، فصرخ الركاب بخوف ، وقال واحد منهم للسواق : ما تحاسب شويه يا اسطى .. فقال له الصعيدى : ع تفهم فى البيجو ؟ فقال له الراكب : أيوه .. فقال الصعيدى: طب تعالى والنبى وقفها عشان أنا م بافهمش فى البيجو !!

★واحد صعيدى نزل مصر ، ووقف يتفرج على الساعه اللى فى ميدان العتبه . فشافه حرامى وسأله : عايز تشترى الساعه دى ؟؟ قال له : يا ريت . فأخذ منه الفلوس ، وقال له : استنى بقه لما اروح اجيب سلم عشان أديها لك ، ومشى وسابه .. فرجع الصعيدى للبلد وقال لواحد صاحبه ، فقال له : انا حانزل مصر وانتقم لك .. ونزل مصر ، ووقف جنب الساعه ، فشافه الحرامى وسأله : عايز تشتريها ؟ فقال له يا ريت .. وخد منه الحرامى الفلوس .. وقال له : استنى بقه لما أروح اجيب سلم عشان انزّل لك الساعه . فرد الصعيدى : استنى انت هنا ، هو أنا عبيط ، أنا اللى ع اروح اجيب السلم .!!

وإذا كانت السخرية من بلدياتنا الصعايده تركز على توهّم سذاجتهم ، واستغلال هذه السذاجه كعيب عقلى ، فإن السخرية لم تترك العيوب الخلقية الأخرى كالطول الفارع والقصر الظاهر والسمنه الزائده والنحافه المفرطه .. وفى النحافه مثلا يقال : واحد رفيع اشترى قماشه مألمه ، فصلها على قلم واحد !!

★رفيع يبص من خرم الباب بعينيه الاتنين !!

★ومن حكايا القرع .. يقال : واحد أقرع عنده شعرتين بس فى دماغه .. راح للحلاق قال له : اعملى تسريحه حلوه .. قام الحلاق وهو ماسك المقص غصب عنه قص شعر ايه من الاتنين .. فبص له الراجل وقال : شاطر .. قصيت شعره وفاضل شعره .. طب لو سمحت افرقها لى من النص .!!

وربما اتكأت الضحكه على البعد اللغوى ، بهذا النوع من الجناس كأن يقال : كان الرجل يمشى حزينا جداً ، وكان يبكى فى الطريق . فقابله رجل آخر

وسأله :إيه ؟ فيه إيه ؟ مالك ؟ فرد قائلا : يا أخى الدنيا دى كلها مآسى .. فقال له الرجل : ليه .. هو انت مآسك كام ؟!!

وقد تخرج النكته عن كل هذه العباءات ، وتبعد عن السياسه والجنس واللغه والسخرية من الصعايدة والدمايطه لتصلح (نكته بيضاء) تبغى الاضحاك والاقناع النفسى وإذا استخفت – أحيانا – فهى تستخف بالهروب من الواجب ، أى سخريه الانسان من نفسه . فمثلا : مدرس فى الفتره الصباحيه سأل تلميذه : قول يا ولد مين اللى قتل سليمان الحلبى ؟ فرد التلميذ : والله ما أنا يا بيه .. تلاقيه واحد من ولاد الكلب بتوع الضهر . !!

★ واحد راح للحلاق عشان يحلق دقنه ، وكان الموس تلم .. وكل ما ييجى يمشيه على وشه يتعور ، فيحط له على التعويرة قطنه .. وبعد شويه بص الراجل لنفسه فى المرايه فلقى الجنب الشمال كله قطن . فبص للحلاق وقال له : انت زرعتلى الفدان ده قطن ، ازرعلى بقى التانى ذره !!!

★ المدرس : لماذا تأخرت ؟

التلميذ : بسبب اللافته !

المدرس : أى لافته ؟

التلميذ : لا فتة تقول : تمهل .. أمامك مدرسة !!!

★ الدكتور : ماذا تأكل فى الغداء ؟

المريض : لا تكلف نفسك يا دكتور .. هات ما عندك !!

★كان الرجل متعبا فجلس داخل سيارته ، وراح فى سبات عميق وبعد ربع ساعه سمع صوتا يدق على زجاج النافذة ففتح عينيه ونظر الى الرجل الذى قال له : من فضلك كم الساعه الآن ؟ فرد الرجل بضيق : الثالثه وربع وبعد ربع

ساعه استيقظ من نومه على صوت يد امرأة تطرق زجاجة النافذة فالتفت إليها . فقالت : من فضلك كم الساعه الآن ؟! فرد بغيظ : الثالثه والنصف وبعدها بربع ساعه أخرى تكرر الموقف ، فكتب ورقه يقول فيها : «ليس معى ساعه» ولصقها على زجاج النافذه . وبعد قليل سمع صوت شخص يدق النافذة فصاح بدهشة : ماذا تريد ؟ فرأى رجلاً يقول له : الساعة الآن الرابعة تماما !!

وأكثر هذه التسالى تركيزاً ، وأقلها شيوعاً لقلة مادتها هو هذا النوع من المفارقة حين يقولون مثلا : واحد سودانى ماشى .. فوقع .. اتقشر !!واحد صينى ماشى .. وقع ... اتكسر !!

★ ★ ★

ومن الملاحظ أن هذه المضحكات بسائر أنواعها موزعة – فى صياغتها – ما بين اللغه الفصحى واللهجة – أو اللهجات – العاميه .. لكن العاميه هى الغالبه. لأن تأليف النكات والمواقف الضاحكة .. ليس مقصورا على المثقفين ، بل ربما خرج بالفطرة من أفواه الأميين ، ولأنه فى معظمه يلقى شفاها ليس مكتوبا لكن بعد انتشار وسائل التوصيل المكتوبه (الصحف) أصبح هناك من يؤلف لتنشر هذه الأعمال مكتوبة ، وهناك من يلتقط العاميه ويهذبها لينشرها قريبة من الفصحى .

هذا مع النظر إلى أن الهوة ليست كبيرة بين عامية هذه المضحكات ولغتنا الفصحى .. فمثلا حين تقول الجارة لجارتها البخيلة : لو سمحتى سلفينى ميه جرام سكر.. الجارة البخيلة : كان على عينى.. لكن للأسف ما عنديش ميزان !! نرى إعادة كتابتها فصيحة هكذا :

– لو سمحتِ(تسمحين) سلفينى مائه جرام سكر .

– كان على عينى، لكن للأسف ما عندى(ليس عندى) ميزان !!

فلفظة (مائة) تخفف إلى (مايه) .. ومعروف أنها تنطق – سواء بالنبر أو بدونه – بغير الألف . وتكتب أحيانا (مئة) فتخفف إلى (مية) وحدث تشديد لحرف الياء ، فاضحت فى العامية (ميّه) .. ولفظة (سمحتى) الياء الأخيرة فيها إشباع للكسرة تحت التاء ، ولا تظهر إلا فى الكتابة .. وأصل التعبير (ما عنديش) هو (ما عندى شئ) وحذفت الهمزة الأخيرة مع إلحاق الشين بياء (عندى) وتعبير (كان على عينى) من التركيبات المستحدثه التى لا تتنافى مع الفصاحة ، واعتادها الذوق ، ومفرداتها جميعا فصحى ، وإن كان يجرى عليها التسكين – وخاصة على كا ن وهو شائع فى العاميات .

وهذا مثل آخر : « كان فيه فلاح فقير قوى ، وكل يوم يقعد يصلى طول الليل ، ويدعى لربنا ، ويقول : يارب ابعت لى جاموسه والنبى يا رب !!

وفضل يعمل كده شهر : كل يوم يسهر طول الليل يصلى ويدعى لربنا ويقول : يا رب أنا عايز جاموسة .. وبعد شهر صحى من النوم الصبح لقى حمار واقف جنبه . فقال : ليه كده يا رب ؟ ! إنت مش عارف الحمار من الجاموسة ؟!!»

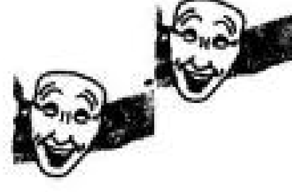
فنرى هنا الألفاظ كلها فصيحة ، لكن تركيب العبارة حدث له بعض التغييرات .. فسكنْت الالفاظ (شهر) بدلاً من (شهراً) ، (حمار واقف) بدلاً من (حماراً واقفاً) .. وتغيرت دلائل الألفاظ فحلت محل ألفاظ أخرى ، فقيل مثلا : كان فيه فلاح فقير قوى .. والفصحى : كان هناك فلاح فقير جداً .. وعبارة (فيه) هنا – وهى كثيرة الاستعمال فى مثل هذه الصيغ – تعنى : فى هذا المكان ، أو الزمان .. ولفظة (كده) هى (كذا) أو (هكذا) ، (ابعت) تحولت الثاء إلى تاء ، وهى قريبة منها فى المخرج ، (يدعى) بدلاً من(يدعو) ، (عايز) أصلها : عاز يعوز وعائز وأعوز ويعوزنى ..(صحى) تحولت الألف إلى

ياء والأصل (صحا) ، والتركيب (ليه) ربما جاء من عبارة : لمَ هذا ؟؟ فحذفت الميم من (لمَ) وأشبعتْ كسره اللام مع دمج الحرف الأول من هذا بها.. والتركيب : مش عارف، منحوت من العبارة : ما شيئا تعرفه ؟! فتحولت فتحه (ما) الطويلة إلى ضمة ، والشين من(شئ) وحذفت بقية العبارة ولفظة (فضل) حلت محل (ظل) وفى هذه النكته نرى لوازم زائدة فى العبارة العامية كقولهم : وكل يوم يقعد يصلى .. فـ « يقعد» هذه . زائدة .. وحدث بعض التغيير فى عبارة (بجانبه) فانتقلت إلى (جانبه) ثم حذفت الألف أيضا .

هكذا يبدو الكثير من العبارات الضاحكه تقف على الحد الأوسط بين اللغه الفصحى واللهجه العامية لأنها تصاغ لجميع الثقافات والطبقات والمجتمعات .. وتجمع ما فرقته السياسه ، وصراعات الحياة ، ورغيف الخبز .



مضحكو هذا الزمان



محاولة .. لنقد الكاريكاتير

قد تتوقف عيناك مندهشتين ، وتقفز من شفتيك قهقهة عاليه أو بسمه مختلسة ، وأنت ترى أحد رسوم الكاريكاتير .. وإذا سألتك : لماذا تضحك ؟! فربما لا تقول إلا : إنه رسم جميل .. وإذا استطردت ستشرح ما وراءه من أبعاد وأفكار ، وقدرته على معالجة قضية ما تخصك أنت .. ثم تصمت كأنك قد أجبت عن السؤال كل الإجابه . والحق أنك أجبت بعض الإجابه فقط ، وتحدثت بتعبيرات انطباعية ذاتية ، قد تختلف من شخص لآخر حسب ثقافته وعمره وانتمائه الاجتماعي والاقتصادى ، وحسب جنسيته أيضا .

فحينما يصور رسام زحام المواصلات فى القاهرة فأنت تتنفس الصعداء بارتياح وتبتسم بصدق لأنه عبر - بسخرية - عن همّ مكنون بدا خلك ، إذا كنت مصريا وقاهرياً على وجه التخصيص .. أما إذا رأى مواطن سويدى هذا الرسم فلربما يتعاطف مع هؤلاء القوم « المتخلفين» الذين هم نحن !! وقد ينظر إلى الرسم باستخفاف وسخرية من البيئة التى أنتجته ، ولكنه - غالبا - لن يبتسم ، لأن الأمر لا يهمه قدر اهتمامه بقضية الانتحار وشيوعها مثلا ، أو أيه قضية تعدّ إفرازاً طبيعياً لبيئة هذا السويدى .

والأمر كذلك بالنسبة لصغير السن الذى « ينبسط» وتستهويه السخرية من الآباء و« رجعيتهم» فى وقت ينفر فيه الآباء من نفس الرسم الذى يصور هذه

الحالة ومن المؤكد أن الزوجات النكديات كنْ شديدات الحنق على محمد حاكم وهو يسخر منهن فى بعض رسوماته التى تضحك الآخرين وقد يكون رصيد الدعاء على مصطفى حسين من المغنين بالعى الضفدع والكثيرين من المغنين الشباب ، قد يكون هذا الرصيد قد تجاوز فى ثقله رصيد أمريكا من الذهب !!

فالأحكام على فن الكاريكاتير ذاتيه ، أى أنها تأخذ من (النقد) هامشا ضئيلا، هو الانطباع .. أما التقييم العلمى المقنن فهو غائب عن هذا الفن الذى أضحى يحتل موقعاً رفيعاً بين فنون الإضحاك القديمة والحديثة .

وعلى الرغم من أنه « فن » كالشعر ، والمسرح ، والقصة فهو لم يحظ بنظرية لنقده ، رغم أن نقد سائر الفنون التشكيلية الأخرى كالتصوير والنحت أضحى أمراً محسوماً ، وله مدارسه واتجاهاته وأئمته .. وحين سألت الفنان زهدى عن إمكانات إنتاج نظرية لنقد الكاريكاتير قال : بمكنكم أنتم كأدباء – تجيدون التنظير والكلام – أن تفعلوا هذا .. أما نحن فلنا الإبداع .

وإذا كان الحكم على هذا الفن – كغيره – لا يخلو من الذاتيه فإننى حاولت مزج هذه الذاتية – أو ذوقى الخاص – بشئ من الموضوعية والتقنين لاستنباط مرتكزات واضحة الحدود للحكم على رسم الكاريكاتير ومقارنته بغيره ..وربما أكون قد أصبت بعض الإصابة أو فشلت بعض الفشل ، لكنه فى كل حال الاجتهاد الذى لا يستقر إلا بمتابعته وتقييمه – هو أيضا – من آخرين لينتهى الحوار حول هذا الموضع بنظرية أو نظريات لنقد الكاريكاتير .

ماذا إذن تكون إجابتى لو طرحت أنت على السؤال الذى طرحته أنا منذ بدء هذا الكلام ؟! أى ما رأيى فى هذا الرسم أو ذاك ؟!

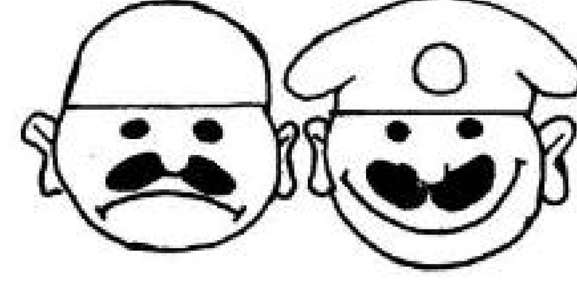
إن لى زوايا سأنظر منها ، ورؤية سأكشف بها قيمة عمل من هذا القبيل ، وثقله فى موازنته بعمل غيره .. وأول ما يستوقفنى بإعجاب فى هذا الإطار هو

ندرة التعليق أو انعدامه على العمل المرسوم .. فتبدو الخطوط لغة كاملة مستقلة بذاتها .. وسوف تكون حينها لغة الناس جميعا : علماء وأميين ، شرقيين وغربيين ، غير مستعينة بفن آخر - كالبلاغه مثلا - فى توصيل الموقف وإضاءته بقوة .

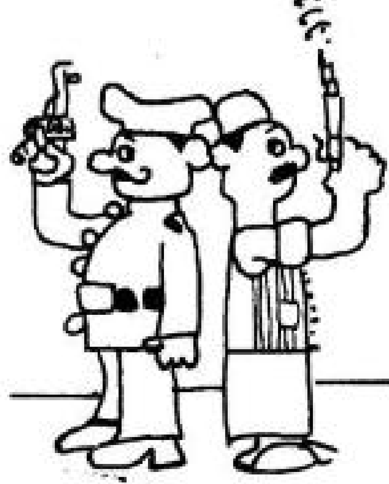
وهذه خمسة نماذج للفنان بهجت، لا تحمل ثلاثه منها (أرقام ١، ٢، ٣) ولو حرفا واحداً . لكن يكاد يكون كل منها ملخص تاريخ طويل من الاضطهاد والظلم .. ثم نرى رسمين اثنين احتوى كلاهما على كلمه واحدة .. لكن اللغة أحيانا تفرض سيطرتها ، فيتعامل معها الفنان فى تركيز وإحكام فتفوز بالبطولة أمام الخط فى هذا الرسم (رقم٦) لبهجت أيضا



(١)



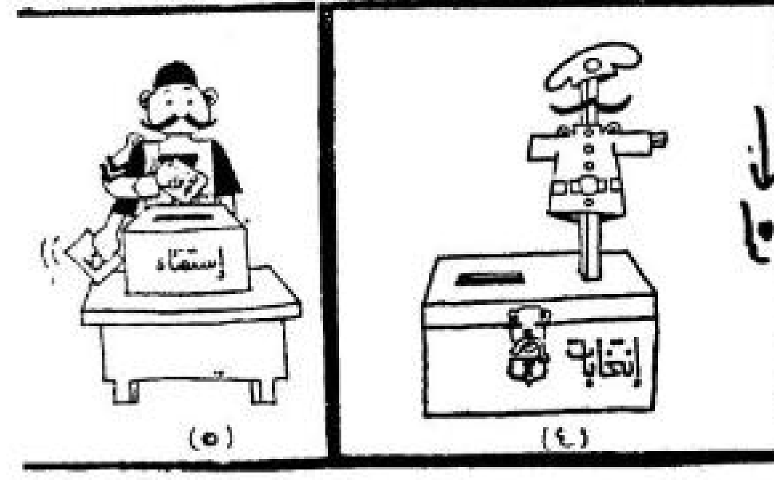
(٢)



(٣)

وقد لا تغنى الكلمة عن الخط ، ولا الخط عن الكلمة .. فإذا رفعت أحدهما أصبح الآخر عديم المعنى تقريبا .. ففى مجلس وزراء بهجاتيا (رقم٧) يكاد الرسم يفقد قيمته إذا رفعنا التعريف الذى أعلاه ولا قيمة للتعريف بغير هذا الرسم الذى يؤكد أن مجلس وزراء بهجاتيا مجرد « بلاليص » بلا عقول ولا ملامح ، وأن الديكتاتور بهجاتوس هو فى الحقيقة مجلس وزرائه أيضا !!

على طرف نقيض من هذه الميزه نرى كثرة الكلام عيباً ، حيث يبدو الرسم مصنوعا كرسم توضيحى فقط ، وليس حاملاً معنى فى ذاته . ويمكن حينها الاستغناء عنه والاكتفاء بالتعليق وحده ، أو على الأقل – تفهم أبعاد الكلام



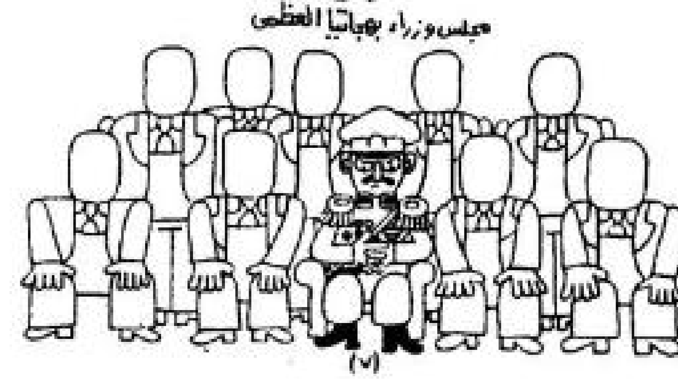
(٥) (٤)

بغير رسومات .. كهذا الكاريكاتير (رقم٨) للفنان رءوف عبده فلا يكاد المشاهد يرى أثراً لهذا الموظف « المرمى » على سريره يسمع الإذاعة وقد علق الرسام فوق رأسه عبارة طويلة تمثل عبئا على الصورة ، كما تمثل الديون نفسها عبئا على الموظف !! ثم ما أدرانا أنه « موظف » من خلال الرسم هذا ؟! أى الملامح وضعها الرسام ليكون الرجل هذا موظفاً ؟! إنها النية فقط التى شاءت أن تكون الصورة لموظف ، كنية الشاعر الذى يخطىء تبيان غرضه ، فيعوض عجزه بشرح قصيدته ذاكراً أنه كان يقصد كذا !! وفى هذا المجال الأعمال ليست بالنيات !!

وللفنان حجازى رسمان متجاوران : أولهما (رقم٩) يتقاسم البطولة فيه الصورة والكلمه بشكل متزن وفى الثانى (رقم ١٠) يمكن الاستغناء عن الخطوط جميعا ، والاكتفاء بالكلام فقط .. ودليل الاستغناء عن صورة ما – إضافة للمعنى الكامل الذى يعطيه الكلام – هو إمكانية استبدالها بأخرى ولا يحدث خلل ما .. ففى الصورة (رقم ١٠) يجلس رجل وامـــرأة

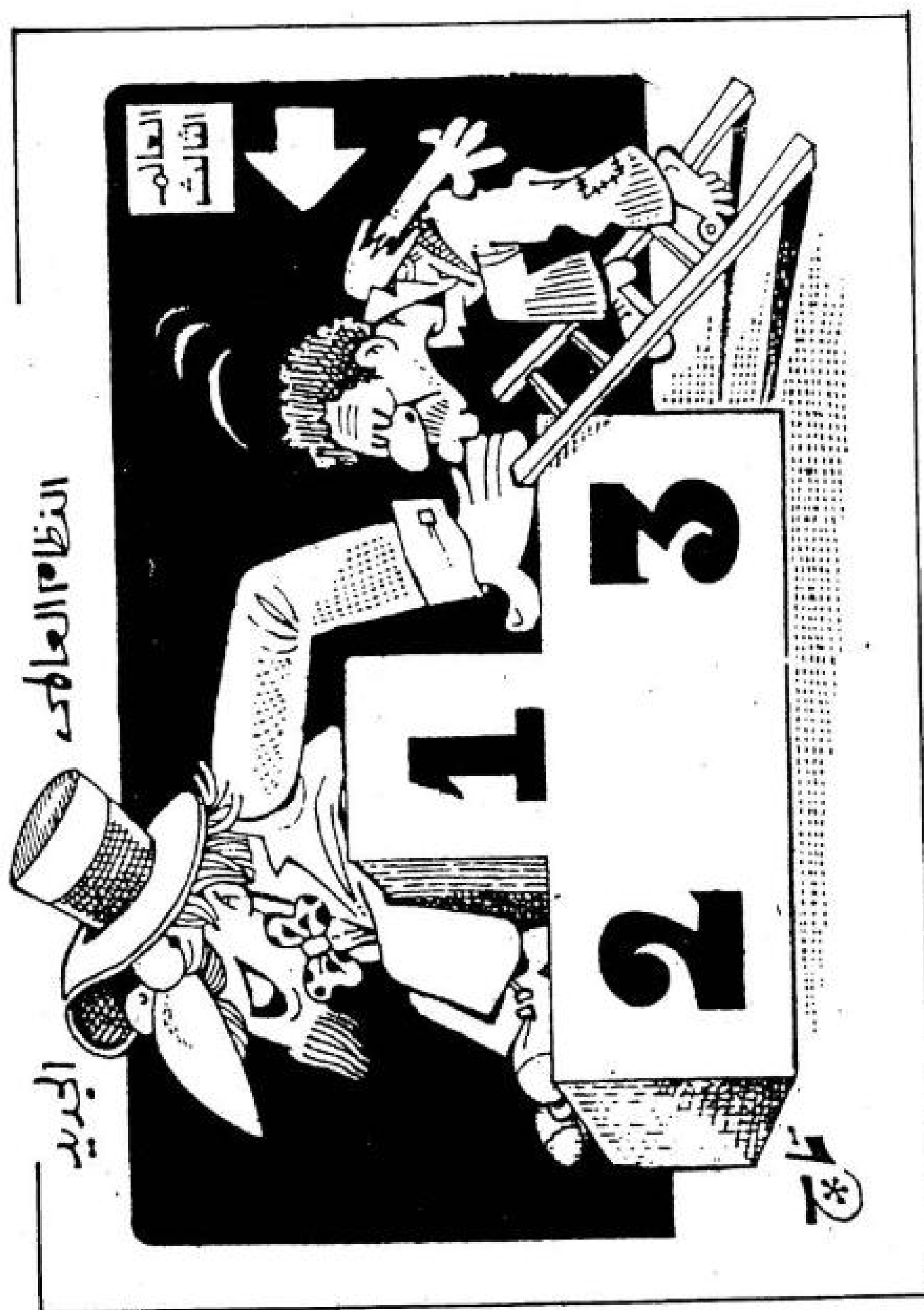


(٦)



(٧)

(زوجته مثلا) فى المنزل يشاهدان التليفزيون الذى يتحدث عن كثره الانجازات الحكوميه .. ويمكن هنا استبدال جميع الصور بغيرها .. فبدل التليفزيون يمكن رسم «راديو» أو جريدة ستؤدى الغرض نفسه .. وبدل الرجل وزوجته يمكن أن يُرسم شاب وفتاه أو أم وابنها ، أو اثنان من الموظفين فى مكتبهما .!!


النظام العالمى الجديد
1
2
3

دافعا للتأمل والخوف ، أو التفاؤل أ والتشاؤم .. هو – ككل فن – يحاول خلق نفسية جديدة غير التى كان عليها الإنسان قبل مطالعته .. ذلك رغم أن الإضحـاك فى فن الكاريكاتيـر داخل فى صميم طبيعته ، ولا يتنافى مع أبعاده الفكرية والاجتماعية .. وأعظم الفن ما يضحك الإنسان حتى البكاء أو يبكيه حتى الضحك .!!



علشان ضغط النفقات حايعملوا وزاره واحده اللى هى وزارة الهجره . و يبعتوا الشعب يلقط رزقه بره و يجيب عملة صعبه!!

(١١)

★ ★ ★

ثم يأتى عنصر الإبهار أو الإدهاش ميزة بارزة من ميزات رسم على آخر .. والفن بعامة يبدو أكثر تأثيرا واقتحاما للنفوس إذا حمل لها مالاتوقعه ، فتنبهر به ، وتنشط له عواطفها ، وتحيد عقلها لتلقيه بالقلب متأثرة مسلمة بما يحمله هذا الفن المبهر .. حتى إن الناقد يضطر لأكثر من قراءة للعمل الإبداعى – شعراً أو نثراً أو لوحة تشكيليه حتى يتخلص مما وقع فيه من إبهار حيد عقله عن الحكم الهادئ الموضوعى .

ففى قضية مثل المفاوضات بين صندوق النقد الدولى وحكومة مصر عبر كثيرون من رسامى الكاريكاتير عن تسليم الحكومه بشروط الصندوق بعدة طرائق

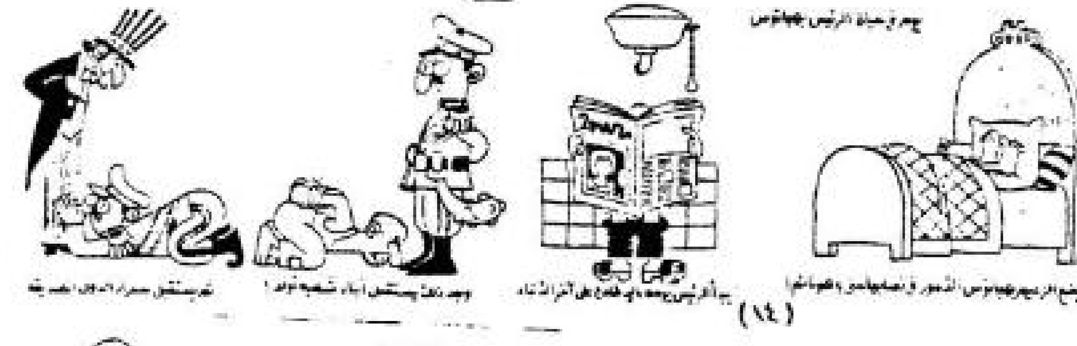
.. لكن الفنان عـمـرو سليم لم يقف عند حد تصوير تفاوض بين طرفين أحدهمـا يمتثل لرؤية الآخر ، بل اندمجا معاً وانمحت شخصية أحدهما لمصلحة الآخر (رقم ١٣) . فقد تحول عقل المسئول إلى « صندوق» .. فأين ذهب عـقله إذن ؟! الله والحكومـة أعلم !!

(١٢)

(١٣)

وانظر هذا اليوم النادر المتفرد الذى لا يقع فى حيـاة إنسـان إلا(الرئيس بهجاتوس) أحد شخصيات الفنان بهـــجت والذى يلخص « فنون الديكتاتورية » بسائر أشكالها .. ففى هذا اليـوم (رقم ١٤) كل الأشيـاء مقلوبة رأساً على عقب .. ومهـمـا تخيلنا من جهل هذا (البهجاتوس) وغبائه وتسلطه وعمالته وفساده لن نستطيع رسم هذه الصـور الست التى صاغها له بهجت : ابتداء من نومه حتى بداية سهرته « على مصالح شعبه» !! مروراً بقراءة الصحف فى الحمام ، واستقبال أبناء شعبه « بكل ترحيب» واستقبال سفراء « الدول الصديقة » « بكل عزة وإباء » !! ثم التصرف فى شئون الرعية وأرزاقهم وحرياتهم وأعمارهم أيضا .!! إنه الإبهار العظيم فى الرسم .!!

ثم ننبهر ببهجت أيضا وهو يقدم فكرة جديدة عن « موضة» انهيار العمارات الحديثه فى مصر (رقم ١٥) .. لكنه لا يرسم عمارة تتساقط ، بل يقدم رسماً هندسياً لعمارة ، والرسم يتساقط ويتناثر من فوق الورقه نفسها ، تأكيداً « لعبقرية » الهدم : هدم اللاشئ بعد أن انهدم كل شئ .!!





(١٤)

وإذا كانت الأفكار الطريفة المبتدعة عنصر جودة فى فن الكاريكاتير فإن هناك رسومات تفتقد إلى هذا الإبداع الذى يبهرنا ، فتراها كالخبز البائت «أبو خمسة قروش» !! لسطحية الفكرة وربما سذاجتها .. فالرسم رقم (١٦) للفنان محسن ماذا يحمل من فكرة أو موقف أو طرافة ؟!

لا شئ !! هو يذكر مثلا عاميا بشكل حرفى ، ثم « يرسم له » رسماً لا هو مضحك ولا هو باعث على التفكر أو التأمل ..



وكذلك الشأن بالنسبه لرسم الفنان نزيه (رقم١٧) الذى هو مجرد «ترجمه» بالخطوط لما يتهم به أحدنا غيره – إذا كان محشرح الصوت – بأنه « بالع ضفدعة» !! وترجم هذه العبارة بغير أى خيال ، فلم نرَ فيها إلا ما نتوقعه : مغن شاب ، طبيب ، ضفدعة !! فما هى الإضافة إذن ؟!

★ ★ ★

(١٥)

ونقف أمام عنصر جديد من عناصر الإجادة فى هذا الفن ، حينما يتسع أفق الرسام إلى مساحات إنسانية رحبة من الهموم والقضايا البشرية .. ويجيد التعبير عنها بالخط ، كقضايا :الخير والعدل والظلم والحب والخلود والكفاح من أجل الحرية ...

ففى الرسم (رقم ١٨) للفنان محمد حاكم يتجسد فقدان العدالة بين القوة والضعف فى حياتنا البشرية .. القوة يمثلها اسرائيلى يجلس إلى مائدة مفاوضات « السلام» وفى يده بندقيه !! ومع هذا ينادى الطرف الآخر « الضعيف» فى صيغة قسرية تهديدية بالجلوس إليه « ليتفاوضا » !!

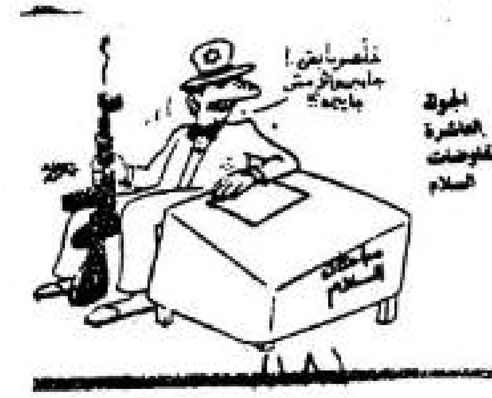
وفى موقف سياسى مشابه : المواجهة بين القوة الظالمة والضعف المظلوم يجسد الفنان مصطفى حسين هذا التناقض ، مضيفاً إليه « النفاق» الدولى (رقم١٩) من خلال هذا الاعتداء الصربى المنظم ، والدماء المسلمه التى يخوض فيها العنصريون الصرب بتواطؤ أو بصمت أو بمباركة مما يسمى « الشريعة الدولية » !!



(١٦)



(١٧)



(١٨)



(١٩)

ويلخص الفنان طوغان الموقف من هذه القضية ومن « الشرعية الدولية » فى رسم يكفى عن كتابة عدة مقالات (رقم ٢٠) .

وهذا ن الرسمان تأكيد للخط الحر الذى يتخذه فن الكاريكاتير بالتعبير عن الهموم والقضايا الإنسانية بصرف النظر عن هدف الإضحاك .. لكن الفنان محيى الدين اللباد يقودنا إلى الضحك المثقف ، فى الوقت الذى يعمق فيه

التعبير عن فكرة العنف ، ويستقصى جذورها وأبعادها (رقم ٢١) ، فلا يراها مقصورة على مواجهة الآخر والعدوان على حياته ، بل هى عدوان على النفس



(٢٠)

أيضا .. والنفس هنا ليست فرداً ، بل هى الإنسانيه كلها التى تسير خطواتها حثيثا نحو العنف إلى حد قتل الذات لأتفه سبب .. ويبدو الغباء سيداً دافعاً لهذا العنف غير المبرر .. منذ ثلاثين عاماً كان الإنسان ينظر للأمور بالمنظور الصحيح ، فيهش – مثلا – الذباب عن وجهه « بالمنشه » .. ثم تطور العلم



(٢١)

وفسد الذوق ، فراح يستخدم الغازات السامة أو « البيروسول» .. ولأن الذباب قادر على التكيف مع الظروف - ربما أكثر من قدره الإنسان نفسه كما يشير الرسم - فقد ظلت الذبابة ضيفاً على وجه هذا الشخص الذى رسمه اللباد مفتول العضلات ، ناقص المخ !!... ويستخدم فى المرحلة الثالثة السلاح « السكين» فى مواجهة من ؟! فى مواجهة ذبابة !! فإذا به يقطع بالسكين أنفه هو ، وتبقى الذبابه آمنه على الجزء المقطوع !! ولأن الذبابه تملك قوة إرادة أكبر من الإنسان، وعقلا أرقى من عقله !! فقد انتقلت - فى الآونه الأخيرة - من الجزء المبتور إلى الجزء الى الأصل .. وكان لابد للإنسان من التخلص من هذا الأصل : من نفسه !!

وقريب من ميزة احتواء الأفكار الإنسانية الكبرى ، الاتكاء على المضامين الخالدة ، التى لا تتزلزل قيمتها ولا تتزحزح بمرور الزمن ، ولا بتغير المواقع .. ففى الإبداع الأدبى ما زلنا نتداول - بإعجاب - ملحمة الإلياذة ، وملحمة الأوديسا ، وقصائد امرئ القيس ، وزهير ابن أبى سلمى ، وبشار بن برد ، وأبى نواس ، والمتنبى ، وشوقى ..... ومازلنا ننبهر بالأهرام ، وأبو الهول ، وقلعة صلاح الدين ، والمسجد الأموى ، ومسجد السلطان حسن ... هكذا يمكن أن يعجب القادمون بعدنا ، والبعيدون عنا بالأفكار والمضامين الخالدة لفن الكاريكاتير ، خاصة أنة مازال فناً فتياً لم يستنفد أغراضه - ولا أظنه سيستنفدها - وقد أنست به العيون ، وائتلفت معه المشاعر، وتحاورت معه العقول. ليس هذا الزمان فقط ، بل ابتداء من سلسلة الكاريكاتير الذهبية فى مصر : منذ المؤسسين الأجانب : سانتوس ، رفقى ، شوقى ، صاروخان ..

★ والرواد المصريين : رخا ، زهدى ،طوغان ، رمزى ، عبد السميع .

★ ثم الموجة الأولى : حسن حاكم ، صلاح جاهين ، بهجت ، حجازى ،

مصطفى حسين ، دياب ، اللباد ، محمد حاكم ، البهجورى ، إيهاب ، ناجى ، الليثى ، ماهر داود .

★ وتلتها الموجة الثانية: تاج، محسن، عادل البطراوى، رمسيس، عمر شعبان، رءوف عياد، رءوف عبده، عز العرب، جمعه، جودة، نزيه، محمد عمر.

★ وآخر هذه السلسلة المتدفقة بالإبداع من جيل الشباب : سمير ، عمرو سليم ، محمد عز الدين ، محمد عبد الحليم ، نبيل صادق ، نبيل السمالوطى، حسنى ، عمرو فهمى .

هذه المضامين الخالدة نرى نماذج لها حين يصور الرسام استحاله التقدم إذا كانت البيئه تفرخ فى أبنائها عدم المبالاة ، كما صور هذا الفنان تاج (رقم ٢٢) بتجسيد الإهمال والاستخفاف والاستهانة بكل شئ فى صورة لفظه (معلهش) التى أضحت كتلة حديد ضخمة تعجز الإنسان عن الحركة للأمام .. وكذا صور الفنان بهجت استحاله التقدم لأى شعب إذا لم تكن حكومته نابعة منه وتعبر عنه (رقم ٢٣)



(٢٢)

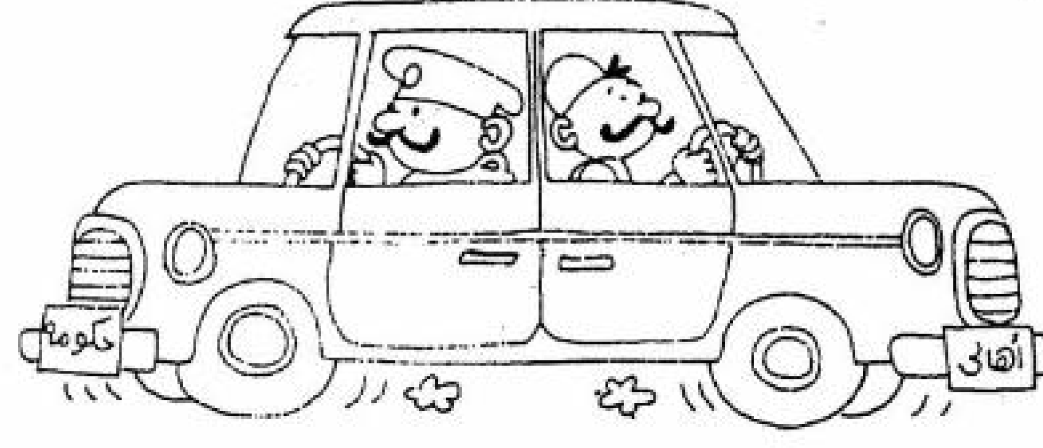
وتسير حسب رغبته ومصالحه لا فى الاتجاه المضاد ، الذى قد يؤدى يوماً ما إلى تمزق الوطن نفسه إلى قطعتين .!!

★ ★ ★

وإذا كان الكاريكاتير يستقى مادته من الواقع ، فإنه يعيد عجنها فى إناء خيالى من الخطوط ، ويعول على تجسيد المعنويات بطرائق طريفه فيها مبالغة تتجاوز رسوم الفنان التشكيلى –

المصور الواقعى على وجه التحديد – فالأنف قد يتضخم ليصبح خياره ، والجسم قد ينتفخ ليصبح كذلك الرجل الإقطاعى القديم برميلى الجسد الذى صوره دياب فى أكثر من عمل ، وهو محروس بخفير يشارك جسده « الخشبى» المشفوط فى تبيان نفخة ذلك الإقطاعى القديم !!

فالمبالغه مادة ضرورية وأحد أعمده هذا الفن الذى يحمله إلى ركنه الجمالى الخاص به ، بعيدا عن فروع الفنون التشكيلية الإخرى .. وعلو المبالغة يعطى للرسم الكاريكاتيرى قدرة أكبر على التعبير والتصوير ..



(٢٣)

فلننظر هذه المبالغة الطريفة التى ساقها بهجت فى « المهرجان الشعرى» فى بهجاتيا (رقم ٢٤) والتى صاغها بالخطوط والحروف معاً ، وكلّ أدى دوره وأضاف الى سواه ولا يمكن هنا الاستغناء عن الكلام أو اجتزاؤه لأنه « مهرجان شعر » أى كلام فى كلام فى كلام .. لكن الفنان جعله كلاماً فى كلام فى رسوم .!!

فى كتابته « لقصائد» الحب البهجاتوسية جاء كلامه موزوناً .. ولست أدرى أكتبه بهجت بنفسه أم استأجر « شاعر روبابكيا » ليكتبه له ؟!!

وهو فى الحالين حافل بالمبالغة التى تنتزع الضحكة المرة .



(٢٤)

أما فى الرسم فنرى « الانفعال » العظيم على وجوه الشعراء وهم يلقون فى لحظه واحدة «معلقاتهم» العبقريه !! ويتنافسون فى مدح ولى نعمتهم ، مالك الفلوس والنفوس .. والشاعر الأول يحمل الورقة فى يده – كورقة الكلينكس – وهى أطول منه .. ثم إن النفاق والمنافقين طريقهم واحد وطريقتهم واحدة : الثلاثه يرفعون الأيدى و«يفشخون» الأفواه عن آخرها ، ويرتدون الأحذيه « موضه قديمه » منذ أيام الجاهليه !!.. ثم يزداد طول ورقه : الكلينكس ليتقاسمها اثنان من المنافقين كل يقرأ من ناحية . فالنفاق شبيه ببعضه !! ثم نرى « تعاطفا جماعيا » من هذا الصنبور الذى أصبح منافقا كشعراء بهجاتوس ، وأصبح يَخُرُّ اسهم الطاغية بدلاً من المياه .!!

ولأن النفاق أحد المصائب الكبرى المعششة فى سماء الدول المتخلفة وأرضها ونفوس أبنائها ، فقد صوره المبدعون بسائر أجناسهم .. وهذا وجه آخر من وجوه النفاق عبر عنه الفنان تاج فى رسمه (رقم ٢٥) .. ولم ينس أن يصور الحقيقه على الوجه الآخر لتبدو المبالغة العالية والهوة الواسعة بين النفاق والواقع

★ ★ ★

ويؤخذ على الرسم الكاريكاتيرى أن يكون مجرد تصوير لنكتة من النكات ، أو قفشة أو تعبير شائع ، ولا يضيف رؤية جديدة ولا لمسه جماليه تزوّق الفكرة ..



(٢٥)



(٢٦)

ففى الرسم (رقم ٢٦) للفنان بهجت قائمة كلامية بالمآخذ على الحكم كان يمكن أن يقدمها بدون هذا الرسم التوضيحى للعسكرى الذى يرقص .!!

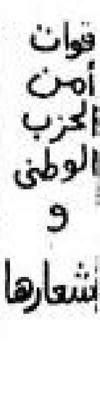
ويأخذ الفنان جمعه التعبير الشائع « فلان صيّف بدرى » كناية عن ترك موقعه أو منصبه ، أو إقالته منه .. فينسج حوله مجموعه من الوزراء ، وكأن المسأله لا تتجاوز الرغبه فى الرسم فقط !! ذلك فى رقم (٢٧) .

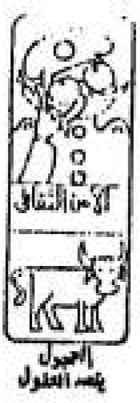


(٢٧)

وقريب من هذا المعنى فى المأخذ على الرسم الكاريكاتيرى رفع الشعارات وترديد العبارات «سابقه التجهيز » ، مما يقلل من طرافه الرسم وإضافته .. فالرسم (رقم ٢٨) لبهجت رغم أنه أجهد نفسه كثيراً فى تصويره ، فإنه لا يتعدى الجلوس على موائد اللغة، والتشبث بأهدابها. ولا فرق بينه –كرسم– وبين الرموز والتصميمات والشعارات المرسومة لأية هيئة أو مؤتمر أو منظمة أو علبة أدوية مثلا !! ثم إنه ما الفرق بين تصويره للأمن الغذائى والأمن الاقتصادى مثلا ؟ لا شئ سوى وجود ثغرتين فى نظاره الصورة الثانية !! وفى هذه الحالات يحاصر الرسام نفسه فى دائره مغلقه يصعب عليه كسرها والتحليق بخياله بعيداً عن قطرها .

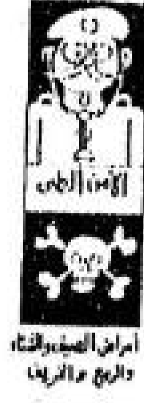
وكذلك يبدو الرسم متهافتاً حين يرغب بهجت فى الهجوم على « نائب» مؤنثه نايبه !! - فيشبهه « بالمنشار» مردداً القول الشائع « طالع واكل نازل واكل» ولا جديد فيما قال (رقم ٢٩) ولا فيما رسم هنا !!









(٢٨)

والنمط القديم من الشعر العربى (شعر المناسبات) يعيد تكراره بعض رسامى الكاريكاتير فى بعض أعمالهم .. وكأنهم ينتظرون الظروف والمناسبات لالتقاط رزقهم !! والعيب هنا هو الجرى وراء الأحداث لا المشاركة فى صنعها ، على اعتبار ان فنان الكاريكاتير مبدع ، يفكر لشعبه ويضىء له الطريق بتنبؤ اته الفنيه كالشاعر والقاص وغيرهما من المبدعين .. كما أن الارتباط بمناسبة - وخاصة إذا كانت محلية - تنزع عن الرسم سخونته فى المستقبل ، واحتمالات فهم الأجيال القادمه له والتعاطف معه .. وهو لن يصلح - بعد أن تتغير ظروف حياتنا - إلا كمادة تاريخية ، لا كإبداع فنى :


- ده حامى قوى زى القلب بتاعنا .. طالع واكل نازل واكل !

(٢٩)

فإذا كان واحد مختل عقليا قد ادعى أن تمثال رمسيس أو ميدان لاظوغلى أو القلعة أو مجمع التحرير ملك له ولأجداده فهل نظن السنين القادمة - بل



– حتى شوف بحضرة القاضي انا و . لاظوغلي .مفيش فرق في الملامح



– نفس السبب القضية دي في المجمع ، علشان الحجرة اوضى مفروشة للطلبة .

(٣٠)

والقرون القادمة – ستحتمل وجود مثل هؤلاء المتخلفين عقليا ليصورهم الفنان محسن فى كاريكاتير ؟! (رقم ٣٠) ..

سوف تتساءل الأجيال القادمة قائلة : هل هؤلاء بشر مثلنا ؟! وحينما يرون كاريكاتير محسن لن يضحكوا منه بل سيحيلونه إلى علماء الجيولوجيا !!

★ ★ ★

كل هذا الذى اجتهدنا فى استعراضه من ميزات ومآخذ على فن الكاريكاتير فى محاولة لنقده على مرتكزات محددة المعالم ، كل هذا يكاد ينحصر فى (المضمون) .. والمضمون وحده – رغم قيمته الكبرى – لا يكفى للحكم على الفن .. بل للشكل الذى يصاغ به هذا المضمون دور كبير فى التقييم والتقويم .

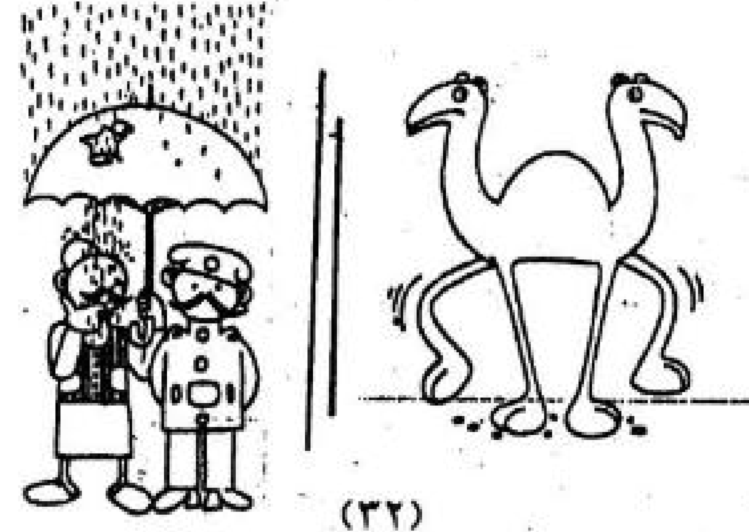
ومن ميزات الشكل فى هذا الفن بساطة الخطوط ، وعدم تشابكها .. حتى لا تقع العين على غابة سوداء تصرفها عن الخروج بموقف سريع حاسم بمجرد

وقوعها على الرسم .. فليس الكاريكاتير فزورة ، ولا مسأله رياضية معقدة ، ولا رسما هندسياً متشابكا .. وهذا التعقيد ربما أدخل الرسم الكاريكاتيرى فى «التصوير» الواقعى فمحا شخصيته .. فهل يستطيع المشاهد أن يرى فى هذا الرسم الكاريكاتورى (رقم٣١) ملامح مهمه تبعدة عن فن التصوير ؟!



(٣١)

لكنا أمام رسم كهذا (رقم٣٢) للفنان بهجت نرانا أمام السهل الممتنع، الذى قد يدفع الكثيرين إلى محاولة تقليده، فإذا فعلوا خاب مسعاهم !! نحن أمام عدة خطوط قليلة ، لكنها تحمل مضامين عظيمة تخترق القلب وتحتوى المشاعر بمجرد وقوع العين عليها

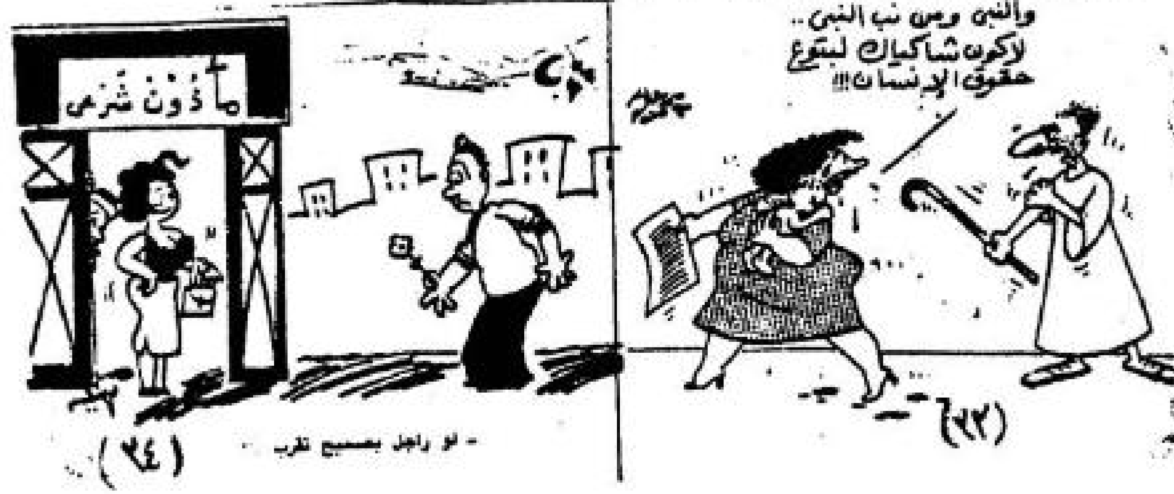


(٣٢)

وكذلك يبدو الفن سهلاً ممتنعاً ، ومعبراً بأبسط الوسائل من خلال هذين الرسمين (رقم٣٣) ، (رقم٣٤) لمحمد حاكم وعمرو سليم .

وزحام الخطوط والأحبار لا يفقد العمل جاذبيته فقط ، بل ربما دفع المشاهد إلى النفور منه ، كما هو الحال فى الرسم (رقم ٣٥) رغم جلال الموقف الذى

يصوره ، والمأساة التى يعبر عنها .. ويلاحظ بهذا الشأن أن الحكم هنا متداخل فيه الذوق بدرجة كبيرة .. فالكاريكاتير – من ناحية الخط – مدارس : منها ما هو



(٣٤) (٣٣)

مزدحم متداخل ، ومنها ما هو بسيط هادئ صاف .. وذوقى – كمتابع – ينسجم مع هذا الصنف الأخير الذى يلائم سماءنا الصافية ، وصحراءنا الواسعة ، وحياتنا البسيطة بصفة عامة .. أما سماء أوربا وأمريكا وروسيا ، وأرضها ، وطباع ناسها فغير ما نحن عليه .



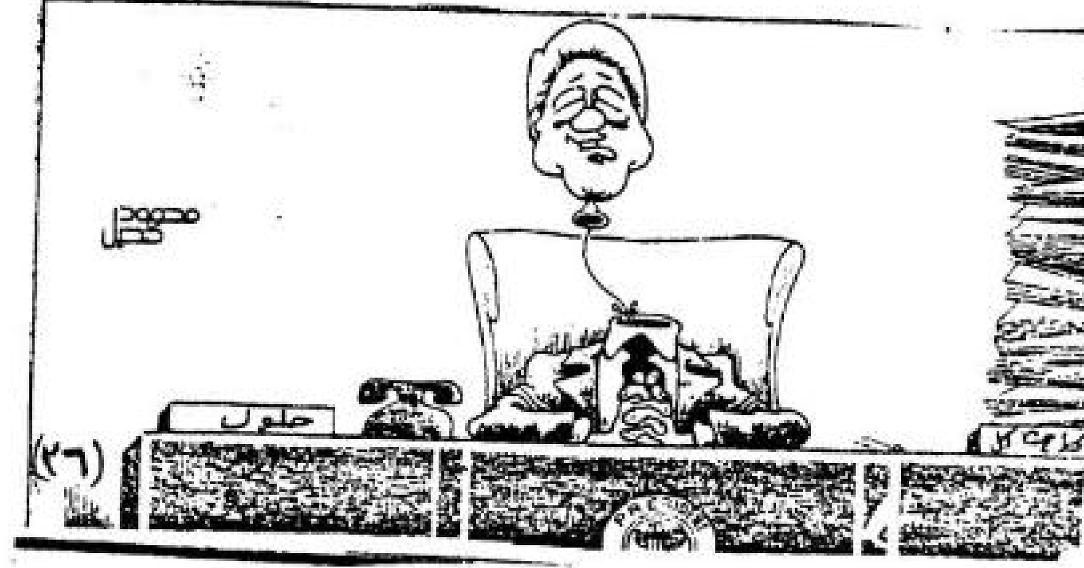
ملاديج البوسنة لوموند – فرنسية

(٣٥)

ومما يحسب للرسم – على مستوى الشكل – التشكيلات المبتدعة غير التقليديه .. ففى جل ما نرى من رسومات للأجسام البشرية تبدو أعضاؤها

مرتبطة ببعضها . أما الفنان محمود كحيل فقد فصل رأس بيل كلينتون – رئيس أمريكا – عن جسده القابع فى الكرسى ، ورفع الرأس أعلى ليكون فى مستوى المشكلات المتراكمه على حكمه وعليه ، ولا يقابلها من الحلول شئ تقريبا . !! (رقم ٣٦) .

ونقف منبهرين أمام هذا التشكيل الذى صاغته ريشه بهجت بأن بنيت خيمه للسكنى من الجرائد (رقم ٣٧) التى تمتلأ كلها بتأكيد ات عن توفير المساكن للشعب .. ولما لم يجد هذا الشعب –متجسداً فى واحد منه – ما تدعيه الحكومه من حل لأزمه الإسكان جمع الصحف المكتظه بتصريحات المسئولين وبنى بها خيمة لنفسه يقيم فيها !!



(٣٦)

(٣٦)

★ ★ ★



علشان بس تصدقى ان تصريحات الحكومة مش أى كلام .

(٣٧)

وإذا كان لنا أن نلخص ما أجملنا فى النظر إلى الرسم الكاريكاتيرى من ناحية الشكل والمضمون ، فى محاولة لتقييمه سلبا وإيجاباً فإننا نقول إن من ميزاته على مستوى المضمون :

★ ندرة التعليق أو انعدامه . وطبيعى أن الاتكاء كثيراً على اللغه والاستفاضة فيها مما ينفى هذه الميزة .

★ توافر عنصر الطرافة والإبهار ، الذى يتنافى مع سطحية الفكره وسذاجتها .

★ احتواء الأفكار الإنسانيه الكبرى .. ويلحق بها تصوير المضامين الخالدة المتجاوزة حدود الزمان .. ويتنافى مع هذين الوجهين الارتكاز على المناسبات العابرة واستحلابها .

ويؤخذ على الكاريكاتير من ناحية المضمون :

★ التنكيت الكلامى.. وتحويل الخطوط إلى خدم للألفاظ، وليس العكس .

★ اصطياد الشعارات والعبارات الجاهزة ، واللف حولها بشكل متكلف ، يوحى بأن الرسم أداء وظيفى واجب النفاذ ، ويحاصر المبدع فى دائرة ضيقة تحدّ من خياله وانطلاقات ريشته .

وعلى مستوى الشكل تعلو قيمة العمل إذا توافرت فيه :

★ التشكيلات المبتدعة التى لم يتعودها المتلقى ولم يتوقعها فى التعبير عن فكرة ما .

★ المبالغة فى رسم الخطوط ، وإطلاق الخيال فى صنع الجديد بغير منطق طبيعى يأنف مثلا أن تكون كف اليد فى حجم الجسد كله .!!

★ بساطة الخطوط ، وعدم ازدحام مساحات اللوحة « بالشخبطات» والتقاطعات ومطبات الريشه والبقع السوداء !!

ومما يحمد فى هذا المجال - شكلا ومضموناً - رسم الدراما الكاريكاتيرية من خلال شخصيات يختلقها خيال الفنان - مثل « كمبورة » مصطفى حسين السماوى والأليط له أيضا ، و« نكدية» محمد حاكم و« إقطاعى » دياب - وبناء حوار بالريشه على لسان هذه الشخصيات يضيف كل مرة شيئاً جديداً يتابعه المشاهد .

وإذا شئنا الحكم على عمل فإننا نتكئ على هذه العناصر جميعا : شكلاً ومضموناً .. وما الأمر - أولا وآخراً - إلا محاولة لا تكتمل إلا بجهود الآخرين فى مناقشتها والإضافة إليها .. فهل أنتم فاعلون ؟!!

١١ / ١١ / ١٩٩٣

حزين عمر

القاهرة



★★ طوغان ★★

★ بعد نصف قرن من المشاكسة

تاب عن الشعر واتجه للرسم بالصدفة !!

★ عبدالناصر مدح رسوماتى فى مجلس قيادة الثورة !!

★ اكتشفت صلاح جاهين .. وقدمته !!

نصف قرن من التاريخ والكفاح ، والفن تلخصت فى اسمين اثنين « أحمد طوغان» .. واذا كان لم يدرس « الفنون الجميلة» دراسة أكاديمية فإن البندقية ، والريشة ، والقلم قد تعاونت جميعها فى صياغة شخصية هذا الفنان الذى بدأ شاعرا ، ثم « تاب الله عليه توبة غير نصوح» فأصبح رساما !! وبين هذا وذاك ظل يقاتل إلى جانب الجزائريين فى ثورتهم ضد الفرنسيين خمسة أشهر !!

الحياة هنا هى التى صاغته ، وقادته ، وقدمته للقارئ العربى .. والصدفة كانت ـ كما يذكر ـ أحد محركات حياته الثرية التى عشناها معه في دردشة .. سألته فى أولها :

★ حكايتك مع الكاريكاتير .. متى وكيف بدأت ؟

ـــ بدأت منذ عام ١٩٤٢ .. وقبل رسمى للكاريكاتير كنت أقدم أعمالا عادية : بورتريهات ، ولوحات طبيعية .. ثم بدأت اعجب برسوم رخا ، واقلده ، وارسم الكاريكاتير .. تلك السنة كانت مشحونة بالاحداث : الحرب العالمية الثانية كانت مازالت مشتعلة ، وفى مصر تيارات سياسية متعددة تطالب بحقها فى الحرية ولابد من جلاء الانجليز باعتبارهم محتلين لأرضنا ، وغير هذه أحزاب كثيرة متعددة الاتجاهات .

فى هذا الجو كان الكاريكاتير السياسى يؤدى دورا كبيرا .. فبدأت امرن نفسى لخوض هذا المجال .

وبعد مجهودات ، ولف على الصحف ، وإحباطات وتفاؤل ، وفشل ، ونجاح، التقيت بالأستاذ رخا فمدلى يده وساعدنى وشجعنى ، وقال لى : ستكون رساماً جيدا ، بعدها بدأت العمل بالصحافة .

الرجل الضخم!

★ حكايات الرفض فى بدايتك كانت متعددة انتذكر من رفضوك ؟ وماذا قالوا لك ؟ !

ــ اتذكر اننى ذهبت الى احدى المجلات ، بتوصية من أحد الباشوات ، زميل ابى الذى كان ضابطا ، ورأيت شخصا ضخما ـ كنت تلميذا بالمدرسة الثانوية ـ واحمل معى رسما كنت قد قضيت الليل كله فيه شطبا وتصليحا . قال لى البواب : الى أين أنت ذاهب ؟! فقلت الى رئيس التحرير ، قال : لماذا ؟ قلت: رسام ومعى رسومات .. فنادى على أحد الجالسين ـ وكان هو الرجل ضخم الجثة فذهبت إليه وقدمت له ما بيدى ، فقال : الرسم ليس شيئا بسيطا .. وليس أى فرد بامكانه أن يرسم .. الست تلميذا ؟! عليك بالالتفات الى مدرستك ، ودعك من موضوع الرسم هذا !! ومزق الرسم ورماه !! وقد عرفت أنه رسام وبعدها اختفى من الساحة ، وهذا مصير امثاله !!

★ ما اسمه ؟!

ــ لا أقول اسمه .. لانه مازال يعيش حتى الآن !!

★ الجو العام فى ذلك الوقت بالنسبة للكاريكاتير كعمل فنى وواجهة ومصدر للدخل المادى .. اين هو من حالته الحالية ؟ !!

ـــ هو حاليا فى ازدهار كبير ، لأنه ـ فى بدايتى ـ لم تكن هناك صحف يومية بها كاريكاتير ، كان هذا الرسم يدخل فى بعض المجلات فقط ، أما الآن فهو مادة اساسية وضرورية وبدأت الناس تلتفت اليه ، وبدأ الرسام يستقر ماديا ، واتسع الميدان لرسامين كثيرين ، ووسائل النشر اضحت أكثر ففى التليفزيون وفى جميع الصحف له مكان .

وفى اعتقادى أن الاهتمام بهذا الفن سيزداد ويتطور .. ومازال المجال يحتاج لمجلات ساخرة كثيرة والمستقبل فى اعتقادى متسع والناس تريد أن تنكت وتقرأ نكتة وتبتسم .

قبضايا

★ عنصر من عناصر الكاريكاتير الطريفة هو هذه الشخصيات الرمزية التى يخترعها الفنان فماذا عن شخصياتك ؟!

ـــ قدمت بعضا منها .. فاثناء الحرب الأهلية اللبنانية صورت بعض رجال السياسة فى شكل « قبضايات» يتصرف الواحد منهم كالفتوة وهو يرتدى ثوب السياسة .. وكذلك قدمت شخصية « هنكار» الحاكم المستغل للشعب .

★ هل هناك سمات محددة تتحكم فى نجاح أو فشل هذه الشخصيات جماهيريا ؟

ـــ لو درست الشخصية وقدمتها للجمهور ، فيجب أن تقدم بخصائصها .. فمثلا « البكاش» يجب ـ لكى تصوره – أن تعرف تصرفاته وخصائصه وشكله المناسب لطبيعته .

★ هذا يقتضى أن يكون رسام الكاريكاتير رجلا شعبيا .. مع الناس فى الشارع والحقول وعلى الأرصفة .

ـــ اذا لم يكن شعبيا فلن يصدقه أحد ولن يقنع القراء ، ولن يجيد رسم شخصياته .

★ الكاريكاتير فن أم حرفة ؟ ألا يمكن لاى فرد أن يتعلمه ؟

ـــ هو فن .. وهو شأن الفنون جميعا ـ لابد أن ينطوى على قدر من الموهبة لدى ممارسه وقدر من الرغبة فى العمل بهذا المجال ، والموهبة نصف فى المائة و٩٩,٥٪ ممارسة .. فلو جربنا على خمسة أطفال ذكاؤهم عادى ، فمع الوقت والممارسة يمكن أن نخرج منهم الموسيقى والرسام والكاتب والشاعر .

★ لماذا لا توجد « رسامة » كاريكاتير ؟

ـــ لأن الكاريكاتير أحيانا يكون « وقحا » !! « قليل الأدب » !! أحيانا مشاغب ... مقاتل ... وهذا لا يتوافر فى البنات ...

★ هل هناك إمكانية لظهور رسامات كاريكاتير لدينا ؟!

★ حتى الآن لا يوجد .. ولست ادرى أيكون فى المستقبل أم لا .. المسألة متوقفة على « النظام العالمى الجديد » !

الرسام مفكر

★ هل هناك حدود فاصلة بين مؤلف النكات والشائعات ، ورسام الكاريكاتير ؟!

ـــ من ينكت لا يستطيع الرسم . أما الرسام فيجب أن ينكت ويرسم ويرسم أولا ، وثانيا يملك القدرة على السخرية ، والرسام اساسا مفكر .. وينفذ الفكرة بالرسم .

رسام الكاريكاتير ليست وظيفته التنكيت ، بل التوعية عن طريق السخرية ، الى جانب أنه قادر على التنبؤ بالحدث قبل وقوعه . فمثلا اتذكر اننى حينما دخل الروس افغانستان ، رسمت صورة لاثنين من الجنود الروس يقول أحدهما للاخر « كويس قوى أننا عرفنا ندخل .. تفتكر هانعرف نخرج » وبعد ثمانى سنوات من رسمها كان الروس يعانون فى الخروج من أفغانستان ، ولو ظلوا وقتا آخر لطلبوا أن يدفعوا مالا ليتركهم الأفغان يخرجون !!

★عشت ثورة الجزائر رساما ، ومقاتلا كيف بدأت علاقتك بها ؟!

ــ كنا نصدر مجلة بسيطة ونحن أطفال فى القاهرة ، وقابلنا مواطنا جزائريا كان ضابطا بالجيش الفرنسى ، وهرب منه ، وجاء الى مصر لاجئا سياسيا ، وكان عضوا فى حزب « البيان» الجزائرى وزعيمه « مصالى الحاج» ... هذا الضابط كان يطبع مجلة فى مصر ، ويسر بها الى الجزائر ضد الاستعمار الفرنسى ، التقيت به فى المطبعة ، وبدأت ارسم للجزائريين المناهضين للاستعمار .. ومن حينها درست وعايشت هذه الثورة ، وتنبأت بكل ما حدث ... كنت أرسم للمستقبل اى على اساس ان ما ارسمه سوف يحدث بعد ذلك ، لكنى للآسف لا أحتفظ من كل هذه الرسومات بشئ

أيام المجد

ـ أكان لك دور فى حرب الجزائر غير الرسم ؟!

ـ سافرت ، وعشت معهم ، وحاربت ، وبعد عودتى للقاهرة وضعت كتابا اسمه « أيام المجد فى وهران» عن جهاد الجزائريين رجالا ونساء وشيوخا .. واثبت فيه أن العالم الغربى جميعه كان يحارب الجزائريين أما بتسليح الفرنسيين أو بالمعونة المالية أو الدعاية والإعلام ، أو بالمتطوعين كان لدى الفرنسيين فرقة تسمى

« الفرقة الأجنبية » ولديهم « لواء المانى شرقى» وغيرهما ... وظلت إقامتى هناك حوالى خمسة أشهر

وقد عبرت عن هذه المرحلة كاريكاتيريا عام ١٩٥٩ فكنت اكتب وارسم فى جريدة الجمهورية ونشرت حوالى ثلاثين صفحة يومية عن الثورة الجزائرية بالرسومات ، وكان لهذه الرسومات صدى كبير لدى القارئ العربى .

صدفة

★ لماذا تبت عن الشعر ؟!!

— لم أتب .. كان صمتى عنه بالصدفة !! وكل شئ فى بلدنا بالصدفة .. فمثلا قد يقود رجل ابنه ليعلمه حرفة الميكانيكا ، لدى صديقه ، ويقابله فى طريقه صديق آخر ... حلاق مثلا ، فيقول له دعك من الميكانيكى واعطنى ابنك اعلمه عندى !! وهكذا تغير نمط حياتى بسبب الصدفة .. وبالصدفة أيضا مارست الرسم ، كنت أعرفه قبل ذلك لكننى اتجهت إليه كلية بالصدفة !!

★ من أساتذك ومن تلاميذك وأقرب الرسامين اليك؟

— أستاذى رخا : تعهدنى وشجعنى ، وظللت على علاقة وطيدة به ، أما الزمالات والصداقات ومن عايشتهم وتأثرت بهم فكثيرون منهم : زكريا الحجاوى، محمود السعدنى ، يوسف إدريس ، صلاح جاهين .. وأنا الذى أحضرت صلاح من المدرسة ، واكتشفت أنه رسام كاريكاتير ، وقدمته للحجاوى وكنا نصدر مجلة اسمها « مجلة الأسبوع» حين كنا صغار السن ، فرسم فيها صلاح أول عمل له .

حاكم فنان حقيقي

★ أقرب الرسامين الى قلبك ؟

ـــ أقربهم إلى قلبي حسن حاكم .. لانه فنان أصيل وحقيقي .

★ الحياة بغير كاريكاتير .. كيف تكون ؟

ـــ صعبة جدا .. غير محتملة لابد من وجود السخرية ، لكى يستطيع الانسان إجتياز الحياه عليه أن يسخر منها

★ الم تكن الحياة موجودة و«ماشية» قبل وجود الكاريكاتير ؟!!

ـــ هو قديم جدا .. فى الأقصر ترى على جدران المعابد الاثرية رسومات كاريكاتيرية منها مثلا رسم للقطط فى السجن والمفتاح فى يد الفأر !! وتجد الملك ضخما جداجدا والاسرى صغارا أمامه !! وفى الأقصر أيضا مدينة للفعلة ـ الذين كانوا يبنون المعابد ، وكانوا مغتاظين من المهندس المشرف عليهم ـ فرسموا على الحوائط أنه حمار يمسك برجلا !!

★ هل أنت مبتسم دائما ؟

ـــ أقاوم كل شئ بالسخرية .. واحيانا اغضب ، لكن لفترات لا تطول ، ودائما التمس العذر للمخطئ ، لأن الدنيا قاسية والحياة صعبة .

مشكلة كاريكاتورية

★ أتتذكر عملا جر عليك متاعب سياسية أو اجتماعية ؟

ـــ بعد توقيع المعاهدة بين مصر واسرائيل بدأ اليهود يعاملون الفلسطينيين معاملة قاسية معتمدين على تحييد مصر ، فهاجمت الاسرائيليين بصفة يومية فى رسوماتى بالجمهورية ، حتى قدمت رسما فيه نجمة داود ، وفى قلبها شارة النازى

ـ الصليب المعقوف ـ وبيجن يرتدى بذلة النازى . فقدمت وزارة الخارجية الاسرائيلية احتجاجا لمصر على هذا الرسم ، واتهمت بأننى افسد العلاقة بين مصر واسرائيل ، واضرب السلام فى منطقة الشرق الأوسط ، وهاجمنى بعض الصحفيين وكان المطلوب أن أفعل شيئا ما « لاصلاح» ما « افسدت » لكنى لم أفعل !!

★ اشهر كاريكاتير قدمته طوال تاريخك الفنى ؟!

ـ كاريكاتير رسمته عن محمد مصدق رئيس وزراء ايران الأسبق ، حين تولى الوزارة ، وبدأ فى صياغة خط وطنى لبلده ، وتحرير ايران من سيطرة الاقتصاد الغربى ، فحدث انقلاب ضده وطردوه من الحكم ، وادعوا أنه مخرب ومخرف، وسجنوه ... فرسمت صورة فى السجن وبابه حديد مكون من علامة الدولار والاسترلينى .

واتذكر أن عبدالناصر اطرى على هذا الرسم ، ومدحه فى مجلس قيادة الثورة ، وكان قد نشر بالجمهورية التى صدرت ١٩٥٣ ، ومنذ أول يوم خصصت مساحة ثابتة للكاريكاتير ولم يسبقها فى هذا التقليد الا جريدة الأخبار ، التى عملت بها أول اصدارها ، وكان موجودا معى صاروخان ورخا وظللت بالاخبار حتى قيام الثورة ، ثم انتقلت الى الجمهورية قبل اصدارها بستة أشهر أى فترة الاعداد لها .

★ الم تدرس فى كلية الفنون الجميلة ؟

ـــ لم ادرس ، لكنى درست أساسيات الرسم ومكوناته وحدى

★ الم تقدم لوحات تصويرية : غير الكاريكاتير ؟؟

ـــ لا وقت لدى لهذا ، ولكنى كنت أمارس التصوير قبل عملى بجريدة يومية تستنفد كل وقتى

★ لو خيرت بين أن تكون شاعرا ورساما للكاريكاتير . فأيهما تختار؟!

ـــ لا أستطيع المفاضلة لكن الرسم قاعدته أكثر اتساعا .. يعرفه الأمى ، ولو امكن رسم الكاريكاتير بغير تعليق لكان أفضل ليطلع عليه اكبر عدد من الناس ، بعكس الشعر .. إلا اذا كان شعرا شعبيا له جمهوره .

من نجد

★ اسم «طوغان» ... ماذا يعنى ؟!

ـــ أنا أصلا من الجزيرة العربية ، من نجد انتمى لقبائل القديديين .. جئنا الى مصر منذ زمن طويل ، ربما مائتى عام ، واستوطنا فى الجيزة ، وطوغان أحد ابناء رئيس قبيلة اسمها « النجمة » موجودة الآن فى سقارة والهرم ونزلة السمان ونزلة البطران ، وقد كنت معفى من الجندية فلم التحق بالجيش ، بصفتى من هذه القبائل العربية التى كانت تواجه الاعداء دائما ، وفى مقدمة المدافعين عن مصر بغير الالتحاق بجيش نظامى ،.. واخر رئيس لقبيلتنا كان اسمه « رحيم البطران» من نزلة البطران ، وكان يرتدى العقال ، ويحمل السيف ، وقد رأيته فى طفولتى وكانت لهم تقاليدهم ومحاكمهم .. لكنهم ذابوا الآن فى الوسط العام . . ولم نعد قبائل .

أما معنى اسم « طوغان» فهو « الصائد بالصقر » أى يملك صقرا ويصيد به وهو اسم أحد أجدادى •

★ وما هو الاسم بالكامل ؟!

ـــ أحمد ثابت أحمد طوغان .

★ أكانت هذه مهنته فعلا ؟!

ـــ لا أدرى ربما لم تكن هذه مهنته ، لكنها مجرد تسمية .

★★حسن حاكم★★

★ عيوب البشر ليست من صناعتهم ..
فكيف نسخر منها ؟!

★ لم أبكِ لموت أبى .. بل ضحكت !!

★ أقول لابنى : أعمل .. ولو رقّاصة !!

يتحدثون دائمـا بالقلم ، ويتـحـاورون بالخطوط ، ويقـاتلون على الورق !! فتضحك من أعمالهم ويدمع قلبك .

رسامو الكاريكاتير : هل هم ساخرون فى حياتهم كما فى أعمالهم ؟ كيف تكونوا ولمعوا وهل يفعلون ما لا يقولون ، أم إنهم كالشعراء يقولون مالا يفعلون ؟!

الفنان حسن حاكم بين فنانينا العرب - فى هذا المجال - يتـمـتع بعدة خصوصيات أولها أنه رسام كاريكاتير بالصورة وباللفظة أيضا .

قلت له :

فنان الكاريكاتير ساخر من عيوب الآخرين ومضخم لها .. هل يمكن أن يتوقف عند عيوبه الشخصية ؟!

قال : أنا - كرسام كاريكاتير - لا أسخر من أحد ، فهذا الفن خطوط هادفة ، فيها شئ من البهرج بغير سخرية .. كثير من الرسامين يطيل الانف ويشوه الوجه ، أما أنا فلا أشوه إنسانا .

★ فكيف يتوافر اذن عنصر الإضحاك ؟!

ـــ فلسفتى فى الكاريكاتير ـ بعد عشرات السنين ـ إننى لست مسخة ، ولا مهرج الملك ، ولا قزما من أقزام فرعون ، ولا بلياتشو !! رسومى اذا ضحك عليها أحد أغضب جدا .. اننى أحرك فى مشاهدى شيئا ما لكن أن يوضع الرسام فى مربع لإضحاك رئيس التحرير فهذا مستحيل بالنسبة لى . فلست ارسم لرئيس التحرير ، بل للإصلاح اذا كان هناك خلل يملك الكاريكاتير اصلاحه .

★ هذا موقفك الشخصى .. لكن الواقع العام يقول أن طابع الكاريكاتير تضخيم العيوب .. !

ـــ نعم تضخيم عيوب ، لكن ليس لمجرد الإضحاك .. أخطأت فأصوبك لا أضحك عليك الناس !! فالعيوب فى البشر ليست من صناعتهم .. فهل من حق أحد أن يقول لى : لماذا أنت اسود ؟!!

★ الفنان حسن حاكم ... كم سنة كاريكاتير ؟؟

ـــ ٤٥ سنة .. أولها كانت ١٩٤٨ فى مجلة اسمها « النداء» لفؤاد سراج الدين . وكنا يومها نرتدى « الشورت» وبعدها عملت ١٦ عاما فى دار الهلال وانشأنا « حواء »و « سمير وميكى » .. ثم فى جريدة المساء أنا ومصطفى حسين

★ أول عام كاريكاتير : اين هو ـ على مستوى الاجادة ـ من آخر سنة بالنسبة لك ؟!

ـــ تقصد أحسن كاريكاتير .. مارسته عن صدام حسين . وقد عشت فى الكويت عشرين عاما حتى دخول القوات العراقية وقد بحث عنى صدام لارسم صورة عن الأمراء تشبه ما رسمتها عنه ، فهربت الى عمان ثم الى مصر .

★ لو طلبنا رسم صورة كاريكاتورية لفظية لنفسك . فماذا تقول فيها !!

ـــ أقول : إننى ساخر حتى من نفسى . ان لم أجد ما أضحك عليه اضحك على نفسى!! لكن لابد أن اضحك حتى لو شتمتنى !! ويوم مات ابى كنت أضحك!!

★ الصورة ـ إذن ـ يمكن أن تكون لإنسان ساخر مبتسم دائما .. فماذا تعلق عليها ؟!

ـــ بدون تعليق!!

★ الشعراء طبقات .. فهل رسامو الكاريكاتير كذلك ؟ وعلى اى أساس يمكن تصنيفهم ؟!

ـــ أصنفهم حسب ثقافتهم . حسب فهم الفنان لما يفعل . فليس كل من يمسك ورقا ويملأ مساحات شاغرة رساما لابد ان يكون المخ ممتلئا ..

★ هل اضفتم ـ انت وجيلك ـ الى الرواد فى فن الكاريكاتير ؟!

ـــ طبعا .. اننى ارسم الان الكاريكاتير بدون تعليق .. وهو لغة عالمية طورناها . سئلت يوما فى تلفزيون الكويت : هل تتحدث لغات ؟ فقلت : كل لغات العالم!! فاليابانى والهولندى والصينى يستطيع الرسام وحده ان يتفاهم معهم .. بدون تعليق هكذا افعل أنا .

كل الفنانين الرواد السابقين علينا كانوا يعلقون على الكاريكاتير ، أما أنا فأرفض تماما إلا ما ندر.

★ رسام الكاريكاتير فنان تشكيلى فاشل .. ما ردك على هذه المقولة ؟

ـــ أنا أقول غير هذا .. واذكر لك حادثة بسيطة : كنت طالبا فى الفنون الجميلة ، وكان يدرس لنا حسين بيكار . ويومها كنت أعمل فى « النداء» ومشهورا .. فقلت له : ما رأيك يا استاذ بيكار فى هذه الرسومات ؟! فنظر فيها وقال : اذهب ارسم الموديل الذى امامك !! ودعك من هذا !! فغضبت جدا .. فقال لى : عليك بدروسك اولا .. ونادنى على بعد ذلك وقال : رسوماتك جميلة ، ولكن عليك ان تدرس لتكون رساما مجيدا .

فلست معك فى ان فنان الكاريكاتير تشكيلى فاشل .. يمكن ان يكون الناقد فاشلا .. كناقد الكرة مثلا .. يقول محمد لطيف : جون . جون . جون . ويصيب فعلا.. لكن هل يستطيع ان يدخلها المرمى يجب أن يكون رسام الكاريكاتير فاهما .. لا يرسم وكفى .. عليه أن يسيطر على مقدرات اللوحة التى يرسمها

رغيف الخبز ... سياسة

★ هل هناك مدارس لهذا الفن ؟؟

ـــ طبعا .. فرنسا ، انجلترا ، روسيا يرسمون بتفاصيل دقيقة .. أما شرق أوروبا فيرسمون فى بساطة : خطوط سهلة .. وهناك رسام كاريكاتير يحول الكلام الى رسم ، وهو اسوأ أنواع الكاريكاتير وهناك كاريكاتير اجتماعى ، واخر سياسى .. وان كنت لا أفصل بين الاجتماعى والسياسى . فرغيف الخبز سياسة

★ الكاريكاتير العربى إلى أى المدارس ينتمى ؟

ـــ لا أستطيع التحديد .. فكل رسام يرسم بنبضه .. لنا مشكلاتنا الخاصة فى وطننا العربى التى تشحن الفنان ، ولا أصنف رسامينا تحت سقف مدرسة

★ أى أننا لم نحدد هويتنا بعد فى هذا المجال ؟

ـــ لا أهاجم احدا .. كل يرسم حسب مقدرته وثقافته .. اذا لم استطع توصيل ما برأسى فأنا فاشل ، كالممثل الذى يعجز عن توصيل دوره . فكل فنان لديه وسيلة التوصيل المناسبة .

★ فى هذا الفن : هل تعود الصورة الى التعليق أم أن التعليق أو الفكرة هى التى تولد أولا ثم تصاغ الصورة على نمطها ؟

ـــ الفكرة تولد أولا .. مثلا مشكلة الصومال وجدت وقائمة .. ثم يحاول الرسام أن يعبر عنها بعد نشوبها ، فأتأمل مثلا : لماذا ارسلت اميركا الجيش الى الصومال ؟!

يجب أن أعرف كرسام كاريكاتير ـ وهو جاسوس المستقبل ـ لماذا فعلت هذا؟!

مصروداني

★ أصلك سودانى .. ما جنسيتك الآن ؟

ـــ جنسيتى سودانى .. لكنى أعيش فى مصر « بكلى» اعرف مصر أكثر منك !!

★ أولدت بمصر ؟؟

ـــ نعم .. ووالدى كان ضابط شرطة ، ويتنقل فى كل بلاد المملكة المصرية « مصر والسودان» ولذلك فانا أعرف بلد أى شخص من لهجته .. لقد تجولت فى جميع انحاء مصر وعشتها مدينة مدينة ولا أحب ولا أسمح لا حد أن يطعن فى مصر أو يهاجمها .

★ والسودان ؟

— ان جنسيتى الحقيقية (مصروداني» أى لست سودانياً فقط .

★ تقصد أن لك جنسيتين : المصرية والسودانية ؟!

— جواز سفرى سودانى .. لكن كيانى مصرى ، ومشاعرى مصرية .. أحب الحسين والسيدة زينب والمغربلين والفواطية . واذا سألتك أين الفواطية فلن تعرفها!!

★ حقا لا أعرفها!!

— ولا القفاطين .. لقد عشت مع فلاحى مصر والكادحين فيها .. وقد كان ابى يرفض اختلاطى هذا ، وكان « قمندان» الحرس الملكى .. ويكره جلوسى مع الفلاحين ، يكره أن امشى معهم حافيا واستحم فى الترعة .. هكذا كانت مفاهيمه وثقافته .. وكنت أرفض موقفه هذا ، وارانى جزءا ملتحما مع الشعب وكادحيه .

★ أعمالك الكاريكاتورية هل تعجب أفراد أسرتك أكثر من أعمال الفنانين الآخرين ؟!

— أولادى وزوجتى ليس لديهم هذا الانحياز لى .. يقولون عن الجيد جيد والعكس صحيح وقد عودتهم على الأحكام الموضوعية .. وأنا أسرّ أن يعربوا عن عدم رضاهم لعمل من أعمالى .

★ من هو الفنان الذى يقدمونه عليك ؟

— كل رسامى مصر قبلى .. واحسن منى !!

★ وماذا ترى الاسرة ؟

— ترى أننى رجل عظيم جدا .. وهذا موقف فيه مجاملة لى ..

★ هل اسرتك أول من يقرأ ويشاهد أعمالك ؟!

ـــ نعم .. وكثيرا ما يقولون أننا نطلع على مجلة « كاريكاتير» لنرى رسوماتك فقط .

★ واذا رأوا ما لا يعجبهم فى أعمالك فهل تتلخص منها ؟

ـــ لا اتخلص منها .. بل أتركها لاربط بين مارسمت ، وما قالوا هم عنه لكننى لا أنشرها بل احتفظ بها .

اصبح ضرورة

★ كاريكاتير بغير صحافة يساوى صفرا .. ماذا تقول فى هذا الرأى ؟!!

ـــ بالضبط .. كمعبد بلا اله .. كانوا قديما يضعون الكاريكاتير فى الصحف على سبيل الزينة أما فى السنوات الاخيرة فقد اصبح الامر يقتضى ـ بعد انشاء صحيفة وجلب محررين ـ البحث عن رسام الكاريكاتير أصبح الان من ضرورات الصحافة، لانه لغة العالم .

★ أنا أقصد العكس . فأقول أنه لابد للكاريكاتير من صحافة ينشر فيها ..

ـــ لا .. لا أوافق على هذا .. دومييه ـ رسام فرنسى أيام الثورة الفرنسيه .. رسم ركاب الدرجة الثالثة فى الكاريكاتير ، ويحتفظ به حتى الآن فى متحف اللوفر . ولم تكن هناك صحافة ويستطيع أحدنا أن يقيم معرض كاريكاتير ، يرسم على الحوائط .

★ يقال أن الكاريكاتير أصله مصرى قديم ، وجد مرسوما على المعابد والقبور.. أصحيح هذا القول ؟!

ـــ غير صحيح .. منذ خلق الانسان خلق الكاريكاتير معه .. لقد عثروا عليه

مرسوما على الكهوف ـ قبل الفراعنة ـ حينما كانوا يصطادون الحيوانات ، فيعجز الانسان البدائى عن صيد الاسد فيعود يرسم على الجداريات ـ التى وجدت فى الأردن واسبانيا ـ يرسم الاسد ، وهو يقف فوقه مسيطرا عليه هازما إياه !! والماسكات للحرب أو الفرح أو غيرهما نوع من الكاريكاتير يعبر عن وجهة نظرهم فى الحرب ، ليس ضروريا أن يكون هذا الفن كما نراه الان .. ثم جاء دور الفراعنة فى الاسرة الرابعة وبالذات فى عصر اخناتون .

فرعون ... يلاعب الحمار !!

★ ماهى ابرز الرسومات التى تركوها ؟؟

ـــ أبرزها حينما رسم الفنان صورة الفرعون يلعب الشطرنج مع حمار ..ورسم فرقة موسيقية برءوس حيوانات ، أى بغير عقل!! تعبيرا عن سوء ما تقدم من معزوفات !! وهى بدون تعليق

★ اذن فحين تستغنى فى رسمك عن التعليقات فهذا ليس جديدا ، إنما هو تقليد مصرى أنت متأثر به !!

ـــ لست متأثرا به .. أن تأثرى بالكاريكاتير العالمى الذى لم يعد الان « موضة» تأخرنا بعض الوقت للحاق به .. وأنا أحب هذا النوع من الفن .

★ الفنان حاكم .. يحكم من ؟!

ـــ أنا محكوم لا حاكم .. « الاسم عنبر والشهرة صربانى» وهو مثل يقال لعامل المجارى !! فليس فيه من اسمه الا العكس !! وحسن جدا اذا استطعت ان احكم نفسى فقط !!

★ لماذا سموك حاكم ؟!!

ـــ لست أنا ، بل ابى هو « الحاكم» وجدى ايضا اسمه كذلك . فاسمى : حسن حاكم سلمان حاكم .. ويقال ان جدى كان من تجار الرقيق ، وله صولة وجولة ، وحتى اليوم توجد قلعة بشمال السودان اسمها قلعة حاكم .

★ ها تتردد على السودان كثيرا مع الاسرة ؟

ـــ لا ليس كثيرا هذه الايام .. ومعى فى مصر اسرتى : الزوجة والابناء ... وهناك ـ فى السودان ـ إخوتى وعمى وبقية العائلة .

★ لو عرضوا عليك فى السودان رئاسة تحرير صحيفة كبرى .. هل تترك مصر ؟

ـــ لا يمكن .. واحتج على هذا السؤال !! وقد حدث هذا من قبل معى أنا والشاعر محمد الفيتورى .. عرض علينا أن يكون هو رئيس تحرير ، وأنا مدير تحرير أيام « عبود » فرفضت العرض وعدت الى مصر ... كان ذلك لمجلة اسبوعية اسمها « الاذاعة» فى عام ١٩٦٠ .

★ ما هو تقييمك لواقع فن الكاريكاتير العربى ؟

ـــ اطلب من الرسامين العرب أن يأخذوا الكاريكاتير مأخذ الجد .. لا اجلس ارسم كأننى آكل خسا طوال اليوم بلا هدف أو فائدة !! وكثيرون يرسمون « أى كلام» !!

نشال .. يسعدني

★ لو طلبت منك تنصيب عميد للكاريكاتير على المستوى العربى .. فمن تضعه فى هذا المنصب ؟!

ـــ كلهم زعماء الا أنا !! فى مصر رسام جيد مثل مصطفى حسين ، ليبيا فيها الزواوى ، فى سوريا على فرزات .

★ هل هم جميعا على مستوى واحد ؟!

ـــ طبعا لا ... الاصابع ليست كبعضها . العظيم من ينقل لى ـ كشعب ـ ما بداخله بدقة ويقدم لى « فانوسا» اسير به .. ما أكثر المضللين هذه الايام !! وأنا اكشف هؤلاء المضللين كرسام كاريكاتير واع .

★ بعض الناس يندسون على هذا الوسط تكسبا منه لانه رائج ومربح ؟

ـــ هذا حدث ويحدث فعلا .. وكثيرون جدا من رؤساء مجالس وادارات الصحف يحكمون الصداقة فى اختيار الرسامين . فليست هذه الايام كأيام احسان عبدالقدوس الذى أفهمه فقط .

★ هل تتيح أنت شخصياً فرصة للشباب ليتعلموا منك ؟

ـــ يمر على يوميا ما يقرب من عشرين شابا . وانصحهم بالطريق الصحيح . وأنا افرح الآن لأى شخص يرسم خطين الى جانب بعضهما ليصبح من أسرة الكاريكاتير .

★ لو طلب أبناؤك العمل فى هذا المجال .. هل توافقهم ؟

ـــ أنا لا أفرض رأيى على أحد .. كل ما أقوله للابن : أعمل ولو رقاصة .. المهم أن تكون نابغة .. حتى لو عمل نشالا !! وأنا اذ نشلنى نشال ، وكان ذكيا جدا افرح به !! وكثيراً ما نشلت من اذكياء جدا فكنت سعيدا بهم واتركهم ينشلوننى !!

حتي الهواء .. رسمته

★ أنت تتركهم خوفا .. لا حبا في ذكائهم !

ـــ لا .. لا أخاف أحدا

★ هل عبرت عن مثل هذا الموقف بالكاريكاتير؟!

ـــ عبرت كثيرا جدا عن مثل هذه المواقف .. لكن لست ادرى اين ذهبت هذه الرسومات الان . لقد رسمت كل شئ حتى الهواء ، ٤٥ سنة مشوار طويل

★ هل أثر الزواج على حياتك سلبا أو إيجابا ؟

ـــ زوجتى – زينب الكردى – من حسن الحظ انها كاتبة .. وكان لها باب ثابت فى جريدة « الوطن » الكويتية ولهذا فهى تدعيم لى .



★★ بهجت عثمان ★★

★ الكاريكاتير الصادق .. يعبر عمن لاصوت لهم

★ نجيب محفوظ فى ذاته .. عمل فنى !!

★ أولادى .. لا يقولون لى : بابا !!

★ رسام الكاريكاتير العرضحالجى .. لا يحتاج لثقافة !!

اقام دولة كاريكاتورية سماها « بهجاتيا العظمى » .. جلس – مدى الحياة – على عرشها حاملا لقب «بهجاتوس» ثم سَخَّر كل مواطنيه « الكاريكاتوريين» للتسبيح بما أصابهم من قحط وشح وعدمية !!

وبعد أن يئس الفنان بهجت عثمان من أبناء جمهوريته الكبار وتسليمهم المطلق له .. اتجه الى العيال يخاطبهم ويلعب معهم ويقودهم ويستمع اليهم ويتعلم منهم .. فقد تسقط على أيديهم جمهورية بهجاتيا العظمى !!

لكن يبقى بهجت دائما رسام كاريكاتير ملهما رغم تخليه – أخيرا – عن هذا الفن ، وإخلاصه جل وقته وذهنه للرسم للأطفال والكتابة لهم ايضا .

سألته :

★ هل توفر لنفسك طقوسا خاصه لممارسة الإبداع ؟؟

ــ لا توجد طقوس محدده . لكنني « افتح » مبكرا جدا أصحو – هذه السنين الأخيرة – فى الخامسه والنصف صباحا واجمل فترة للابداع ما بين هذا التوقيت حتى العاشرة ، افكر وارسم واستمتع و«اشخلع» عملى ولا اعمل شيئا حسب الطلب بل ارسم ما احب ان أرسمه .

وجهة نظر

★ هل تتواتر اليك الفكرة أولاً ثم ترسم لها الصورة ؟؟

— طبعا .. يأتينى أولاً تصور الفكرة نفسها .

★ وبناء على هذا لا بد من وجود تعليق تحت الصورة !!

— ليس ضروريا .. يمكن بلا اى تعليق لكن حين افكر فيها افكر « بصريا» اى كيف اخرجها للمشاهدة .

★ فماذا ترى فى الرسامين الذين يشتركون مع غيرهم لإخراج صورة كاريكاتورية مستعينين بأفكار الآخرين ؟!

— لى وجهه نظر فى هذه المسألة .. فمهنة الكاريكاتير مثل الأدب والكتابة والسياسة : لا بد ان يكون لصاحبها وجهة نظر فى الحياة ، والكتابه السياسية او الشعر او القصة او الكاريكاتير وسيلة الفنان للتعبير عن موقفه .. فاستعارة فكرة من احد والرسم عليها يبدو لى ان من يفعل هذا مثل « العرضحالجى» قاعد امام المحكمة ويتقدم إليه المشتكى لكتابه رسالة يشتم فيها فلانا فيشتمه !! ثم يأتى بعده فلان المشتوم يطلب شتم الاول فيشتمه !!

★ بمناسبه الشتائم .. هل يمكن ان نقول ان الكاريكاتير لسان الحكومات اكثر من ان يكون معبرا عن الشعوب ؟!!

— فى الرسم هناك رسام اعلانات ، ورسام لوحات .. كذلك فى الكاريكاتير، الرسامون ابواق الحكومات كرسامى الاعلانات واصحاب الرأى فى الحياة مع الشعب لا مع الحكومات – لأنها تجيئ وتروح اما الإنسان فباق • أصحاب الرأى هؤلاء درجات : فمنهم من يقلق لتأخر الطائرات عن مواعيدها ، هذا يحمل هموم عدد قليل من الناس المستفيدين من هذه الخدمة ، وآخرون يعبرون عن الشكوى من « التاكسات» فاهتمامهم متسع شيئا ما .. وهناك من الرسامين من يعرضون تزاحم الاتوبيسات .. فأعتقد ان هؤلاء اصحاب رؤية اوسع وغير هذه

الهموم يمكن رصد من لا يستطيع السير حتى على الأقدام !!

المهم انت مع من ؟!!

من الحرافيش

★ أنت من حرافيش نجيب محفوظ . ما هو تقييمك له كمؤلف نكات كبير.. بعيدا عن الابداع الادبي ؟!... هو يضع النكته السياسيه بالذات ، ويتولى نشرها من حوله من الأدباء أمثال على سالم ومصطفى ابو النصر .

— لا اعرف عن نجيب محفوظ هذا الجانب من حياته ، لكنه من اكثر الناس سرعة بديهة : لديه الرد السريع الساخر الضاحك الفكاهى .

★ الم يولّد هذا لديك بعض الصور الكاريكاتورية .. ألم تستوحِ منه شيئا ؟!!

— نجيب محفوظ في ذاته عمل فنى .. رؤيته للأشياء ، ورد فعله عليها ، وضحكاته

رسامات الكاريكاتير

★ مكتوب على أبواب فن الكاريكاتير : ممنوع دخول الستات ..لماذا ؟!!!

— ليس صحيحا انه ممنوع .. المجال متاح ، والباب مفتوح واسع لكل من يملك وجهة نظر ويستطيع التعبير عنها بسخرية وبالفعل هناك رسامات كاريكاتير مثل بربارا هاينجر ، وهى رسامة المانية حصلت في مهرجان دولى بالجزائر على المركز الثانى وحصلت أنا على الأول .

★ هذا نموذج فردى يؤكد القاعدة ..

ـــ لا استطيع الفتوى فى تحديد الأسباب بدقة ، وان كان من الممكن النظر الى عدم حصول المرأة على حقها حتى الآن .

لكن عموما فى مجالات كثيرة ـ لعدم حصول المرأة على حقها – تراها دون الرجال فعدد القاصات بالنسبة للقصاص قليل وعدد الشاعرات ايضا قليل مقارنة بالشعراء .. المرأة لديها حس شعرى اعمق ، لكن الواقع ان الشعراء اكثر عددا وعلو صوت .. نفس الحكم على مخرجات السينما .. انها قضيه واحدة .

★ فى الفن التشكيلى – والتصوير بالتحديد – هناك نابغات امثال جاذبيه سرى ..وتحية خليل

– لكن امامهن طابور طويل من الرجال .

★ لو رأينا وجها آخر للفنان بهجت غير الكاريكاتير .. فماذا يكون ؟؟

– أنا حاليا اعمل رساما وكاتبا للاطفال .. واحس ان هذا اكثر جدوى وانفع للناس من الكاريكاتير ، فهذا الفن لا أعود اليه الآن الا احتراما للصنعة وللمهنة ، ارسم النكته او النكتتين مثل الاسطى « الاويمجى» صانع الأرابيسك الذى لا يرضى بعض الاحيان عن صنعة صبيانه فيعمل بيده.. هكذا أنا فى الكاريكاتير .. لكن اهم ما أحبه هو الرسم للأطفال .. وقد الفت كتابا – سيرة ذاتيه لى للاطفال كتابة ورسما بصيغة غير تقليديه ، فلم اذكر تخرجى ولا عملى وسميته « صداقة بلا حدود » عن الاشياء التى احببتها فى حياتى : الانسان ، الفكرة، الشجرة ، النخلة ، الغنوة ، المكان .. وقد قدمت من قبل ستة كتب كاريكاتير لكن هذا الكتاب هو اعز عمل عندى .

سكة .. اجمل

★ توجـهك الى الرسم للاطفـال هل هو يأس من الكبـار وامكانات اصلاحهم؟!!

ـــ هذا سبب .. والمناخ العام للحياه سبب ايضا .

★ الاسباب الاخرى ..

ـــ كنت ارسم للأطفال قديما ولم اكن مزهوا تماما بفكرة رسم لهم لكن جاءت فترة منعت فيها من ممارسة وجهة نظرى فى الرسم الكاريكاتيرى .. وكنت ارغب فى تفريغ طاقتى فى شئ ما فوجهتها الى كتب الاطفال وشكر من منعنى من التعبير بالكاريكاتير ، لانه فتح لى سكة اخرى أجمل وأرحب .. وليس الأمر يأسا بقدر ما هو تفاؤل بالغد .. وقد رفعت شعار « نحو بعد غد » واتجهت للأطفال .

★ ايعنى هذا ان الكاريكاتير قد وصل الى طريق مسدود ، وفقد قيمتة ، الاجتماعية ؟

ـــ لا .. ليس صحيحا لكن ربما تزيد العملة الرديئة على العملة الجيدة فتختلط الامور فيصاب الانسان بالاحباط .

★ الكاريكاتير يتجاهل مشكلات الارياف والبوادى العربية ويركز على مشكلات المدن .. هل تحول الى فن ارستقراطى ؟!!

ـــ أهل المدن ليسوا جميعا ارستقراطيين .. وغير صحيح انه يتجاهل اهل الريف والبادية لان مشكلة رغيف الخبز ليست خاصة بأهل المدن وحدهم ، بل بأهل القرى ايضا واعتقد ان الكاريكاتير عبر عنها جيدا ، وهناك فنانون من ابناء العملة الجيدة قضيتهم الفلاح وهجرة المصرى للخارج واغلب المهاجرين من الفلاحين .

الكاريكاتير الصادق حتى لو كان من يرسمه ابن مدينه بعينه الواسعة ورؤيته لابد من ان يساهم فى التعبير عمن لا صوت لهم .

★ رسام الكاريكاتير لا يحتاج الى ثقافة ، بل تكفيهُ الموهبة ، اليس كذلك ؟!!

ــ ابدا .. ليس صحيحاً .. الا اذا كان هو العرضحالجى الذى تكلمنا عنه .. فى تصورى انه لا بد للمتصدى للقضايا العامة والذى يحاول التعبير عنها ان يكون على درجه عالية جدا من ا لثقافه .. وخصوصا من يعبر عن هذه القضايا بالابداع الفنى .. ولا يعنى هذا ان رسام الكاريكاتير فيلسوف اعتقد انه « مفكر » يبحث فى الاشياء قد يصيب وقد يخطئ انما يشفع له انه صادق فى محاولتة لفهم الاشياء والتعبير عنها .

ومجالات الثقافة للفنان ليست هى القراءة فقط بل لا بد من أن يسمع الموسيقى ، يشاهد مسرحا ، يمارس الرحلات .. وهذا هو الفارق بين فنان موهوب وفنان موهوب آخر ، محصلته من قراءاته ورؤيته ومعايشته للحياة العامة .

★ صلاح جاهين ..شاعر اولا ام رسام كاريكاتير ؟! اتظنه تجربة انسانية يمكن ان تتكرر ؟

ــ هو فنان شامل رسام عظيم جدا وشاعر عظيم جدا وممثل .. انه فنان مبدع وفريد قد لا نرى مثله وان كان هذا نوعاً من اليأس لان من خلق صلاح جاهين سيخلق آخرين بنفس هذه الموهبة سواء فى الرسم ام الشعر ام الفنون الاخرى .

بهاجيجو !!

★ تناولت الديكتاتورية كثيرا فى رسوماتك .. الا تمارسها فى حياتك الشخصية ؟!!

ــ صعب ان اتحدث عن نفسى وامدح شخصيتى !! انما ارجو ان اكون ــ كما حاولت ــ ديمقراطيا فى حياتى ..اولادى منذ ميلادهم لا يقولون لى :بابا. بل يقولون يا بهاجيجو . ونحن اصدقاء منذ صغرهم ومع ذلك يحترموننى لكن بشكل خاص .

فى علاقتى بالاطفال فى الكتابه او الرسم لم أحاول أن أفرض على الطفل مقولات ثابتة جاهزة مثل هذا حسن وهذا قبيح او هذا حرام وهذا حلال ، هذا صح وهذا خطأ .. لم اقف ابداً فوق منبر لاكلم الاطفال انا افتح للطفل ذراعى واعتقد ان هذه هى التربية الصحيحة :انك تقول له : فى يدى خير لو رغبت فيه فمد يدك وخذ .

اقول له :احببت فى حياتى كذا وانت قد لا تحبه فليس اعظم صديق هو صديقى واحسن اغنية هى كذا!!! اقول له : احببت النخلة لانى رأيتها شامخة وحيدة فى الصحراء ومع ذلك معطاءة وخيرة ولا تشرب ماء كثيرا لكن تعطى خيرا وفيرا .. ذات مرة كنت باحدى الصحارى الخليجية ولم يكن موسم التمر ورغم ذلك سقطت على « صلعتى» تمرة جافة واحسست انها تحملها لى لتحيينى وتقول :«وأنا كمان بحبك» .!!

وقد قدمت كتاب «صداقة بلا حدود » بخط يدى فكأنة رسالة شخصية الى الطفل :فيها الالفه والود .. ولم يكن توقيعى على المقدمه « الفنان او الانسان او الاستاذ بهجت» بل «بهاجيجو» واعتقد ان الطفل انسان مثلى ، لا ينقصه الا الخبرة التى تتراكم على مر السنين .. واحاول ان اجعله يفكر ويختار ليصبح فى مستقبل حياته قياديا فلا يكون كموظف الحكومة الذى يقول هذه ليست مسئوليتى عليك بتوقيع رئيسى المباشر !!

★ هل تجد صدى واستجابة من الاطفال لا هتمامك بهم ؟!!

ـــ نعم اجد .. اعرف هذا من خلال احتكاكى بأطفال فى الاسرة ، واطفال اصدقائى ومعارفى واجرى معهم حوارات فأحس باستجابتهم وإتعلم منهم الحسن والسيئ من كتب الاطفال واسباب القبول والنفور بالنسبة لهم .

محظورات ..!!

★ رسامو الكاريكاتير العرب عالة على المدارس الشرقية والغربية فى هذا الفن .. هل تؤيد هذا الرأى ؟!!

ــ لا أؤيده .. لقد اقام معهد العالم العربى فى باريس معرضا لرسامى الكاريكاتير العرب .. حضره عدد كبير من الرسامين الفرنسيين ، وابدوا اعجابهم وانبهارهم بأعمالنا وقالوا لنا :انتم تلعبون في ملعب ضيق جداً :لديكم السياسه والدين والجنس محظورات .. وغيرها .. وعلى الرغم من ذلك تلعبون بمهارة عالية جداً .

وتقام مسابقات كاريكاتير فى صالون مونتريال بكندا ، وفى اسبانيا وايطاليا وبلغاريا واليابان ، ودائما يشترك رسامر الكاريكاتير العرب ويحصلون على جوائز عالمية .. فمثلا رشيد آيه قاسمى من الجزائر حصل على الجائزة الكبرى لصالون مونتريال .. جورج البهجورى من مصر حصل على جائزة البورتريه الكاريكاتير الاولى على مستوى العالم منذ سنوات قليلة .. على فرزات من سوريا حصل أيضا على جوائز .. وحصلت على الجائزة الاولى فى مهرجان الجزائر وشارك معنا رسامون من فرنسا وانجلترا وبلغاريا .

★ حقا .. هناك جوائز تمنح للفنانين العرب .. وهم متفوقون فعلا ، لكن تلاميذ فى مدارس كلها فى الخارج اى لا توجد مدرسة كاريكاتير عربيه خالصه كالمدارس الشعريه العربية مثلا .

ـ هذا ظلم للرسامين العرب لان الكاريكاتير بدأ متأخرا فى وطننا العربى .. إنا ننتمى لدول العالم الثالث – والثالث هذه فيها بحبحة فيمكن ان يكون التاسع مثلاـ ثم ان قضية حل الرسم او حرمته شاركت فى تأخير النهضه الفنية الحديثة

لكن لدينا رسامين عربا روادا فى فن اخراج الكتاب – من تصميم ورسم توضيحى – وهم وعلى مستوى عالمى قفزوا الى المقدمه بمجرد التقاطهم للخيط وممارسة الكاريكاتير بدأت متأخرة عندنا من خلال الرسامين الاجانب .. فبدأها فى مصر :سانتيز وصاروخان ، لكن بعدهما ظهر رسام الكاريكاتير المصرى العظيم « رخا» وقدم ابدعاته .

★ رسام الكاريكاتير هل هو فنان تشكيلى ضل الطريق ؟!

ـــ .. بل اختار الطريق . لقد تخرجت فى الفنون الجميلة قسم النحت وحصلت على المركز الاول بامتياز ولكن اختارنى الكاريكاتير .

★ هل تنعكس طبيعتك الفنية الساخرة على معاملاتك الاسرية ؟!

ـــ ليس بالضرورةان اكون كوميديان .. هناك رسامون ظلهم خفيف فى الحياة ، ومنهم من هو جاد . واذكر من ضمن الحرافيش الاديب محمد عفيفى اعظم كاتب ساخر فى الدنيا ولكن حين كان يكتب كنا نراه جادا جدا .

عمنا زهدي

★ ما هو ترتيبك لهذه الاسماء :حسن حاكم ، بهجت عثمان ، طوغان ، مصطفى حسين ، محيى الدين اللباد ، زهدى ، عمر شعبان ، رءوف ، محسن، دياب ، محمد حاكم ، تاج ، ماهر داود ؟

ـــ كل يسعى على قدره .. وانا واحد من هذه المجموعه، وليست مهمتى ان اقيم الاحسن والاسوأ.. لكن «عمنا» زهدى ازعم اننى تعلمت على يديه، فله الريادة .

★ من ناحية القيمة الفنية ام التاريخية؟!

— من ناحية الاثنين .. تعلمنا على يديه فن الكاريكاتير.. هو وعمنا رخا، وعمنا عبد السميع.

★ هل توجد قواعد لنقد فن الكاريكاتير؟! فالشعر له قواعد، وللمسرح ولغيرهما كذلك..؟

— أعتقد أنه يمكن أن تكون هناك قواعد، وان كانت غير موضوعه ومسجله.. فمثلا مدى صدق العمل، مدى قربه من الناس.، درجة فنيته في تناول الفكرة.

★ هل هناك من يمارس العمل النقدى هذا؟!

— فى كتابى «حكومه واهالى» تحدث صلاح عيسى فى مقدمته عن تقييمه للكاريكاتير.. عموما وفى كتابى «الديكتاتوريه للمبتدئين» اختار الناقد الادبى الكبير الدكتور على الراعى ان يكتب لى المقدمة ، وهو تكريم لهذا الفن .

★ من الذى سماك «بهجاتوس» ؟!!

— أنا الذى صنعت شخصية بهجاتوس، اى شخصية الديكتاتور . لكى لا يكون المقصود حاكما بعينه . وانما قصدت به حكام دول العالم الثالث . وبهجاتوس من بهجت .. ورسمتنى وشلت على كتفى «وزر» الأنظمه الحاكمه الحالية والسابقه والقادمه ايضا!!!



★★مصطفى حسين★★

★كمبورة والسماوىّ والأليت .. شخصيات حقيقية!!!

★رئيس الوزراء مبسوط منى جدا !!!

★ مطرب الأخبار .. مجموعة مطربين .. ليس واحداً !!

★ أنا وأحمد رجب .. تَطَبّعَتْ أفكارنا !!

كمبورة : مطرب الأخبار ، قاسم السماوى والكحيتى شخصيات أصبحت فى شهرة نجيب محفوظ وعادل امام !! يظنها الناس تسير على قدمين ، و «تتشعلق» ـ مثلنا ـ فى الاتوبيسات ، وتقف فى طابور الجمعية !! على الرغم من أنها مجرد « خربشات» فنية صاغتها ريشة مصطفى حسين ، هى وغيرها من الشخصيات الكاريكاتورية المشهورة .

حياة هذه « المخترعات» الفنية جزء من حياة الفنان نفسه ، ومؤشر لقدرته على الإبداع والتجسيد وفهم الروح العامة ، والوقوف على موطن الداء بالنسبة للناس من مختلف طبقاتهم ، ولا يقف دور مصطفى حسين عند هذا الحد ، بل هو «مصنع» ساخن دائما بالسخرية والاضحاك يغذيه فيض من التفكير المنظم لأحمد رجب ، ويصب فى اوسع دائرة للانتشار من خلال جريدة يومية كبرى.

ومصطفى حسين فى حد ذاته نكته كبرى ـ لا من ناحية الشكل ، فهو منسجم الملامح ـ بل لأنه يسخر فى جدية شديدة ، ويمكن أنْ نضع كل عبارة من عباراته تعليقا على رسم كاريكاتورى ، خاصة اذا كان يتحدث بطبيعته فى جو غير رسمى !!

قلت له :

★ أنت صاحب أشهر شخصيات كاريكاتيرية : قاسم السماوى وعبدالروتين ، وكمبورة ماذا عن التاريخ الشخصى لكل منها : كيف نشأت وترعرعت ؟!!

— قال: اعرق شخصياتى هى عبدالروتين ، كانت بدايتها ١٩٧٤ لانه موجود فى المصالح الحكومية ، وفى حياتنا بصفة عامة ، وسوف يستمر ، واعتبره من أهم الشخصيات لأننا جميعا نتعامل مع موظفى الحكومة ونعانى منهم .

ومآرب اخرى

وشخصية كمبورة وجدت أثناء انتخابات المحليات .. وكان لدى سؤال : هل الوطنية مسيطرة على هؤلاء المرشحين للانتخابات ، وانفاق هذه الاموال الطائلة لمجرد ان يؤدى احدهم خدمة بضمير صادق ، وبحس وطنى خالص ؟! أن وراء هذا الانفاق منافع شخصية ومآرب اخرى .. وقد اتضح لى أن هناك أزمة زجاج مقاس ٦ ملليمتر وخشب... والمحليات لديها اذن الصرف لهذه السلع كنوع من التجارة ، وتدر دخلا كبيرا للمسئولين فى هذا المجال .. فالهدف هدف مالى لمثل هؤلاء المرشحين .. فاخترعت شخصية كمبورة للتعبير عنهم .

وتطور كمبورة فدخل انتخابات مجلس الشعب ولاعضائه مآرب أيضا ومنافع ، ونفس الاسباب والاغراض والمصالح .. ومعروف أن هناك « فئات» مالية لكل خدمة يؤدونها للناس من خلال توقيعات الوزراء !! فهذه شخصية انتهازية وتبيع اباها لاجل قرشين اثنين !! وقد ظهر كمبورة كشخصية عام ١٩٧٦ أى أن عمره الان ١٨ عاما

أما « مطرب الاخبار» فاعتبرها واحة صغيرة فى الصفحة الاولى المكتظة باخبار الحرب والضرب والتطرف والارهاب .. الخ .. وقد عاشت هذه الشخصية اكثر مما توقعنا لها ، فلها عشر سنوات من العمر ، وهى تقيم فى خانة واحدة ، وحول موضوع واحد ، وهو ما يجعلها شاقة فى تقديمها جديدة كل يوم ، ومضحكة ، وهى فى هذا الشأن كالباب الصغير « الحب هو» الذى ظهر فى يناير ١٩٧٤ ونستميت فى أن يكون جديدا دائما

والشخصية التى تحيا فى برج عاجى وبعيدة عن مصالح الناس هى « عزيز بيه الأليط» الذى يتكلم لغة تختلف عن لغة الناس العاديين ، فحين يرى ـ مثلا ـ طفلا ممزق الثياب وبائسا يقول له : « يا بنى انت ممكن تأخذ كاسين ويسكى تدفى نفسك بيهم » هو يعيش فى غيبوبة وقد حدث لقاء بينه وبين « الكحيتى» الرجل الفقير المعدم ليبدو التناقض بين الطرفين على المستوى المادى ، لكن الكحيتى يحرص على أن يضع رأسه فى رأس « الأليط» وهذه مصيبته . ومن الشخصيات الاخرى « قاسم السماوى » وبلغه السينما « قماشته ضيقة » لان الحقد الذى يتسم به مجال واحد من مجالات المشاعر الانسانية وبهذا لا يظهر إلا قليلا .

ابو جعورة!!

★ أيوجد « عمر افتراضى » للشخصية تقضيه ثم تنتهى ؟ وما الذى يمكن أن يطيل بقاءها جماهيريا ؟

ـــ شخصية كالمطرب طال عمرها ـ برغم أنه يضرب كل ليلة !! فالمسألة متعلقة بالفكرة ، وامكانات حركتها الواسعة ، وتغير أشكالها وتطويرها .

★هل قابلت افرادا فى الحياة العامة استوحيت منهم هذه الشخصيات المضحكة شكلا ومضمونا ؟

★ نعم .. أنا أقابلهم بغير عمد .. فاحيانا اذهب لمصلحة حكومية لقضاء حاجة ما فيقول لى بعض الموظفين : فى الحجرة المجاورة لنا « عبدالروتين» موجود.. فأراه فاذا هو حقا ، وادرك ان القراء هم الذين يحددون الشخصيات ، الا شخصية « عبدالله» التى أمثل بها الشعب المصرى .. فقد أخذتها من ساع فى مكتبى شكله مصرى صرف ، وهو من صعيد مصر .. فتوسمت فيه أن يكون نموذجا لشخصية المصرى .. أما كمبورة فكان يتجسد لى فى شخصية ممثل اسمه « محمد شوقى » : رجل العبان ، وخفيف الظل ، ونصاب فى نفس الوقت .

★ مطرب الاخبار.. يقال أنه شخص معين أنت تقصده ؟

ـــ لا أريد أن أظلم شخصا ما ، لان هذا المطرب يعد فى حضيض المطربين وله « جعورة» خاصة ، ولهذا يضرب كثيرا .. فان الصقتها باى من المطربين فسيكون هذا هدما له .

★ لا تريد الصاقها بواحد منهم لان اصحابها كثيرون جدا ؟

ـــ فعلا .. هم كثيرون .

محطات فنية

★ علاقتك بالكاريكاتير .. متى بدأت .. وما هى محطاتها الرئيسية ؟

ـــ عملت بالصحافة قبل التحاقى وتخرجى فى الفنون الجميلة .. فى دار الهلال بدأت بتقديم رسوم توضيحية .. لكن أميل وشكرى زيدان اعطيا لى فرصة عمل غلاف مجلة « الاثنين والدنيا » أيامها، ورسمته بالكاريكاتير وكانت

هذه بدايتى باعتبار أن لدى هذه الخاصية ، فليس أى فنان تشكيلى يجيد رسم الكاريكاتير ، لكن لابد أن يكون « الكاريكاتيرست» فنانا تشكيليا فى الأصل ، لقد وجدت ـ دون عمد ـ أن لى القدرة فى مجال الكاريكاتير منذ زمن بعيد ، وتحديدا منذ عام ١٩٥٥ بدار الهلال .

★وماذا عن المحطات الأخرى فى حياتك الفنية ؟

ــ أبرز ما فيها أنه اتيح لى رسم ذلك الغلاف فى سنى الصغيرة حينها ، وكانت حدثا ضخما فى حياتى . بعدها عملت فى معظم صحف مصر ، حتى استقر بى المقام فى أخبار اليوم ، والمحطة المهمة الأخرى انى بدأت عمل الكاريكاتير اليومى الذى أرسمه منذ عام ١٩٧٤ ، لان العمل اليومى له تأثير ، ويختلف عن العمل الاسبوعى فى مجلة .. الجريدة لها ثقل ووزن عند القارئ والتتابع اليومى له صداه .

★ أتتذكر رسما جر عليك متاعب سياسية ، أو اجتماعية ؟

ــ فى فترة الستينيات كانت لى بعض الرسومات التى جرت على متاعب من هذا النوع وكان الكاريكاتير حينها يفسر ، واذا وضع محل تفسير أو تفتيش فقد الإحساس به ، وقيمته تكمن فى الانطباع الأول المباشر الطازج ، وحدثت بعض المتاعب فى السبعينيات أيضا ، أما فى السنوات الأخيرة فلا يحدث هذا ، ومن المعروف أننى أتناول شخصيات كبيرة فى الدولة ، دون احراج ، أو مساءلة ، أو لوم أو حتى عتاب

★ والدكتور عاطف صدقى ـ رئيس الوزراء ـ ألا يتحدث معك عن رسوماتك له ؟

ـــ ولا عاطف صدقى .. بل بالعكس ، هو مبسوط مما أقدمه !!

★ وماذا يقول فى هذا ؟

ـــ يقول أنه يستفيد منه !!

الثنائى الضاحك !!

★ الثنائى : مصطفى حسين وأحمد رجب متى بدأت حكايته وماذا يعنى فى الصحافة والكاريكاتير ؟

كان التقاؤنا فكرة لعلى ومصطفى أمين ، وكا ن أحدهما ـ حينها ـ فى لندن ، والثانى فى المعتقل ، لكن كان شغلهما الشاغل ـ حتى فى هذه الأوقات ـ جرائدهم ومجلاتهم ، كانا صاحبى أمل دائم حتى فى هذه اللحظات ، ويفكران فيما يمكن أن يحدث من تطوير فى الاخبار اذا عادا ، وفى ثانى يوم لعودتهما من السجن ومن لندن كلمانى ـ وكنت أعمل فعلا فى أخبار اليوم فقالا : نقترح عليك أن تجلس أنت وأحمد رجب « لتسوية» فكرة الكاريكاتير .. واتضح أن نظرتهما بعيدة فقد تركت أثرا فى القارئ ، وكانت فكرة صائبة وناجحة .

★ اكانت السبب فى نجاح شخصياتك الكاريكاتورية ؟

ـــ طبعا .. بدون جدال فلو عملت وجدى بدون أحمد رجب فقد ينجح العمل بنسبة ٦٠٪ لكن التقاء فكر أحمد رجب مع فكرى ينضج الأفكار أكثر ، ويمكن أن يصل العمل الى ٩٠٪ أن لم يكن ١٠٠٪ وأحمد رجب كاتب ساخر معروف وله طريقته فى تناول الأمور .. ومنذ البدايات كان لى أسلوبى

الخاص ـ لانى كنت أرسم قبل التقائى به ـ وقد حدث نوع من التأقلم والتطبيع بين أفكارنا ، لدرجة أن الكلمة الواحدة التى تعبر عن موقف ما اليوم يمكن أن تخرج من فمنا فى وقت واحد .. فنحن منذ ١٩ سنة نلتقى يوميا ونتبادل الافكار.. وارى الان تفكيرنا موحدا ، وسوف يكون الامتداد فى نفس السكة ، أما قبل هذا التمازج فكان الموقف مختلفا : فلى طابعى الخاص وله طابعه الخاص فالتأقلم الذى حدث طوال هذه السنوات جعلنى أكسب منه أشياء كثيرة ، وأصبح هو يملك نمط تناول الأشياء أو الدخول إليها ، واعتقد أننا قدمنا طريقة ما ، هى الان طابعنا .. أما من قبل فكان لى أسلوبى الخاص المختلف عن فكرنا المشترك ..

الطبيخ البايت

★ لحظة الابداع بالنسبة لك .. هل توفر لها طقوسا معينة .. أم أنها تأتى حسب الظروف ؟

ـــ العمل الصحفى جعلنى أواكب عملية الطباعة ، والممارسة الكثيرة زمنيا وفرت امكانية التنفيذ السريع ، لان المطبعة فاتحة فاها تريد أن تطعم بكاريكاتير وملء المساحات ، وخبرة السنوات الطويلة جعلتنى استطيع تنفيذ الرسم فى الوقت المطلوب وبسرعة .

الكاريكاتير فن ، لكنه ليس فى الاتيلييه أو الاستوديو ، أى يحتاج الى أن اتمهل وأبحث فيه وافكر فى العلاقات اللونية والظلال والنور وغيرها .. إن الكاريكاتير فن اعلامى سريع .. أما اللوحة فلها مراسم خاصة وطقوس ، لانى اتناول فيها اسلوبا فنيا خالصا من علاقات لونية وظلال وأضواء ، تكوينات

محسوبة ، أسلوب متميز ليضمن التفرد وأنا فى الاساس مصور ، وهذا التمهل والتأنى الان غير موجود ، لان العمل فى الصحافة أكلنى وجعلنى متمرسا فيه وأضحى هو طابعى .

★ بعد أن ترى عملك منشورا .. هل تضحك منه ؟

ـــ الطبيخ « البايت » طعمه فى فم آكله !! فلا أفاجأ بما أرسمه ، والكاريكاتير تأثيره فى مفاجأته .. أو أن تقرأ ، ثم تجد آخره شيئا غير ما توقعت ، فهذا يثير الضحك أو الابتسامة على الأقل .. لكن لأننى مسبقا أعرف النكته فلا أضحك إلا اذا كانت صارخة جدا ، ولها ظرف خاص ، فيمكن أن نجلس أنا وأحمد رجب نضحك عليها لفترة طويلة لانها « فاقعة» جدا ، أماالغالب فأنا متوقعها وأعرفها .

ذبح الأزواج !!

★ حرية الفنان ، والزواج .. من خلال تجربتك الشخصية هل هما متناقضان ؟

ـــ هذا يتوقف على الزوجة لا على الزواج نفسه .. فهناك زوجة لا تقيد الزوج فقط ، بل تذبحه !! وأخرى تعطى للزوج حرية مطلقة اذا كانت واعية وفاهمة لطبيعة عمله ، وهى تساعده فى أن ينطلق أكثر ، واذا كان هناك ود بين الطرفين فسوف تدعمه .



★★ بوسطجى النكد والحب.. محمد حاكم ★★

★ الكاريكاتير خروج على القانون!!

★ دفنت المرأة النكدية .. فالناس لا تحب النكد !!

★ « سى السيد » يدخل تحت السرير .. من حماته !!

★ لكى يزدهر الكاريكاتير .. لابد من الحرية

رغم أن آراءه كلها تخرج من الأعماق لتدخل إلى الأعماق سواء أكان التعبير عنها بالكلمة أم بالصورة .. ينقل اليك كل الانفعالات : السرو ر، والرضا، والغضب، والوداعة من بين بسمة شفتيه التى لاتجف ابدا .. وليس لكلامه موانع ولا قواطع، وان كان لايقول الا ما يرغب فى قوله .. رغم ذلك كله فقد لفت حوله كثيرا ليحدثنا عن خصوصياته ، وزوايا الظلال العاطفية فى حياته ، فكا ن مدركا لما اقصد ويحيد عنه فى دبلوماسية !! لكنك - رغم ذلك - اذا جلست معه ساعة ستضحك خلالها ساعتين ! قلت للفنان محمد حاكم:

★ اثنان من كبار رسامى الكاريكاتير من اسرة واحدة هما اخوك الأكبر حسن حاكم وانت .. هل الكاريكاتير وراثة ام انها مهنة مربحة ؟

ـــ قال : لايوجد شئ من فراغ .. الحياة تبنى لبنة فوق اخرى .. وكل منا يفيد من خبرة سابقه ، لكن له خبراته الشخصية التى استقاها بنفسه من مختلف المواقف .. فاذا لم تكن مؤهلاتى الكامنة بداخلى تنحو فى اتجاه فن الكاريكاتير ما كنت قد افدت من « حسن » شيئا ،لان المؤثرات الخارجية أضعف من المكونات الاساسية .

(اول اعتراف)

لقد كنت صغيرا ارى اخى الأكبر « هو يسبقنى بستة عشر عاما » وهو يرسم، فاتفرج عليه ، ولى أخوة اخرون ليسوا رسامى كاريكاتير مثلنا .. وهذا التأثر الخارجى دفعنى إلى الأمام بعض الشئ ولم يخلقنى .. لان حسن حاكم لم يكن يريد أن أرسم .. وهذا اعتراف أدلى به للمرة الأول . انه مسألة حساسة .. واذا تعاملت مع إنسان من الخارج ترى ايجابياته فقط ، لاترى سلبياته ، واذا سمع اننى اصرح بعدم رغبته في ان اخوض هذا المجال يقول : « الواد ده كداب » !

حقا كان يشجعنى – بداية –فى الرسوم ويشترى لى بعض ادواته ، وذلك لأنه يحب الرسم ، لكن حين رغبت في دخول كلية الفنون الجميلة رفض هذا المطلب .. قلت له : ان هذا هو الطريق الطبيعى الذى خضته انت من قبلى ، قال: ماذا تفعل بها ؟ هل تعمل بالصحافة « يعنى ايه تشتغل فى الصحافة » هكذا كان نص كلماته . وقد ايده فى هذا الموقف صديقه القديم مصطفى حسين .. انتسبت للكلية بعد ذلك اثناء دراستى للاداب .. لقد كان مجموع درجاتى فى الثانوية العامة يلحقنى بأرقى الكليات كالاقتصاد والعلوم السياسية مثلا.. لكنى رفضت هذه الكلية وقررت أن « ألف» من الخلف وهما غير منتبهين ، والتحقت بكلية الآداب – قسم الصحافة – وقد تعمقت فى مجال الصحافة نظريا تعمقا كبيرا من خلال قراءاتى ، وانا قارئ جيد ، ولى ملاحظات على هوامش جميع الكتب التى اقرأها فى مختلف المجالات وان كان اهتمامى الأكبر ينصب على اتجاهين : تاريخ الديانة اليهودية ..فلابد ان اعرف عنهم كل شئ لاستطيع التعامل معهم– على المستوى الفنى والسياسى – الاتجاه الثانى هو كتب الاطفال والدراسات حول الطفولة فى جميع مراحلها .. ومعظم محتويات مكتبى من هذين الفرعين .

★ أكان اخوك يخشى ان تنافسه فى مجال الكاريكاتير ؟

ـــ لا .. لا .. حاكم فى تلك الفترة كان الرسام الأول والأوحد فى مصر من الخمسينيات وبدايات الستينيات ، وكان رسام الثورة الأول رغم وجود صلاح جاهين فى الاهرام ، وكان هو وقتها فى المساء .

كانت مكانته هذه ليست ممالأة للثورة ، بل إحساسا بها ، وبأسباب قيامها وتوجهاتها ، ودوافعها . فحينما كنا نقيم بمحافظة الشرقية ، وكان أبى ضابط شرطة بالديوان الملكى – لم يكن يمنعنا من الاختلاط بالفلاحين ، رغم انه يمثل السلطة .. وكنا نحبهم ولست أدرى اكانوا يحبوننا أم لا – فاصبح أخى حاكم عارفا بهموم هذا الشعب وطبقاته المرهقة ، وبرغم كتابة يوسف إدريس عن « العسكرى الأسود » وجبروته ، وكتابات الشرقاوى عن السلطة والشرطة واضطهادها للفلاحين ، فان ابى لم يكن من هؤلاء الظالمين ، وكان شذوذا عن القاعدة .. فرجل مثله ما كنت أصحو من النوم ليلا الا وأراه جالسا يصلى ، لا يمكن ان يضطهد الضعفاء ..فهذه النتشئة جعلت حسن قريبا من الشعب ، وفى الوقت نفسه عارفا بمهازل الملك وحاشيته من الداخل ، عن قرب .. فأحسن التعبير بعد ذلك عن هذه الحالة واجاد فى وصفها كاريكاتوريا .

واذا كان أخى فى هذا المستوى من المكانة الابداعية – بل والجماهيرية ، لدرجة انه كان يسير فى الشارع فيشير اليه الناس ايام عنفوان الصحافة قبل استيلاء التلفزيون على بعض المساحات منها ودوره فى صناعة النجوم – اذا كان اخى هكذا . فقد نظر الى على اننى لن اضيف جديدا ، وكان ينظر هذه النظرة الى كل رسامى مصر .. رغم أنه كان اصغر منهم سنا – حينها – لا لان أولى الأمر اعطوه مكانا يرسم فيه ويستعرض قدراته ، بل لان « يده متينة » حتى الآن ، وفى رأيى أنه من القلائل الذين يجيدون هذا الفن ليس فى مصر وحدها بل فى المنطقة كلها .

★ سمعت رأيا من أحد رسامى الكاريكاتير بأنك أعمق منه .. فهل ترى هذا الرأى ؟

ـــ غيبة حاكم الطويلة فى الكويت جعلت الناس فى مصر ينسونه .. ولأجل ذلك بعد رجوعه تلاحظ فى مجلة « كاريكاتير » أن اسمه فى الاعلانات يقال « حاكم الكبير » فهناك حاكم موجود فعلا – هو أنا – والجار أولى بالشفعة لكن لى سكة أخرى مختلفة عنه ، وعن غيرى ممن ينضوون تحت جناح مدرسة « روز اليوسف » التى تعد فريدة فى مجال الكاريكاتير .

★ ظللت عدة سنوات ترسم كاريكاتير « البوسطجى» فى « صباح الخير » وكانت حوله حكايات من القراء .. هل تتذكرها ؟ لماذا توقف ؟

ـــ كان البوسطجى بابا ثابتا على مدى عدة سنوات .. ومن المعروف أن «صباح الخير » كروز اليوسف قائمة على الكاريكاتير ففى كل صفحة رسمة أى صورة أو « خربشة » . وكنت أرسم البوسطجى فى مربع أسبوعى ..وأركز فيه على رسائل الحب بين الرجل والمرأة ، باعتبارها اقرب إلى الذات والوجدان،وبعد أن اصبح الحب مطاردا فى بلادنا بدافع النهم الاقتصادى وصراع البقاء ، حتى ان الجار لم يعد يعرف جاره ، واذا رآه بالصدفة لابسا ربطة عنق سوداء يقول له : ماذا حدث ؟ فيرد : ابى مات منذ ثلاث سنوات ، وحتى فى العيد حين سكنت هنا – بالهرم – لأول مرة ، قلت للناس : كل سنة وأنتم طيبون ، فكانوا ينظرون إلى باستغراب !! انهم لا يعرفوننى ولا أعرفهم فكيف أتمنى لهم السعادة وطيب الحياة ؟

كنت اركز على معالجة قضية الحب هذه بين الناس .. واذا رسمت الفتاة حزينة منفردة ، كان القراء يرسلون إلى خطاباتهم متسائلين : لماذا أعضبت البنت وتركتها وحدها ؟

وقد ظل هذا الباب فترة طويلة ، ثم اغلقته لأسباب داخلية متعلقة بالعمل فى المجلة حينذاك ولأقدم ما هو جديد .

(النكدية)

★ ألم تقدم أبوابا أخرى على هذا النمط بعد توقفك عن « البوسطجى » ؟

ـــ قدمت رسما اسبوعيا ثابتا عن المرأة « النكدية » التى تتفنن فى ايذاء زوجها بلسانها السليط وحركاتها المستفزة .

★ ألا تتذكر بعضا من طرائف هذه الشخصية ؟

ـــ فى إحدى سفريات زوجها إلى خارج القاهرة قالت له : « ماتنساش يامنيل تبقى تكلمنى كل يوم فى التليفون علشان انكد عليك شوية !! ونوت الذهاب الى السوق وهو نائم فايقظته تقول له : « اصحى يامنيل .. اختى هاتتصل بيك بعد ثلاث ساعات تنكد عليك علشان انا مش راجعة الا آخر اليوم !! وظللت ارسم هذه الشخصية حوالى أربع سنوات .. ثم توقفت عنها .

★ لماذا توقفت ؟

ـــ لانها نكدية !! والناس لا تحب النكد !! وقدوصلت الى رسائل كثيرة تقول هل « الستات » فقط هن النكديات ؟ ان هناك رجالا نكديين ايضا!! وفى اخر مرة ودعت فيها النكدية رسمت قبرا ، وزوجها يبكى الى جانبها بحرارة ويقول لها : « سيبتينى لمين يا غالية ينكد على » ؟

★ أى الشخصيات الأخرى عالجتها غير هاتين الشخصيتين ؟

ــ الشخصيات الكاريكاتورية نوعان ، شخصية موقف مثل البوسطجى والنكدية وشخص مجسم كالموظف مثلا ..وكلا النوعين مقبول من الناس ، والنكدية هذه كنت فى كل مرة ارسمها بشكل مختلف ، لكن ترى فيها دائما دواعى النكد!! وبعد رسائل الناس الكثيرة احتجاجا على تصوير النكد فى صورة امرأة ، رسمت شخصية اسمها « سى السيد » وبه بعض مواصفات شخصية نجيب محفوظ الروائية لكنها ليست نقلا حرفيا منها .. شخصيتى رجل كل همه ان يأكل ويشرب وينجب اطفالا « وينكد» على زوجته لكن رغم عنفوان الزوج فان زوجته « الغلبانة » بمجرد ان تقول له « امى تدق على الباب »يدخل تحت السرير !! فهى قد قهرته من أول يوم زوجته فيه ابنتها !!

(العيب .. فيمن ؟!)

★ لمن تضحك أكثر .. عادل امام أم مصطفى حسين ؟

ــ الكاريكاتير مختلف عن النكتة العادية، ليست مهمته الإضحاك ، بل السخرية ولأجل هذا كان أول منشور يصدره نابليون بمجرد احتلاله الاسكندرية هو المتضمن قوله : «إياكم وحديث المساخر » أى النكتة والتعليقات الساخرة ، والسخرية لا تعنى الضحك ..واذا كانت هذه مهمتها فيمكن ان ادعو شخصا ، يزغزغنى لاضحك واستغنى عن الكاريكاتير .

★ الكاريكاتير صحافة الغد .. ما تعليقك على هذه العبارة ؟

ــ هو ليس صحافة الغد .. ولو فرضنا أنه يكون كذلك فلا بدّ أن يوضع إلى جانبة بند كبير جدا اسمه « الحرية » .. ليس من السلطات فقط بل من رؤساء التحرير ايضا ، ومن الجماعات خارج السلطة . وهى جماعات غير منظورة .

فاذا كان الفنان يرسم وفى ذهنه أن هناك ردود فعل سيئة لعمله ، فهو يحجم نفسه بنفسه ، واذا حجم نفسه فلن يبقى منه ما هو ذو قيمة .. والكاريكاتير مهم جدا فى مجتمع كمجتمعنا لانه يكشف العيوب ، لكن هل كل الناس – بمن فيهم رؤساء التحرير– لديهم الاستعداد لقبول هذا ؟! فاذا قلنا ان الصحافة تسير برجلين اثنتين احداهما عرجاء فستكون هى الكاريكاتير لا لانه مقصر بل لانه يخشى منه ، الدليل على ذلك كل الجرائد اليومية فى مصر : فرساموها لا يناقشون قضايا مهمة ، بل مشاكل هامشية . ولا نعرف سبب هذا: أهو عيب فى الرسام أم فى سياسة الجريدة أم رؤساء التحرير : لا ادرى !!

إنهم لا يعيشون مشكلة اساسية إلا إذا تكلمت الحكومة .. فمثلا اذا تحدثت عن البوسنة والهرسك تحولوا إليها . وإذا تنبهت للصومال اتجهوا بريشاتهم إليها . واذا عولت الحكومة على الانتفاضة الفلسطينية اهتموا بها .. وهكذا !!

أما الشائع لديهم فى رسوماتهم فمسائل كانتخابات النادى الاهلى – مثلا– وكم من الناس تهمهم هذه الانتخابات .. خمسة وعشرون الفا؟ اين هم من عشرات الملايين ؟؟ وماذا تفيد الانتخابات الرياضية هذه الطوابير الواقفة فى انتظار الخبز ؟ وليس لازما الحديث فى السياسة بشكل مباشر .. فمشكلات الكهرباء يعانيها ملايين المواطنين ، ويمكن تناولها كاريكاتوريا .. وقد فعلت هذا فى أكثر من رسم منها : ان « محصل » كهرباء طرق باب أحد المنازل ليلا فخرجت صاحبته حاملة فى يديها « لمبة كيروسين » تضيئ بها .. فقال لها « مهما تعملى.. عليك فلوس كهربا » ولاجل حريتنا فى التناول ، وصدقنا ،وصراحتنا فى روز اليوسف يتردد اى مسئول بالجرائد القومية اليومية فى اختيار اى منا للعمل فيها ويقول : اننا « بتوع مشاكل .. ولبط » ونحن فى رأيهم خارجون على القانون !!

اي عينيك .. تختار ؟!

★ لو خيرتك بين ان تكون كاتبا كبيرا فى صحيفة ورسام كاريكاتير .. فأيهما تختار ؟

ـــ اختار الرسم .. فيه أستطيع ان اقول ما أريد وأؤثر ..فالكاريكاتير لو وضعته الى جانب مقالة لاعظم كاتب فسوف تنظر الناس إلى الرسم .. كان القراء يفتحون الاهرام على رسومات صلاح جاهين .

★ أخذت من السودان الاسم والجنسية ..فماذا اخذت من مصر وبقية العرب؟

ـــ باقى حياتى .. كل الحياة ..

★ لو خيرت بين المرأة والكاريكاتير ..فماذا تختار ؟

ـــ سؤال صعب ..كمن يقول لك .. اى عينيك تختار ؟ أتختار التنفس أم الاكل ؟ لكن لو ذكرت لى الطفولة لقدمتها على كل شئ حتى الرسم .

★ لو رسمت بورتريها ..على أى شئ من الملامح البشرية تقع عيناك أولا ؟

ـــ البورتريه له مواصفات ، ليس شرطا ان يكون الفنان رساما مجيدا ليرسم البورتريه جيدا . لان المدخل لرسم البورتريه روح الشخص المرسوم .. لاجل هذا حين ارسمه اتأمل فى عدة صور للشخص فى حالات عديدة ، وأعايشها فى إمعان ، ثم أبعدها عنى ، واتمشى فى الشارع اعيش معه فى الحركة ، اى اتمشى معه ، واشرب الشاى واقرأ الجرائد وهو الى جانبى ، ثم ابدأ بعد ذلك فى رسمه .

فمثلا حين رسمت اسحق رابين ، من خلال الصور التى شاهدتها له ، وفكرى عنه وعن خلفياته السياسية ، واختيار اميركا له على غير ما يعرف الكثيرون حين رسمته قدمت صور شرير لا مسالم .

★★ رسام الغلابة محيى الدين اللباد ★★

★ الفنان الحقيقى لا يأكل على مائدة أى سلطة!

★ أنا ضيف على الكاريكاتير.. !!

★أصبح عندى « الوقاحة» لتولى القيادة الصحفية فى سن مبكرة!!

★ مازلت أعتبر نفسى .. رسام كاريكاتير .. هاوياً !!

الفنان اللباد ، رسام «الغلابه» مع سبق الإصرار والترصد ، ويقف على قمة شامخة من الإبداع التشكيلي: رسم الكاريكاتير، وتصميم الكتب والمجلات، ورسوم الأطفال والتأريخ للفن التشكيلي ايضا.. ورغم أن هؤلاء الغلابة الذين أفنى حياته تعبيرا عنهم بالكلمه الباسمة ، والخطوط الساخرة قد لا يعرفون عنه شيئا ، وقد لا يكون بعضهم شاهد أو قرأ له كثيرا أو قليلا!! وهو يعد نفسه واحدا منهم يعرض قضاياهم بريشته ثم «يأكل من بيته» لا من رسوماته!

سألته:

★ فى طريق الفن عثرات كثيرة وحواجز .. كيف قفزت واحدا تلو الآخر فى شوطك الطويل مع فن الكاريكاتير ؟

ــ علاقتى بدأت بالرسم المطبوع فى سن قبل القراءة ، وهذه سمه مهمة للكاريكاتير ، إنه يحمل موقفا وفكرا ويؤدى خصيصا للطباعه لأن هناك رسوما كثيره ولا تعد للطباعه.. ولذلك تطور الكاريكاتير بتطور الطباعة، فحينما كانت بالحجر قديما ، ثم بالاكليشيهات المعدنيه ، ثم بعد ظهور الأوفست كانت تحدث فى كل فتره تطورات وتغيرات مماثله فى الكاريكاتير ونحن فى انتظار ما يسفر عنه الكمبيوتر اذا كان سيحل محل الطباعه، وستصبح لدينا خلطة جديدة

بين الكمبيوتر والتليفزيون والصحافة ، وقد احترفت رسم الكاريكاتير قبل نهاية المرحله الدراسية الثانويه ، فنشرته بانتظام وتقاضيت عنه اجرا ، حتى دخولى كليه الفنون الجميلة كان بدافع صقل هذه القدرة وليس بنية ان اكون مصور لوحات زيتيه .

وقد مرت بى صعوبه تمثلت فى اشتغالى بعدة مهن فنية فرضتها ظروف عامة — فخضت مجال رسم الكاريكاتير والرسم للأطفال وتصميم الكتاب والمجله والخط العربى كان هذا يبدو احيانا فى سن قبل الثلاثين انه خبرة خاصة تتوازى أو تتقاطع لكن العلاقه بينها لم تتضح بعد وكانت هناك تساؤلات عن اننى البس« قبعه» فى كل فترة امارس فيها عملا مختلفا اتصور انه يريح الانسان ويرضيه ان يوجد بين جميع المصادر الاساسيه لكل هذه التوجهات ، وان يكون هو نفس الشخص بنفس خبراته ومواقفه.

شمس جديده

★ لو تذكرت مجموعة من الأسماء فى حياتك الأسرية والعامه والفنية .. فمن تذكر؟

— الاسرةفى بداية نشأتى قدمت نوعا من السماح البسيط الذى كان يتخلله نوع من الزجر ، بحجه اننى اضيع الوقت فى قراءة الصحف والكتب ، لكن هناك من أثروا فى بشكل مباشر وبعيدا عن محيط الاسرة .. منهم حسن فؤاد وحسين بيكار ثم صلاح جاهين وجورج البهجورى هؤلاء جميعا اهتممت بهم وهناك غيرهم ايضا لكن هؤلاء فى المقدمه .

بيكار درس لى فى الفنون الجميلة والاهم من هذا اننى كنت صغيرا حينما صدرت سندباد حامله رسوم بيكار سنه ١٩٥٢ثم تعرفت على كتب اشرف

حسن فؤاد على تصميمها واخراجها فى عامى ١٩٥٥و١٩٥٦ ، فى هاتين الحالتين احسست ان كلا منهما شمس جديدة اشرقت .

★ وماذا عن محاولات التشبيط التى واجهتك من اسرتك فى الصبا والبدايات ؟؟

ـــ أنا من اسرة ريفية من دسوق مركز كفر الشيخ وفرض على أن اكون اول قاهرى فى العائلة فقد كان ميلادى بها وكان أبى استاذا بالازهر وهو اول من تعلم خارج القرية وتخرج فى الازهر من اسرته فليس لدينا سوابق لهذه المهنة ومدى الإحساس بجديتها واحترافها فى الاربعينيات – وانا من مواليد ١٩٤٠ وقد عانيت ايضا من احاديه الفهم لدى الاسرة المصريه المتمثل فى ضرورة تفوق الابن، وحصوله على المركز الاول فى المدرسه والجامعة ثم يتخرج الابن ليعمل موظفا ملتزما وكلها توجهات وخطوات لحساب المؤسسة العائليه نفسها لا لحساب الفرد.

من الاول الي الثامن!!

وقد كنت الاول على زملائى فى مراحلى الدراسية المبكرة ثم احسست بالحصار الاسرى الشديد لأبقى الاول دائما ، لا لحسابى بل لحسابهم ، فمللت وتراجعت متعمدا من الاول الى الثامن وكنت فى سن الثالثه عشره وبعد هذا التراجع احسست اننى تحررت من هذا النضال الوهمى .

وحتى الآن لدى نوع من التحفظ على مسأله الاول هذه ولا احب ان يكون اولادى من الأوائل لكن لا يكونوا مهملين او متخلفين .

وكانت هذه الرغبه لدى الاسرة فى تفوقى تدفعهم الى التململ من شرائى للكتب والمجلات وانكفائى عليها ليل نهار وقد أفادنى كثيرا فى البدايات أن ابى

لم يكن يستطيع الحكم على هذا النوع من النشاط «فن الكاريكاتير» من الوجهة الدينية والاجتماعية ، وبالتالى تركنى لوحدتى وكان هذا من حسن حظى ، ومن سوأ حظ ابنى الذى دخل هذا الكار وانا موجود فيه .. لان هذا قد يعنى نوعا من الرقابة عليه .

ارتكبت جريمة

★ اين كانت بدايات نشر اعمالك الفنية ؟

ــ كان اول ما نشرت فى مجله التحرير التى كانت تصدر عن دار التحرير وبدأت برئاسة تحرير ثروت عكاشة ثم حمروش ثم سامى داود .. اعطتنى صفحه عام ١٩٥٦ وعمرى ١٦ عاما تقاضيت عنها اجرا وانا ما زلت تلميذا بالمدرسة الثانوية ..

بعد هذه المرحلة اجتذبنى بيكار الى مجلة سندباد التى كان يرأس تحريرها سعيد العريان فتحولت من قارئ رسام الى رسام محترف فى سن الثامنة عشرة واشركنى فى تغيير التصميم الأساسى للمجله الذى كان قد أخرجه هو من قبل.

وقد ارتكبت جريمة احسبها على نفسى وهى اننى اشتركت فى وضع تصور لهذة المجله لتنتقل الى مجله تجاريه تجارى الذوق العام وليزيد توزيعها فى مواجهه منافسيها فى ذلك الوقت مجله سمير ومجله ميكى وفى ١٩٦١ دعانى صلاح جاهين للعمل فى روزاليوسف كمتعاقد ثابت قبل تخرجى بسنه فبدأ لى اهتمامان اساسيان هما الكاريكاتير والرسم للاطفال ، وفى ١٩٦٣ انتدبتنى دار التحرير وكانت تعد لا نشاء مجله اطفال فى حين كانت مجلات الاطفال بمصر اما اجنبيه او مقتبسه وليست عربيه اصيله وكان سيل المجلات القادمة من لبنان فى طبعة عربيه وفكر اميركى قد بدأ يزداد مثل مجله سوبرمان وطرزان فولدت

لدينا فكره عمل مجله للاطفال عربيه مصرية شكلا ومضمونا .. وقد صممت هذا المشروع وصدرت المجله باسم كروان وطلب منى ترشيح رئيس التحرير وكنت مدير التحرير قبل انضمامى لنقابه الصحفيين فاقترحت اسم نعمان عاشور فعين رئيسا لتحريرها ولم تنجح هذه المجله تجاريا لكنها فى الحقيقه سجلت جزءا مهما من التراكم المحلى فى مجال الكتابه للاطفال وخرجت عددا كبيرا ممن أصبحوا متفرغين ومتخصصين فى هذا الموضوع وأثرت - رغم انها لم تصدر الا اربعين عددا تقريبا - فى سياسة واتجاهات المجلات الاخرى التى كانت موجودة واصدرناها لنضرب لهم مثلا بها وفى الوقت نفسه قدمت لى خبرة لا بأس بها واصبح عندى الوقاحة لان اتصدى لقيادة بعض المشروعات الصحفيه فى سن مبكرة !

رسام البعض !!

★ الفنان محيى الدين اللباد رسام الغلابة .. ما تعليقك على هذه المقولة ؟

ــ أنا اعتبر نفسى من الغلابة الذين ذكرتهم وانا ايضا صانع كتب الغلابه ورغم ذلك لم افكر فى هذا ابدا لكن ما استطيع التأكيد عليه هو اننى لا رسام مؤسسات كبرى ولا رسام البنيات القويه كالحكومه مثلا ..

وبالتالى فانا رسام للوجه الآخر: للشعب واتحمس اكثر لتحقيق دور ما لدار نشر صغيره تحاول ان تزاحم من اجل البقاء وسط غابه صراع الكبار واشارك ايضا مع كاتب ليس نجما وليس انيس منصور ولا احسان عبد القدوس ولا يوسف ادريس.. لست ادرى اهذا اختيار منى ام ان طبيعتى هكذا ..

كما اننى لا اسعى لان اكون فنان الجميع فهذا ما تحدده الطبيعه نفسها وليس قرارا من اجل احد والتكوين لدى ادى لان اكون رسام البعض اى هناك

من يتابعه ويتقبله ويحسن الظن به واخرون يستخفون بعمله ولا يرونه حسنا ولو خيرت لاخترت ان اكون رسام الغلابه دائما وبرضا كامل لا كجمهور لان هؤلاء الناس بعيدون عن القرار والقراءه وفرض النجم لكن اؤدى موقفى لأكون معهم ومعبرا عنهم حتى لو لم يعرفوا هذا او يقدروه لانهم لا يستطيعون ان يدفعوا ثمن موقفنا .

الخواف..!!

★ اسم اللباد ماذا يعنى ؟

— تصورت انه صانع اللبده اى طاقيه الفلاح القديمة لكن أبى كان قد قال لى ان اصل عائلتنا من المغرب وقدم لى كتابا للعقاد فيه ذكر احد العلماء المغاربه الذين هاجروا الى مصر وكان بنفس اللقب .

ومنذ فتره قليلة كنت افتش فى فهرس الاعلام بدار الكتب فوقعت يدى على افيش باسم عبد الرحمن بن اللباد من القيروان له عده كتب وكان عالم دين وفى المغرب الاقصى قابلت ناسا يحملون نفس اللقب .. فالاسم لا ادرى أهو صنعة ام صفة وفى ليبيا قالوا لى ان هذا اللقب يطلق على الخواف الذى يلبد او يكمن «خوفا» !!

وحتى الان يخطئ الناس فى اسمى بين اللباد واللبان واللبودى واللبابيدى وكنت اوقع باسم العائلة حتى خمس سنوات مضت حين تخرج ابنى فى الفنون الجميلة وهو فى المهنه نفسها ويحمل نفس اللقب ولذا اضفت اسمى الاول ووقعت محيى اللباد ويوقع ابنى الان اسمه ثنائيا .

★ ومتى دخلت عائلتك مصـــر ؟

ـــ لا ادرى على وجه الدقه لكن لنا حوالى سبعة جدود ولدوا فى مصر ومنطقتنا فى شمال الدلتا - مركز دسوق - فيها هجرة مغربية كثيفة وفى لكنة قريتنا شباس الملح شئ من الغرابه من لهجة المغرب كالامالة الشديدة فى الكسر والتخفيف والتصغير .

★ لو عرضت عليك احد رسوماتك وأمامك رسومات اخرى لفنانين مثل حسن حاكم وبهجت عثمان ومصطفى حسين واحمد طوغان فاين تضع رسمك بين هؤلاء على المستوى الفنى ؟

ـــ اغلبهم زملاء احترم عملهم واقدر قيمته ودور بعضهم التاريخى والسياسى والفنى وكل واحد منهم يمكن ان يوجه اليه ملاحظات ليس هذا محلها ، لكن لاحظ ان هؤلاء جميعا اكبر منى سنا ربما بعشر سنوات أو اكثر ..

★ مصطفى حسين فى سنك ..

ـــ هو اكبر بحوالى ثلاث سنوات على الاقل .

★ اظن.. من الناحية السنية احمد طوغان اولا ثم حاكم ثم بهجت ..

ـــ نعم.. وما اتمناه ان اعوض فارق السن بينى وبينهم تعويضا فنيا وهناك فارق آخر بيننا هو اننى قد ارى نفسى رسام كاريكاتير هاويا ، لست محترفا تماما .. اننى بدأت حوالى ١٩٥٦ .. فالفارق بينى وبين طوغان - زمنيا - كبير.

★ هو بدأ عام ١٩٤٢ ؟

ـــ نعم.. أما بهجت وحاكم ومصطفى حسين فقد بدأوا ينشرون فى منتصف الخمسينيات .. وبالتالى فالعمر الفنى بينى وبينهم ليس كبيرا .. لكننى لم اعط ولائى للكاريكاتير لظروف كثيره ولا حتى لجريدة محدده .. وكنت

اجرب على مدى فترة طويلة ، ولم يكن هناك مكان متسع لمثل هذا التجريب في الصحف .. واحيانا اعتبر نفسى ضيفا على هذه المهنة .

ازمة سينيه

وبالمناسبة أرى أن « اكل العيش» بالكاريكاتير مسأله صعبة ، وليست مقنعه بالنسبة لي ، وليس من الممكن ان يعتمد الانسان فى معيشته على مهنه اساسها - كما افهم- الرفض والهدم، واتصور - حسب المثل الشعبى- ان الانسان يرسم الكاريكاتير ويأكل من بيته اى من مهنه اخرى وهذا ليس اختراعى ، بل اكتشفت حين تعرفت على عدد من رسامى الكاريكاتير المهمين فى الخارج - وخاصه فى فرنسا - اصحاب المواقف المعارضه اعتمادهم فى المعيشه ليس على الكاريكاتير ، ففى سنه ١٩٧١ اول مره ارى فيها اوربا وكنت اتابع رساما فرنسياعجيبا وليس تقليديا اسمه سينيه ولدى كتبه حينها وكانت تباع فى مصر وحين زيارتى تلك لفرنسا عرفت اقامه معرض له فى احد المطاعم وذهبت لمشاهدته ورأيت سينيه فطلبت ان اجلس معه بعيدا عن الزحام بعد المعرض ، فطلب عنوان اقامتى فى فرنسا «باريس» ليزورنى انا وصديقى الرسام السورى .. وفى اليوم التالى قدم الينا هو وزوجته المصوره الفوتوغرافيه على «موتوسيكل» !! وسألته: اين تنشر اعمالك؟ فقال: قل لى عن جريده فرنسيه تنشر اعمالى وانا أنشرها!! ولم يكن متصورا لى أن الرأى يحارب ايضا فى فرنسا ، ويمنع صاحبه بسببه!!

وسألته: من اين تعيش؟ قال: اعمل فى شركه النفط الجزائريه مصمم مطبوعات!! وكان سينيه هذا عضو جبهه التحرير الجزائريه - رغم انه فرنسى - وكان يزيف لهم جوازات السفر والوثائق ومنحازا جدا لتحرير الجزائر .. وكان

نجما فى اول ظهوره حتى اتخذ هذا الموقف الانسانى فحورب ، ومنع من جميع الصحف الفرنسيه ولم يتزحزح عن موقفه .

★ لكن فى مصر الان اصحاب ملايين من رسامى الكاريكاتير.

ـــ اشك فى ان تكون هذه الملايين من الحرفه نفسها .. ربما من شئ شبيه بالكاريكاتير وليس له تأثير فى أحد ولا يصح أن يأكل رسام الكاريكاتير على أكثر من مائده .. ورأيى الا يأكل اصلا على مائده ، بل يأكل فى بيته من مهنة اخرى ، فى عصر تعقدت فيه المساحات المشتركه فى الرأى بين الاعلام والسلطات الحاكمه .



★★الفنان .. إسماعيل دياب ★★

★رسمت أول لوحة .. فى الخامسة من عمرى.. ونلت «علقة ساخنة» !!

★أبى الأزهرى .. اعتبرنى فاجراً فاسقاً .. وحلق شعرى !!

★هذا الزمان .. قضية الكاريكاتير .. « دقى يامزيكا» !!

★ليس رساماً كل من يعرى ساقاً .. ويشوه وجها!!

قد تظنه – للوهلة الأولى – ممثلا تراجيديا : أخذ من نجيب الريحانى بعض ملامحه الحزينة ، وترك له تقاسيمه السارة !! ويتلبسك هذا الانطباع وأنت تسمع مطالع كلامه .. أما إذا تواصلت معه دقائق فسترى نفسك – بغير شك – أمام ساخر عظيم . لأن سخريته ملفوفة فى ورقة شفافة أنيقة نظيفة .. كلامه كاريكاتير : فيه بساطة الفلاح المصرى ، وتدفق نهر النيل ، وبدا لى أن فيه أيضا طفولة .

حين جلس يحكى لى كيف « فتن» عليه زميله فى كُتّاب القرية – وعمره خمس سنوات – فقال للشيخ : « الواد إسماعين رسمك يامولانا زى البقرة » حين استرجع معى هذه الحادثة الطفولية لم أر فارقاً كبيراً بين « الواد اسماعين » والفنان الكبير «إسماعيل دياب » .. فالصفاء هو هو ، والحميمية ، وتلقائية الفن .. وكذا كل الموهوبين : أطفال فى صورة شيوخ . !!

قلت له :

★ فن الكاريكاتير بالنسبة لك حرفة و « أكل عيش » أم هواية ، أم قضية ؟!!

قال :

— فى البداية كان هواية ، ومع مرور الزمن أصبح حرفة و « أكل عيش » .. أنا أعيش منه الآن بصفتى صحفيا . وأعمل فى هذه المهنة منذ عام ١٩٥٩ كمحترف .. وأصل دراستى الفنون الجميلة . وكل خريجى هذه الكلية يفيدون من عملهم كرسامين ويعيشون منه أيضا . وأنت شاعر وتعرف هذه المسألة جيداً : فيمكن أن تصدر ديواناً عظيماً لا لتحتفظ به فى مكتبك بل لتوزعه على الناس ، حتى يجمع ما أنفق عليه على الأقل :!!

(جرس .. من الغيبوبة !!)

★ الحقيقة أننا ننفق عليه ولاننال غير الخيبة !!.. وأراك فى هذه الإجابة تستبعد الخيار الثالث وهو (القضية) التى تتبناها وتعيش لها !!

— لابد من وجود قضية ليعيش الكاريكاتير .. فهو أصلا ينشأ فى مناخ حافل بقضايا كثيرة ، لاقضية واحدة . ويجب أن يحرص الرسام على إظهار السلبيات فى المجتمع ، أما التأكيد على الإيجابيات فليس فى حاجة إليه ، الإيجابيات تؤكد نفسها ، أما السلبيات فتتولد من وجود قضايا اجتماعية أو سياسية أو فكرية ، ولاتجد الحل المناسب والإجابات الدقيقة عليها . وهذا الدور لرسام الكاريكاتير مهم لتنبيه المسئولين إلى هذه السلبيات على الأقل . إن الكاريكاتير جرس ينبه الناس من سباتهم العميق أو لحظة الإغفاء والغيبوبة .

★ لوخيرت أن تعمل كاتباً بأجر مجزٍ فى صحيفة أو مجلة ، أو أن تعمل رساماً بغير أجر .. فأيهما تختار ؟!!

— ما هو الفرق بين الكاتب ورسام الكاريكاتير ؟! إن هذا الفن ينقسم إلى نوعين : مكتوب يؤدى فكرة محددة دقيقة ساخرة ، وهذا يمثله ما يكتبه زميلنا أحمد رجب والنوع الثانى يرسم .. فأنت تؤلف قصيدة جيدة جداً ، وعلىّ أن أقرأ

جيداً أيضا ، وأعيها تماماً ، وأضع لها رسماً يناسب هذا الكلام الرائع ، أى قطعة ورق « سوليفان» أضع فيها الشعر فألفت إليه النظر .

والكاريكاتير غير المكتوب هو أن تضع الرسم ويؤثر فى أي متلقٍ : المتلقى البسيط والمتلقى العالم العظيم .. ويهمنى أن أؤثر فى أكبر عدد من الناس بصفته لغة عالمية، لغة الصم والبكم ، أى كلٌ يستطيع فهمها : أمياً كان أم مثقفا .

إذن فى هذه الحالة – أى الكاريكاتير بدون كلام – أبلغ من مائة مقال . إن الرسم الواحد على عامود أو اثنين أشد من عشر صفحات صحف تكتب . قد نقول كل ما يعن لنا عن وصف حالة البلد فى بيتين من الشعر تصوز ما يمكن أن يقال فى عدة كتب ، وكذا الأمر بالنسبة للكاريكاتير .

(لا أصلح كاتبا !!)

★ أيعنى هذا أنك يمكن أن تعمل رسام كاريكاتير بغير أجر ؟!

ــ نعم .. لأنى لا أصلح كاتبا . أريد أن أعمل فى المجال الذى أتقن ، كل يعمل فى مجاله الإبداعى : شاعراً كان أم قاصاً أم روائياً أم فنانا تشكيلياً .. لكن كل هذه الثقافات تصب فى رسام الكاريكاتير لأن عينه وأذنه ترى وتسمع كل هؤلاء المبدعين ..

إننى أقرأ لك حين تكتب ، وأقرأ لنجيب محفوظ حين يكتب ، وموسى صبرى ، وثروت أباظة ، وأحمد عبد المعطى حجازى .. وكل منهم له اتجاهه وطعمه ، وأخرج من كل واحد منهم بشئ يزيدنى فى مجالى .. فلست فى حاجة لأن أكتب ، بل أعبر بالرسم الذى لايستطيعون هم أن يعبروا به ، حتى لو لم أحصل على أجر .

★ فى حى من أحياء القاهرة الشعبية ، امرأة سمينة طرحت أرضاً صاحبة البيت الذى تقيم فيه . وجلست عليها وسط الشارع حتى لفظت أنفاسها ، والناس يتفرجون على هذا الموت البطئ فى سلبية كاملة !! هذه صورة كاريكاتورية من الواقع ، وأظن الكاريكاتير أقل منها فى القدرة على التعبير عن مثل هذا الموقف المأساوى والضاحك معاً !! والكاريكاتير لم يقدم قراءة لهذه الصورة وماوراءها من دوافع اجتماعية وإنسانية وعلاقات بين المالك والمستأجر ، والثرى والفقير ..ألا يعد هذا مؤشرا لتخلف الكاريكاتير عن الأحداث الخطيرة والدقيقة ؟!! وماذا لو عبرت أنت عن هذا الموقف كاريكاتوريا؟!!

— هذه القضية ليست وليدة اليوم .. إن الزمان يكرر نفسه ، فشخصية (رفيعة هانم) التى قدمها أستاذنا عبدالمنعم رخا كان بها أشياء من هذا القبيل : المرأة الضخمة جداً التى تمثل كل القوى ، والرجل الضعيف زوجها بلا حول ولاقوة، وكانت كاتمة على أنفاسه لا وهى فوقه فقط، بل حتى وهى إلى جانبه!!

وهذا الموقف يدل على عدم المبالاة التى يعيشها مجتمعنا الآن ، ولم تعد الناس تهتم ببعضها ، فنرى حادثة العتبة ، والخطف ، والنشل بالقوة فى وسائل المواصلات العامة بغير مقاومة من أحد . فالنظام العام به تفكك وخلل ، وملئ بالسلبيات ..

★ وماذا تقول لو علقت على هذه الصورة ؟!

— يمكن أن تقدم بغير تعليق . فالقوى يركب الضعيف وقضى الأمر .. ويمكن أن توضع تحتها عبارة : (قدر الله ولطف)!!

★ قدر ولم يلطف !! إنها ماتت!!

ــ لطف لأنها لم تقم من تحتها حية ، لأنها كانت ستقتلها مرة ثانية !!

★ سنة أولى كاريكاتير .. متى بدأت بالنسبة لك ؟! وفى أى السنوات أنت الآن على المستوى الفنى ؟!

ــ أنا الآن تحت أنظار المتابعين ، وهم الذين يحددون موقعى من الآخرين فى هذا المجال . رسام الكاريكاتير مدافع عن قضايا .. ويرى هذا العالم مسرحاً كبيراً أو (الاستديو) بالنسبة له . وهو يرى مافيه من شخوص ، ويؤدى دوره بناء على هذا دفعاً وكشفاً للسلبيات ، وتأكيداً للإيجابيات على المستوى الاجتماعى والاقتصادى والفكرى والسياسى .. أما أين أنا من هذا فالإجابة لدى الناس جميعا: مثقين وغير مثقفين .

(علقة ساخنة !!)

★ ومتى بدأت سنة أولى كاريكاتير ؟

ــ رسمت أول لوحة كاريكاتير ، ونلت (علقة ساخنة) بسببها وعمرى خمس سنوات ، حين كنت فى كتاب القرية ، ولا أعرف شيئا عن الكاريكاتير. لكنى كنت أعرف ألعاب الأطفال من أهل المدينة - بحكم اتصال أبى بالقاهرة - وكانت هذه الألعاب من آلات وعدد تفك وتركب .. والتحقت بالكتاب فى الخامسة من عمرى بقرية شبرا النخل - ببلبيس فى محافظة الشرقية - فعائلتى هنا أصلها ، وأبى الدكتور محمد دياب ، وعمى المفكر توفيق دياب . تربيت فى هذا الوسط العلمى وبالتالى فحين كنت أذهب للكتاب كنت مميزاً عن الأطفال الآخرين ، فلا يضربنى الشيخ ، وخاصة أنه يحصل على أجره من الشيح الكبير الذى هو أبى عالم الأزهر .

وفي أحد الأيام رأيت الشيخ نائماً ، وكان بديناً جدا ، وعبارة عن (قرمة) كبيرة : رجلان تحملان كتلة لحم ضخمة . فأمسكت بالريشة والدواة ، ورسمته على اللوح الصفيح الذى كنا نكتب عليه ، فضحك الأطفال بشدة ، وقال العريف – أحد الأطفال لكنه كان أكثر منا حفظاً وأكبر سناً – قال : «الواد اللى اسمه اسماعين رسمك ياسيدنا بشكل وحش »!! فقال الشيخ : « كيف رسمنى ؟» فرد العريف : « زى البقرة » !! . فهب الشيخ بعصاه وضربنى ضرباً شديداً على أرجلى ، وكان هذا أول جزاء أناله عن الكاريكاتير ، وأنا لا أعى شيئا عن الرسم ، الذى علمته بعد ذلك حين التحقت بالمدرسة الابتدائية وحصلت على أول جائزة فى رسم (المحمل) بعدة ألوان ، وكنت فى السنة الأولى .

★ أى أنك رسمت الكاريكاتير قبل أن تراه ..

ـــ نعم .. لم أكن أعرف عنه شيئا .. لكن عمى توفيق دياب كان يشجعنى، ويدفعنى للرسم »ويشترى لى أدواته .

★ أول رسم رأيته .. كان لمن ؟!

ـــ رأيت نماذج كثيرة من خلال مكتبتى أبى وعمى .. لكن أول رسم أثر فىّ كان للرسام الفرنسى (ريمون) فى (أخبار اليوم) وهو صورة رسمها عن السل بعنوان (يارب اشف بابا) .. أما أول رسمة رسمتها أنا فهى رسوم الفراعنة.. ويبدو أن هذه سلسلة متوارثة عن مصر القديمة .. يخرج من ظهر الفراعنة ناس برون – أول مايرون – رسوماتهم ، لأنها مبسطة جداً وتعتمد على الخط الصريح والكتلة ، وهذا يعطى فرصة للتعامل معها بسرعة .. كمن يقدم للمبتدئ الشعر الجزل ، وهو لديه الملكة فيبدأ فى تقليده ، مع وجود الموهبة أصلاً .

(الصامت... يمثل !!)

★وماذا عن سنة ثانية وثالثة كاريكاتير .. مانالك من « علقات » أخرى على نطاق أكبر ؟!!

ــــ كانت مرة واحدة فقط . وقد التحقت بمدرسة الخديوى اسماعيل الثانوية بالقاهرة .. وبدأت براعتى فى الرسم تتضح منذ الابتدائية بتشجيع من حولى ، لكن لم أكن أعرف أهميته حتى التحقت بالثانوية ، فكانت هناك جمعيات ثقافية وللصحافة والخطابة ، وكان زميلى فى هذه المرحلة الفنان حسن يوسف .. فقد التحقت بهذه المدرسة وكان هو سابقاً لى بعامين ، وكان مشرفاً على جماعة التمثيل ، وكان معى فى الفصل الدراسى نفسه حسين الشربينى وقد فوجئت به حين قابلنى فى التليفزيون مرة فذكر لى أنه قد تخرج فى معهد السينما فتعجبت : لقد كان صامتاً ولانشاط له فى المدرسة أو التمثيل مثل حسن يوسف الذى كان عملاقاً فى سنه .. وقد بدأت أقيم بعض التماثيل بالمدرسة ، وأرسم لوحات هى حتى الآن تملأ معمل الكيمياء عن العلماء ، وهى مرسومة بالرصاص والفحم . وكان يشجعنى أحد مدرسى اسمه إبراهيم حسنين خريج كلية الفنون التطبيقية بلندن . وكان أساتذة الفنون الجميلة يمرون على المدارس الثانوية لالتقاط المواهب فى مجالهم ، فتعرفت بمصطفى متولى الذى دفعنى إلى الفنون الجميلة ، وكان رئيساً لأحد أقسامها .

★ بعض الفنانين يختلق شخصيات كاريكاتيرية من خياله .. ماذا عن هذه الشخصيات فى قاموسك الفنى ؟!

ــــ لى شخصية ، السبب فيها حبيبى الغالى المرحوم حسن فؤاد .. كنت معروفاً برسم ما يحدث فى الريف ومظاهره ، لارتباطى به حتى الآن : فأسرتى ممتدة جذورها فى القرية .. يتعلمون فى لندن ويعودون إلى الريف المصرى .. وقد وقعت حادثة فى قريتنا بأن أحد بكوات القرية حين مر عليه أحد الفلاحين كبار السن من أمام دواره – أى قصره – راكبا حماره ، وكان « البك » واقفاً فوق سطح قصره ، فقال لهم : « هاتوا الواد إللى راكب حماره ده » فقبض عليه زبانية

الإقطاعى هذا وضربوه وسقوه الماء عنوة - عدة أسطال - حتى كان يقيئ ، وهم يسقونه حتى سقط على الأرض فاقداً وعيه ، بغير ذنب إلا أنهم قالوا له : كيف تمر أمام القصر و « سيدك » واقف أمامك ؟!! فقال : لم يكن أحد واقفاً !! فأشاروا إلى الكلب وقالوا : ها هو ذا سيدك كان واقفاً وأنت تمر .!!!

فى كل هذه الأحداث - حوالى عام ١٩٤٨ - كنت طفلا ، وواعياً بعض الشئ ، ورأيت ما يحدث أمامى بعينى .. تذكرت هذه الواقعة حين قال لى حسن فؤاد : نريد تقديم شخصية جديدة .. وكان بهجت قد قدم شخصية الفرّاخ .. فاقترحت تقديم شخصية (محمود بك عبد الماضى) وحتى لا يغضب محمود السعدنى - بعد احتجاجه - سميناها (عبد الماضى) .. وقد عاشت فترة طويلة بعد الثورة .. وهو يمثل الطبقة الجشعة المتسلطة . واستعنت بخفيره النحيف جداً كالفتلة ، مشيراً به إلى الشعب المطحون . والكاريكاتير لا يعتمد على الرمز ، لكن كانت هذه أول مرة نستخدمه فيها لتقديم هذه الصورة. وقبل هذه الشخصية اخترعت شخصية (الحمير).. وذات مرت قدمت حماراً خارجاً يترنح من (بار) بعد أن سكر وخرج يقول : أنا باشرب عشان أنسى إنى حمار !! وكانت هذه الشخصيات تسمى (حمير دياب).

(يتحدي .. الزعيم !!)

★ هل تذكر أبرز نكتة قدمتها على لسان عبد الماضى ؟!

— أشهر نكتة قدمتها عنه أن عبدالناصر حين حصل على الدكتوراه الفخرية من فرنسا غضب جداً (عبدالماضى بك) .. وحمل خفيره «قُفّة» كبيرة ، وسافر إلى فرنسا ليملأها دكتوراهات فخرية !! وكان لهذا الكاريكاتير وقع كبير حينذاك.

★ اسم (دياب) أيعود إلى (دياب بن غانم) الموجود فى (السيرة الهلالية)

والأدب الشعبى بعامة ..؟!

ـ ربما .. والله أعلم !!

★ وما هو الاسم الكامل ؟!

ــ إسماعيل جمال الدين إسماعيل دياب .. هذا ما أعرفه ..وبعده توجد أسماء أخرى (دياب) ..

★ هل تحتفظ فى ذاكرتك بشئ من حكايات عمك الأديب توفيق دياب ؟!

ــ كان يتكلم الإنجليزية كأحد أبنائها ، وكان واسع الصداقات ،وله ثقل أدبى كبير . ومتمرد ، وخطيب مفوه .. ومع ذلك طيب الطوية . وأتذكر وأنا طفــل أنه كان يهدينى لعب أطفال ومنــها بابور زلــط وكنت أراه لأول مرة فى حياتى !!.

★ أكان يريدك أديباً مثله ؟!

ــ لا .. لم تكن هذه الرغبة فى أسرتى .. وما كنت أجرؤ أن أجلس مع أهلى الكبار ، بل هى مداعبة لمدة ثانية فقط . ومع ذلك فقد رأيت معظم أدباء مصر فى دارنا بالحسين بالقاهرة أوبالشرقية .. رأيت عندنا عباس العقاد ، والشيخ عبد الرحمن تاج ، والشيخ أحمد شفيع ، والشيخ طنطاوى ، والشيخ عبدالحليم محمود الذى كان أقرب الناس إلى الأسرة ، ورأيت كل علماء الأزهر فى ذلك الحين .

(كاريكاتير .. في السجون !!)

★★ يلاحظ أن الشعر يزدهر فى السجون .. ويموت الكاريكاتير .. هل يرجع هذا إلى صمود الشعر وقدرته على المواجهة وضعف الكاريكاتير وعجزه عن التحدى ؟!

— إن حوائط السجون مليئة برسومات الكاريكاتير .. لقد مر زهدى وحسن فؤاد بتجربة الاعتقال ، ولم يقض عليهما ولا على إبداعهما . وقد عبرا عن قضيتهما بالرسوم داخل السجن على الأسوار .. لكن حين يخرج الفنان إلى الحرية يعبر أفضل وأكثر .

أما الشعر ففي رأيي أنه يختلف تماماً عن الكاريكاتير ، فالشاعر يختزن علمه وخواطره داخل نفسه ، فإذا وجد الفرصة انطلق وعبر حتى ولو على ناصية شارع.. الرسام يحتاج إلى مكان يعبر فيه كالصحف مثلا ، وإلا لظل مجهولاً ، وقد انتشرت الصحف هذا الزمان وكثرت ، وكانت على أيامنا قليلة ، ومن يدخل من باب روز اليوسف مثلا – كأنه كان داخلاً إلى معبد أو إلى الأزهر بحذائه !! فتنظر كيف يكون الانطباع هنا !! المجال الآن أصبح مفتوحاً ، فضعفت قيمة الكاريكاتير ، ولم تعد بنفس القوة والحرارة التى كانت موجودة منذ ثلاثين أو أربعين عاماً مضت .. كانت هناك أمانة فى التعبير ، وهى تؤدى إلى نجاح الكاريكاتير وما يناقش من قضايا .. وأظن هذا متوافراً فيما تقدمه من قصائد – مثلا – لكى يحترمك الناس مادمت تحترمهم ..

الناس تظن الآن – بعد كثرة الصحف – أن كل من « يرعش » خطاً فقد «عمل» كاريكاتيراً ، وكل من يعرى سيقاناً فقد عمل كاريكاتيريا ، وكل من يشوه وجهاً فهو عمل كاريكاتيراً ، وكل من يعبئ المكان بكلام كالبالونات فالناس تظنه رسام كاريكاتير .. وهذا على غير الحقيقة .. لقد كثر الرسامون فى هذا المجال مثل شجيرات الأرز التى لا « تشتل » فتخرج كلها ضعيفة مع ازدحامها .

وهذا الفن يستخدم الآن فى الصحافة كنوع من التجميل والزخرفة لا كقضية . وقد سمعت إحدى الممثلات الراقصات فى برنامج إذاعى تقول حين

سألوها عن محتويات مكتبتها : إن بها ثلاثة آلاف كتاب .... وسألوها : أتقرأينها؟! قالت : لا .. إن مصمم الديكور لشقتى قال لى : اعملى مكتبة هنا لتجميل الشقة فعملتها . !!!

والكاريكاتير الآن مثل مكتبة هذه الراقصة فى شقتها : مجرد ديكور !!

وقضية الكاريكاتير أصبحت قضية « دقى يامزيكه » !! لاتعرف نغمة العود من الفلوت من الناى ، كله ضائع ، وزائغ ، وذائب ، و«مولد»!! شأنه شأن الأغنية (الهبابية) التى تنضح علينا هذه الأيام . !!

(فاجر .. فاسق !!)

★ أسرتك والكاريكاتير .. ماذا عن العلاقة المتبادلة بينهما ؟!

ــ أول من يرى رسوماتى هم أسرتى .وإذا رسمت فكرة أقدمها لأول من أراه أمامى . وإذا وردت إلىّ فكرة الآن سأرسمها أعرضها عليك لأرى صداها وقد تأثر بى ابنى الأصغر أحمد وبدت موهبته فى الرسم.

★ قلت إن والدك كان شيخا أزهريا .. هل ثبطك فى بداية حياتك الفنية ؟!!

ــ نعم .. عارضنى حقاً . وكان يأمرنى أن « أخرم» لوحاتى الزيتية من الشمال ، ليكون هناك فصل بينها وبين التمثال ، وهو حرام !! وقد حلق لى شعرى عدة مرات !! وكان ذلك حين عرف أننى التحقت بكلية الفنون الجميلة، بعد تحويلى من كلية الحقوق إليها وكنت قد قضيت فيها عاماً واحداً، وكشف تحويلى منها الشيخ أبو زهره بعد أن نبّه أبى إلى ذلك . واعتبرنى أبى فاجراً فاسقاً !! وكانوا يظنون هذا العمل بلا مستقبل .

★ كلية الفنون الجميلة أصبحت الآن تخرج مدرسين لا فنانين .. لماذا ؟!

ـــ الفنان عنوان البلد ، وكان الشاعر قديماً عنوان قبيلته ومضرب المثل فيها ، والرسام المتخرج فى الفنون الجميلة هذه الأيام قاده إليها (المجموع) فى الثانوية العامة لا الموهبة . وهناك فنانون لاعلاقة لهم بالدراسة الأكاديمية ،ولكنهم قد يكونون يوماً ما عظماء كبيكاسو ورفائيل وسيزان .. هؤلاء لم يدرسوا فى كلية ، إنما تعلموا فى (ورش) فنية .

فيا حبذا لو أخرجوا كليات الفنون الجميلة من تحت وطأة وزارة التعليم وألحقوها بوزارة الثقافة ، ويدخلها الموهوبون منذ المدرسة الابتدائية حتى الثانوية . كلٌ فى مجاله : الشعر ، المسرح ، الرواية ، الفن التشكيلى ، الإخراج السينمائى، الموسيقى .

★ أخطر كاريكاتير رأيته .. متى .. ولمن ؟!!

ـــ مازلت أذكر رسماً أعتبره أخطر كاريكاتير فى وقته ، وهو خفيف على قلبى : كان لصلاح جاهين ، يصور فيه دواوين الحكومة والفساد المستشرى فيها. فرسم مواطنا « غلبانا » ويحمل (عرضحال دمغة) وفوقه كوب شاى ، ويقدمه للموظف المسئول قائلا : « أدينى جبت لك الطلب على عرضحال دمغة.. أما أشوف إيه بقه المطلوب تانى » !! فأنت لا تقضى حاجتك وحقوقك إلا على (عرض حال دمغة) حتى لو كنت تدفن ميتاً . !!



★★ عبدالعزيز « تـــاج » ★★

★ انتقلت من صفحة القراء .. إلى رسم غلاف « سمير» !!

★ أرفض أن يعمل ابنى .. رسام كاريكاتير !!!

★ يجب أن تكون درجة حرارتى .. ثمانين درجة مئوية !!

★ مهنة صعبة تعتمد على الخلفية الثقافية الواسعة

اذا كان الجو ساخنا بالهموم فضع «تاجا» على رأسك!! أو اجلس الى جانبه لحظات سوف تضحك بغير تنكيت ولا سخرية .. وسوف تصفو نفسك من صفاء طبيعته وتبسطه في الحديث فلامنع ولا قطع ولا حرج لديه اذا سألته أو سألك .

ما زال الفنان عبد العزيز تاج يحمل من الريف جل ملامحه : الصدق والود والبساطه والطيبه حتى لكأنك نشأت على صداقته وتربى على صداقتك .

أما هذه القبعه التى يلبسها فلست «أفتن عليه» وأقول انه يدارى بها صلعته !! فاذا كانت هى قد سترته فكيف «أفضحه» أنا؟!!

قلت لتاج :

★ المدخل الطبيعى لخوض مجال الكاريكاتير هو دراسة الفنون الجميله والانطلاق منها أكان هذا هو بدء علاقتك بفن الكاريكاتير ؟؟

ـــ قال :

منذ المدرسه الاعداديه احببت الرسم ، وكنت الاول على محافظه كفر الشيخ واحساسى بأننى الأول على آلاف التلاميذ دفعنى لتتبع كل الرسومات بالصحف فبدأت الاطلاع على الرسومات بمجله الاثنين والدنيا التى كانت تصدر عن دار الهلال ولفت نظرى رسام فرنسى اسمه برنى فحرصت على شرائها دائما لأجل هذا الرسام والعفاريت التى يرسمها !!

كانت تعجبنى فيها الحركة والرأى لا كالرسوم التوضيحية التى أرى فيها الجمود .. وأخذت فى تقليد برنى ونقل رسمه .

على الحائط

★ هل تلقيت تشجيعا دائما من اسرتك وممن حولك من المجتمع الصغير ؟!!

— نعم .. وكنت ارسم من حولى من خلال صورهم الفوتوغرافيه بتشابه كبير معهم لكنى اكتشفت اننى حينما ارسم هذا لا اقول رأيى وكان لابد ان أقوله ولا يوفر لى هذا الا فن الكاريكاتير .

وكان التشجيع من الأسرة دائما إلا فى ايام الدراسة فقد كانوا يقفون ضدى وكان ذلك فى اواخر الخمسينات وكان أبى يشترى لى علب الالوان والاوراق وحجرتى كلها مكتظه بالرسومات مما يحدث ارتباكا فى شكل البيت .. ولم اكن قد عرفت بعد كيفيه تنسيق المكان فأى رسمه كنت ارسمها حسنه أم سيئه الصقها على الحائط !!

بعد ذلك بدأت انتقى لوحاتى وأتخير منها ما يمكن ان يوضع على الحائط فيعطى تأثيرا نفسيا مريحا لمن يراه .

★ أول عمل نشر لك .. كيف كان وقعه على نفوس اسرتك ؟

— حدث هذا فى مجله سمير التى ارسلت اليها وقلت لمحررها انا عبد العزيز تاج من دسوق وهذه رسوماتى فما رأيكم ؟!! ورد على بقوله لقد اعجبنا رسمك فواظب على الرسم حتى تصبح رساما كبيرا!! وكان ذلك العدد صادرا يوم عيد قرأت الرد فاشتريت عشر نسخ وجريت الى المنزل فأخذت والدتى يرحمها الله المجلة وقبلتها

ومن يومها قررت ان ارسم للصحافه بعد ان رأيت حروف اسمى مطبوعه لاول مره

وقد شاء القدر بعد ذلك ان اعمل بمجله سمير هذه واصبحت رسامها لمده ست سنوات وكنت سعيدا لان انتقل من صفحه القراء والهواه الى رسم أغلفتها.

الدواء المر

★ من دفعك للأمام فى بداياتك من الفنانين الموجودين حينذاك ؟

ـــ ساعدنى أولا الفنان الكبير المرحوم حسن فؤاد وناجى كامل رسام الاهرام اثناء دراستى فى الفنون الجميله التى التحقت بها بقسم الجرافيك وهو يخرج رساما صحفيا فدرست الرسم الصحفى على اصوله لمده خمس سنوات بالكليه .

★ كيف يمكن للكاريكاتير أن ينتمى للفنون الجميلة وهو يعتنى باظهار القبح اكثر من الجمال ؟!!

ـــ من قال ان الكاريكاتير يظهر القبح ؟! انه يظهر مواطن الضعف فى الانسان لكى يتقيها فيكون جميلا فالجمال هو الهدف وحين ارسم السيده المهمله فى نفسها وبيتها وسكان شارع لا يهتمون بنظافته فأنا أظهرهم بشكل قبيح لأدفعهم الى اتقاء القبح والتعرف على الجمال والعنايه به .. فانتقادنا هنا لصالح الانسان وليس ضده وليس كل الكاريكاتير قبحا فعلا هو به تضخيم لبعض الملامح البشريه لإظهار جمالها ورغم اننا ننظر اليه كالدواء المر الذى نتألم منه لكنه يشفى مرضا ، فهو شئ جميل فى هذه الحالة .

★ أين موقعك من فنانى الكاريكاتير .. من يسبقك ومن يتلوك ؟!!

ــ نحن فى هذا المجال أجيال : جيل العمالقه مثل رخا وعبد السميع وطوغان وزهدى ثم جيل ناجى وحجازى وبهجت والليثى وجورج واللباد ومصطفى حسين وحاكم والاخيران فى الصوره الان ولهما تأثير فى رسامى الكاريكاتير والقارئ ونحن الجيل الثالث جمعه ورؤوف وانا ومحسن وفى الكاريكاتير فى رأيى ثلاثه فقط من ناحيه التأثير اكبرهم مصطفى حسين وحسن حاكم وبهجت ونحن الذين نتلوهم مباشرة ونكمل مسيرتهم وعددنا بصفةعامه صغير نكاد نعد على أصابع اليد الواحده .

★ أهناك أزمه فى رسامى الكاريكاتير ؟!!

ــ طبعا .. أزمه كبيره والسبب انها مهنه صعبه جدا لأنها تعتمد على الفكره قبل اعتمادها على الخط .فالمفروض ان الرسام يملك اسلوبا مميزا حتى اذا لم يوقع تشير خطوطه اليه مثل نبره الصوت فى مجال الطرب فنحن نتعرف على اصوات ام كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم حين اذاعتها بغير اشاره من المذيع

ولأجل ان يصل الرسام الى هذا فهو فى حاجة الى ثقافة خاصه وعالية غير أى فنان تشكيلى اخر عليه ان يفهم فى الذرة والسياسه وعلم الاجتماع والاقتصاد لانه يخاطب كل الناس فى جميع أرجاء الارض .

★ بمناسبه عملك فى السعودية عدة سنوات ما هو تقييمك للكاريكاتير فى منطقة الخليج :الكويت والسعوديه والامارات وقطر والبحرين ؟؟

ــ الكاريكاتير هناك متقدم وهناك رسامون سعوديون على مستوى عال ومتجددون باستمرار ويعجبنى فنانون لبنانيون وسوريون وفنان ليبى اعتبره من

احسن رسامى العالم فى هذا المجال اسمه الزواوى وهو صديق شخصى تعرفت عليه فى احدى زياراتى لليبيا رأيت عمله وسعدت كثيرا أن فى وطننا العربى فنانا كبيرا مثل الزواوى .

★ لو كان ابنك او ابنتك دارسه فى كليه الطب ورغبت فى ترك مهنه الطب واتجهت الى فن الكاريكاتير فماذا تقول لها او له ؟

ـــ أقول بلاش يا ابنى لأنها مهنة صعبه وشاقه إلى أبعد الحدود .. القارئ يطلع على النكته او الفكره فى ثانيه ولا يعرف ان وراءها يوما كاملا لأصطيادها وتوصيلها بهذه الخطوط والاسلوب وهو ما يستغرق حوالى خمس او ست سنوات لكى يستقر الفنان على سمة محدده له يمكن ان يقال عنها اسلوب مميز لهذا الفنان .

والصحافه لا ترحم فاذا كان لى مكان ثابت فى جريده يوميه فليس من حقى أن امرض أو اسافر ويجب ان تكون درجه حرارتى ثمانين درجه مئويه وعمل شئ جيد وجديد .

مليونير واحد

★ أهذا هو المبرر الوحيد ام ان هناك مبررات اجتماعيه اخرى لمنع ابنك من ممارسة مهنتك ؟

ـــ هذا هو المبررالوحيد

★ ومن ناحيه المكسب المادى ؟!!

ـــ هو مجز الى حد كبير لأن عددنا قليل والصحافه تحتاجنا بشكل دائم .

★ ايمكن ان يكون مليونيرا من دخل الكاريكاتير ؟!

— فى اوروبا يمكن لكنى لا اظن فى الشرق الاوسط

★ ألايوجد مليونيرات فعلا من هذه المهنة؟!!

— بصراحه هناك مليونيرات فعلا .

★ من هم؟!!

— واحد فقط ..!!

★ أنت؟!!

— لا طبعا .. ولا أستطيع ان اقول اسمه .

★ الزواج نعمة ونقمه .. ماذا عنه فى حياتك ؟!!

— زوجتى اعرض عليها افكارى مجتمعه فما تعطينى فيها عشرة على عشره انفذها وما تعطينى فيها ٩ من عشره لا انفذها ..فيجب ان آخذ رأيها لانها واحدة من القراء .

المرتزقة

★ فى كثير من المجالات مجموعات من المرتزقة والأدعياء أيوجد مثل هؤلاء فى مجال الكاريكاتير ؟

— نعم كأى مجال اخر قد تجد من لا يعرف الرسم لكنه يستخدم اساليب النقد اللاذع اكثر مما يجب فيقدم افيهات ويتصور ان هذا نجاح لكن الكاريكاتير فن راق فهو يدخل البيوت بدون استئذان فلا استطيع ان اضع لفظا يسيئ الى طفل يقرأه .. يجب انتقاء اللفظ للتعبير عن الفكره .

★ كيف تتعاملون مع هؤلاء ؟!!

ـــ بالتجاهل التام .. وهم يحسون بهذا وعددهم قليل جدا :واحد أو اثنان ،

★كم – تقريبا – عدد رسامي الكاريكاتير الذين تعترف بهم في مصر ؟!

ـــ الذين أعترف بهم لا يزيدون على ستة !!

★ من هم ؟

ـــ حسن حاكم ، ومصطفى حسين ، وبهجت وحجازى وناجى..

★ هؤلاء خمسة.. وأنت السادس !

ـــ قبلى كثيرون!!

★ لو قلت لك اطرد واحدا من ملعب الكاريكاتير .. فمن يكون ؟

ـــ لا أستطيع أن اطرد واحدا.. فكل له اسلوبه وطريقته .. مثل أنواع الطعام تماما .. لدينا الفجل والتفاح !

★ أنت الآن تخوض تجربة جديده بتقديم الكاريكاتير فى التليفزيون .. فما هى السمات المحددة التى يتسم بها الكاريكاتير على الشاشة الصغيرة وتختلف عنه فى الصحف ؟

ـــ فى التليفزيون لا أكتب له تعليقا .. لكى يفهمه كل المشاهدين – وبعضهم أمى – ولكى تصل الفكرة بسرعه.. أما الجريده فمن يشتريها مثقف أو قارئ .

★ ماذا تختار من الاثنين : التلفزيون أم الصحافة ؟!

ـــ التليفزيون .. فتأثيره أكبر وأوسع .



زهدى .. شيخ الكاريكاتير:

أنا من بلد العبط .. الذين « عزموا » القطار !!

احترفت هذا الفن .. مضطراً !!

الكاريكاتير انحط .. عن بداية نشأته !!

حزب « السبعةونص » ... له الفضل !!

فى الموعد المضروب بينى وبين الفنان زهدى طرقت بابه ففتح لى شيخ أسمر نحيف قامته أميل إلى القصر ، يرتدى « بيجامة» رمادية باهتة فتبدو كأنها عديمة اللون ، ومن فتحتها العارية تطل « الفانلة » .. زياقتها مثنية .. ويلبس الشيخ «شبشباً » مقطوع الفردة اليسرى ..

قلت له ــ بعد أن فتح الباب ــ الأستاذ زهدى موجود ؟؟ قال : نعم .. ولم يدعنى للدخول .. فدعوت نفسى ودخلت مقتحما إياه ، وأنا أقول له : عرف الأستاذ زهدى بوصولى .. ثم جلست . فأقبل إلى هذا الرجل وقال : أتشرب شاياً أم قهوة ؟! قلت له : قهوة زيادة !! فأحضرها لى واضعا كوب القهوة فارغا والقهوة فى الكنكة . فانتظرت أن يصب هو القهوة متسائلا فى نفسى ياله من «شغال» غريب لماذا لم يصب لى القهوة ؟! ولكنه بعد برهة أدرك انتظارى فصبها لى . وشربت ، وعدت أسأله وقد جلس إلى جوارى : أين الأستاذ زهدى أنائم هو أو خرج ؟؟ فرد بصوت خفيض هامس : أنا الأستاذ زهدى !!!

حينها أغرقنى الخجل فى عرق ، وجف حلقى وتلعثمت وغمغمت بمزيج من الأحرف المتقطعة والاعتذارات .. ثم صمت .. وقلت له : هل يمكن أن نبدأ حوارنا فاستمهلنى حتى أشرب القهوة فظننته سوف يرفض الحديث ..

لكن زهدى الفنان الكبير الذى خرجت عدة أجيال من عباءته ، والذى ارتبط الكاريكاتير وتاريخه باسمه امتص خجلى وظل متبسطاً سهلا ــ فسألته :

★ الفنان زهدى مدرسة كاريكاتير .. من أسسها ومن تلامذتها ؟!

ــ ليس « عندى» مدرسة .. وأنا فى الأصل نحات ، واضطررت أثناء الدراسة بالفنون الجميلة أن أحترف وأتكسب من الكاريكاتير .. وبعد التخرج رأيت أن النحت لا يصل إلى الناس ، ولكى يصل النحات للناس لابد له من « عـزوة » لتساعده فى إقامة تماثيل بالميادين والشوارع وليس لى « عزوة » .. فكان الطبيعى أن ألجأ إلى الكاريكاتير للاستمرار فى الحياة .

ومن ناحية « التكنيك» لا أستطيع أن أدعى أنى مدرسة ، لأن كلمة مدرسة هذه فيها تجميد .. وإذا ثبت الفنان على أسلوب معين سيظل على هذا الأسلوب. المدرسة تكون حين توجد نظرية تستقر ، ولها دارسون من داخلها يفكرون ويطورونها..

أما مجرد أن يرسم الفنان رسوماً تتميز عن غيره بطريقتها الخاصة فهذه مزايدة إذا سميتها مدرسة . !!

(احسن ناس !!)

وفيما يتعلق برسم الكاريكاتير ، حتى الآن لا توجد له أية دراسات نظرية أو قواعد تجعل الكاريكاتير يمكن أن يدرس ويوضع له مقياس من المقاييس . أما ما نفعله الآن حين نقيم العمل فنحن نأخذ بالمقاييس الفنية والأدبية العادية : الجماليات والتناسب ثم نستخدمها . أما الكاريكاتير نفسه فلابد أن يكون له إضافة أخرى خاصة به غير موجودة بغيره . ومن هنا لا نستطيع أن نقول إن هذا الرسم كاريكاتير وذاك ليس كاريكاتيرا .. فهو فى مصر حتى الآن مجرد اجتهاد ذاتى ، وأظن كذلك فى الدول الأجنبية فحين سافرت أوربا سألت عن دراسات حول الكاريكاتير فقالوا إنها جميعا « اجتهادات » من فنانين ولم ينظر له حتى الآن ... إلى أن يأتى من يملكون القدرة على التنظير . وأدعو أهل النقد والعلم ومن لهم باع طويل فى النقد الأدبى والفنى أن يبدأوا فى مناقشة احتياجات الكاريكاتير وأسسه النظرية التى يمكن أن تجعله مادة علمية تدرس بناء عليها .

★لماذا لا تحاول أن تفعل هذا بنفسك وأنت لست مبدعاً فقط بل أنت مؤرخ أيضا لهذا الفن ؟!

ـ لا أريد أن أتعدى الحدود التى أستطيعها !! فعلم الجمال مثلا ـ وهو بحر ـ ألمس منه جزء أ ولا أظنه كافيا لأن أنقد .. ثم إن المكسب الحقيقى ليس فى وضع النظرية فقط بل أن يوجد من يهتم من رجال العلم والمقدرة على النقد من

يقول هذا حسن وهذا قبيح . فلو سألت الآن رساما : الكاريكاتير لدينا متقدم أم متخلف ؟! سيعجز عن الإجابة .. وإذا أجاب بتقدمه فهذه الإجابة امتداد لفلسفة كنا نعيش عليها أيام الاحتلال بأن نرفع من روحنا المعنوية ونقول إننا «أحسن ناس»

ولو نظرنا اليوم إلى الكاريكاتير من ناحية المساحة نراها أقل مما بدأ سنة ١٩٢١ ، ومن ناحية التنوع يكاد يكون منحصراً فى مسائل خاصة بالخدمات والحياة اليومية ومعاناة الشارع ، أما فيما يتعلق بالعلاقات الاجتماعية فيكاد يكون غائبا تماماً وحتى فى الجانب السياسى نفسه أصبح متهرئا وضعيفا . لأنه من قبل كان مجاريا لمعركتنا التى نعيشها ، وكانت هناك صراعات بين اراء واتجاهات وسخونة كبيرة بناء على هذا .. أما نحن الآن فكاننا إنسان وقع فى « بركة » «كعبلت» رجليه فلا يستطيع الخطو ... بالإضافة إلى أن كثيرا من رؤساء تحرير الصحف لا يعرفون شيئا عن الكاريكاتير سوى أنه « مضحك» وهذا غير صحيح . لأنه ليس مضحكا فقط. فإذا كان الوعى بدور هذا الفن وطبيعته غير معروف لديهم ، فكيف يقدمونه ؟! فحين يقدم رئيس التحرير على غلاف مجلته المقروءة رسماً كله نفاق ومن ناحية الفن سيئ جداً ، ولو « عيل » يرسم يتفوق عليه ، .. فلا ألوان جميلة، ولا توضيف ، ولا فكرة . إلا يحق لنا حينها أن نحكم على الكارياتير بأنه انحط ؟!

فى مصر كانت فترة الكاريكاتير المزدهرة حين ظهرت مجلة (صباح الخير) عام ١٩٥٦ كانت قمة .. والنجاحات الموجودة حاليا جزء من انتاج هذه المجلة . وكان من قبل كتيبة من المفكرين والمثقفين: أحمد بهاء الدين ، كامل زهيرى، حسن فؤاد ، صلاح عبدالصبور ، فتحى غانم ، صالح مرسى .. كانت كل هذه العقول متوفرة لهذا العمل . وكنا نستطيع أن نقول إن لدينا كاريكاتيرا فعلا .. ثم رحل حسن فؤاد ومرض بهاء .

★ إذا لم يكن الدور الأول للكاريكاتير هو الإضحاك فماذا تراه يكون ؟!

– فى أثناء الحرب العالمية الثانية كان هتلر يهدد الجزر البريطانية .. وقال تشرشل : لم يبق أمامنا إلا الدماء والدموع . فى ذلك الوقت لعب الكاريكاتير دوراً.. بدأ يعبئ القوة لمقاومة الغزو المنتظر .. وقد رسم أحد الفنانين النيوزيلنديين رسمين أحدهما لعجوز متهالك وعلى ظهره منجل وفى يديه ساعة رملية : يمثل الزمن ويجرى إلى جوار هتلر الذى يسابقه ومكتوب تحته : الصراع المصيرى بين هتلر والزمن .. أى إذا تأخر هتلر يوما واحدا فى غزو الجزر البريطانية فقد خسر . أى أن المعركة هى كيفية تعويقه .

الرسم الثانى لجندى بريطانى واقف على صخرة وسط بحر هائج ومن بعيد ينظر إلى السماء ليلاً وفى الأفق أشباح لطائرات الغزو ، والجندى يمسك البندقية بيدويلوح للسماء الملبدة بالغيوم بالأخرى ويقول : « فليكن .. وحدى » ذلك بعد سقوط فرنسا .. فالرسم الأول استحضر الناس وحفزهم للمقاومة وبالثانى .. يتحدى رغم انفراده .. وهذا رفع الروح المعنوية للحلفاء .. فهل فى هذا الرسم إضحاك ؟!

وعندنا فى مصر حين هجم الانجليز والفرنسيون على بورسعيد ١٩٥٦ أرسلنا بطاقات صغيرة مرسوما عليها كاريكاتير وبها كتابات تهدد الجنود وتطالبهم بالعودة لبلادهم وألصقناها على الحوائط وفى معاقل الجنود الغازين أنفسهم وحتى على الدبابات الواقفة فكانوا يجدونها فى كل مكا ن ينظرون فيه ولم يبق إلا أن نلصقها على قفاهم !!

★ أريد أن أقول إن الإضحاك ليس هدفاً للكاريكاتير بل هو وسيلة له .. ولابد أن تكون هذه الوسيلة متوافرة وإلا فهو كالمقالة الصحفية والمسرحية التراجيدية

والقصيدة والتمثال .. فالضحك هو الوسيلة التى يمتاز بها إذا كان لابد من أن يمتاز على غيره من الفنون الأخرى بعنصر مهم ..

ـ أنا لا أنفى عنه الضحك .. بل أقول ليس بالضحك وحده يكون الكاريكاتير.. إنما هو يعمل على إثارة مشاعر وأحاسيس أخرى مع الضحك . قد يكون الضحك أكثرها . لكن هناك غيره .. كما أن للضحك أنواعاً .. هناك ضحك السخرية ، وهذا متكأ الكاريكاتير .

(أبو نضارة والكشكول)

★ هناك سؤال ربما نعود به عشرات السنين إلى الخلف : كيف كانت الإرهاصات الأولى لفن الكاريكاتير فى مصر .. مع من ؟ ومتى ؟ وكيف بدأت ؟!

ـ البداية ـ وأظنك تقصد الكاريكاتير المرسوم ـ فى عهد الخديوى توفيق وبعد نكسة عرابى .. كان جمال الدين الأفغانى بمصر ومعه الشيخ محمد عبده والتقيا مع يعقوب صنوع اللبنانى المتمصر ـ ويلاحظ بهذه المناسبة أن أهل الشام عندما يرتبطون بمصر يكونون أشد مصرية من المصريين أنفسهم ـ هؤلاء الثلاثة قرروا أن يصدروا مجلة .. ولم يكونوا قد أطلقوا عليها اسماً بعد ، وأثناء مسيرهم ليلاً وجدوا « المكارى» أى الذى يؤجر الحمير للركوب حينذاك – وجدوه ينادى على يعقوب صنوع : « تعال يا أبو نضارة » فأسموها (أبو نضارة) : كانت هذه بداية الكاريكاتير ليس كرسم فقط ، بل فى الأدب أيضا كاريكاتير ، لأنها كانت تحرر بأسلوب كاريكاتيرى .

ولأن (أبو نضارة) هذه ظهرت كطليعة صحفية فكل المجلات التى تلتها جاء فيها روح الكاريكاتير : فى الاسم ، فى الموضوعات ، فى الشعار .

★ يمكن أن تندرج هذه المجلة تحت عنوان (الأدب) الساخر وليس الكاريكاتير !!

– سمها ما شئت .. المهم أن الأمور كانت متعثرة أمام هذه المجلة ، ولم يكن لدينا « زنكوغراف » ..

★ أكانت بها رسومات كاريكاتير ؟

– بدأ فيها فعلا لكنه كان يحفر في إيطاليا في شكل « كلاشيه» ويعود إليها بمصر .. حتى وقوع الحرب العالمية الأولى وأحضرت انجلترا مطابع في مصر فاستخدمت ..

وبعد ثورة ١٩ أى فى عام ٢١ ظهرت أول مجلة كاريكاتير منتظمة أسبوعيا وهى (الكشكول) وبعدها بثلاث سنوات ظهرت مجلة (خيال الظل) . هاتان هما المجلتان اللتان تعتبران بداية الكاريكاتير الحديث فى مصر .

★ أكانت الأسماء التى تعمل بهذه المجلات معروفة ؟

– كان سليمان فوزى صاحب الكشكول ورئيس تحريرها . وكان يمثل اتجاه الأحزاب المنشقة على الوفد وأهمها الأحرار الدستوريون .. وحزب (السبعة ونص) وكان يضم مجموعة من سبعة أشخاص وشخص قصير !!

★ أكان واحداً أم واحدة ؟!

– كان رجلا !! وكان هدف الكشكول هذه الحد من شعبية سعد زغلول وانضم لها عبدالخالق ثروت وعبدالعزيز فهمى .

كان يرسم الكشكول أستاذ حفر كبير فى مدرسة الفنون الجميلة التى أقامها الأمير يوسف كمال .. كان هذا الرسام اسمه (جوان سانتوس) من أصل أسبانى وأسلم. وقد ظهر الكاريكاتير فى العالم كله من سكة الحفر (الجرافيك) .

أما (خيال الظل) فقد بدأت برسام « تعبان» اسمه (چى رومانوس) من إحدى دول البلقان . ولم يكن أحد يعرف عن شخصيته أى شئ غير أنه رسام ضعيف أعماله كرسوم الأطفال والموالد ، وجاء بعده رسام مجيد كان مهندساً وضابطا بالجيش التركى وهاجر إلى مصر بعد سقوط الخلافة العثمانية واسمه (على رفقى) فأبدع رسوماً عظيمة لدرجة أن رخا كان يقول : ظللت أعبد رسوم سانتوس .. وبعد أن رأيت أعمال رفقى تراجعت عن ذلك الموقف !!

وبعد هؤلاء جاء صاروخان فى الكشكول أولاً بعد أن حصل سانتوس على أجازة فبحثوا عن رسام فوجدوا أرمينياً فى معمل حفر كان هو صاروخان .

(قافلة الكلاب !!)

★ أتتذكر بعض النماذج لكاريكاتير ذلك الزمان ؟

ـ كانت تحدث معارك بين الكشكول وخيال الظل ، والموضوع غالبا رسم واحد .. فالخيال مثلا يرسم سعد زغلول على رأس قافلة من الجمال وزعماء المعارضة له كلاب على الرصيف تنبح . والتعليق تحته : الكلاب تنبح والقافلة تسير !! فيرسم الكشكول نفس الرسم مع وضع الكلاب على الجمال وسعد زغلول على الأرض . !!

وقد كان سعد زغلول كل خميس حريصاً على أن يراها أول استيقاظه صباحا قبل الإفطار ، ليعرف كيف يسخرون منه !! فكان القادة من قبل يتعاملون مع الكاريكاتير تعاملا صحياً وبروح رياضية أما الموجودون الآن ـ لإحساسهم بالنقص فى ذواتهم ـ فلا يحتملون انتقادهم والسخرية منهم !!

★ وماذا عن بداياتك الأولى فى هذا الطريق ؟

ـ بدأت بأحداث كوبرى عباس عام ١٩٣٥ .. وكنت واقفا بجوار الكوبرى الذى استشهد فيه كثيرون من الوطنيين ورسمت هذا الحدث فى ذاكرتى ثم

نقلته على ورق ، وأتيحت لى بعد ذلك فرصة الالتحاق بمجلة جديدة أصدرها محمد على غريب سنة ١٩٣٦ واسمها (غريب) .. رسمت فيها صور الشهداء وغيرها بعد ذلك .

★ أكانت هذه أول رسمة فى حياتك ؟

– لا .. رسمت من قبلها ولكن بغير انتظام . أما هذه فكنت أحصل فيها على مرتب جنيهين فى الشهر . !!

★ أتتذكر أول رسم فى حياتك .. أيام الطفولة ؟!

– أثناء دراستى الثانوية كنت أرسم رسوم الطلبة ... وقبل ذلك علمنى أبى – وكان يعمل مصوراً – كيف أكبر صورة بالمربعات . وأول صورة كبرتها بهذا النظام كانت لنابليون والثانية للأمير عباس حليم – شبيه نابليون – ولكنى كنت مغرماً بالنظر إلى هذا الفن من خلال مطبوعات أبى وأنا فى اندهاش من بساطة هذه الرسومات التى تعطى نفس انطباع الصور الفوتوغرافية .

★ ما هى أبرز الرسومات التى قدمتها فى السنوات الخمس الأولى من احترافك ؟

– أبرزها أننى شققت طريقة جديدة للرسم – أقلعت عنها فيما بعد – هى رسم البورتريهات بطريقة المكعبات بدلاً من الاستدارة . وكانت تصدر حينذاك مجلة اسمها (المطرقة) رأت هذه الرسومات فأعجبت رئيس تحريرها فاتفق معى على نشر الرسمة التى تعجبه بخمسين قرشا . كان ذلك ١٩٣٦ .

وحين قدمت نماذج من هذه الرسومات الى محمد التابعى ، (آخر ساعة) أعادها إلىّ فى ظرف مع خمسين قرشا

★ وأخذتها ؟!

–طبعا .. أنا لم أره هو .. أرسلتها مع ساع وعادت إلى مع ساع أيضا !! بعد ذلك اشتغلت بمجلة الشعلة عام ١٩٣٧ وهى مجلة وفدية .

★بكم سنة سبقك رخا إلى هذا الفن ؟

ـ هو يرسم منذ عام ١٩٢٦ كمحترف أما احترافى الحقيقى أنا فكان فى دار الهلال حوالى ١٩٣٦ ..

★ الخطوط التى بدأت بها وخاصة فى سنواتك العشر الأولى أمازالت تحتفظ بها حتى الآن ؟!

ـ الإنسان يتغير كل يوم . الشئ الذى يحتفظ به هو روح العمل نفسه ، والطابع العام ، وهو فى هذا شأن المجتمع نفسه الذى يتطور .

افضل منى !!

★ الكاريكاتير فى مصر بدون الفنان زهدى .. ماذا يكون ؟!

ـ « يبقى كويس قوى » !! .. هذا سؤال يدفع للحرج .. ولا أحب أن أتحدث عن نفسى ، ولا أريد أن أتهم نفسى بأننى مقهور ..يمكن أن أتحدث فى موضوع محدد ليس عن نفسى .

★ بصفتك مؤرخاً أيضا لفن الكاريكاتير ولست مبدعاً فقط .. فى تاريخ هذا الفن محطات وعلامات .. ما هى أبرزها ؟؟

ـ القول بأننى مبدع .. هناك من هو أفضل منى إبداعاً .

★ مثل من ؟!

ـ حجازى .. رسام لا يشق له غبار ليس فى جودة الرسم فقط بل فى تجميع الفكرة خفيفة الظل ، المقبولة ، المشوقة وبهجت نفس المستوى .. أما من ناحيتى

فلست أملك هذا .. أنا أقل هذه المجموعة من ناحية (التكنيك) وأعرف هذا جيداً لأن أصلى نحات . الفكرة لدى يمكن فعلاً أن أتفوق فيها .. والتأريخ حقا تقدمت فيه لفراغى له ، وقد أتيحت لى الفرصة لأعرف . وكان لدى منذ بداية علاقتى بالكاريكاتير اهتمام بتجميع أكبر قدر من المعلومات عنه فى العالم . ولدى مكتبة كبيرة وأطمع فى العثور على إنسان جرئ يريد أن يقدم خدمة عظيمة للثقافة بإنشاء مكتبة للكاريكاتير . وهى تحتاج لرجل متمكن ماليا لتوفير مقرو أجهزة أما تحصيل الرسوم نفسها وترتيبها وتبويبها فلدى أكثر من حل .

★ يمكن عرض هذه الفكرة على وزير الثقافة ..

– لا أريد الدولة .. أريد مواطنا يتطوع لها وهناك من يحب النكتة ويبحث عنها. وكمشروع مثمر يمكن أن تعود من ورائه فائدة مادية فيمكن من خلاله إنشاء دار نشر كاريكاتير .

★ هل أنت قاهرى المنشأ ؟!

– أنا من منيا القمح بمحافظة الشرقية ، والتى يسمونها (بلد العبط) .. فيقولون : الشراقوة عبط .. عزموا قطار السكة الحديد !!! وباعوا الثور لأم قويق !!

★ هل كتبت نكتا فى هذا الموضوع ؟!

– إننا نتداولها مع بعضنا فقط . فمن ضمن ميزات مصر منذ عهد الفراعنة أن الأقاليم (تتريق) علي بعضها فيقولون مثلا عن سكان مناطق الساحل : (مية مالحة ووشوش كالحة) !! وعن الدمنهورى يقولون : (ألف نورى .. ولا دمنهورى) !! وغيرها وهى موروثات فى طبيعة الشعب المصرى . هو يحب التنكيت على نفسه !!

★ كان الميلاد بمنيا القمح .. فأين كانت النشأة والتربية ؟

– فى الزقازيق حتى عام ١٩٣٣ حتى انتقلت إلى القاهرة.

★ ما هو عام مولدك ؟!

– ١٩١٧

★ مادام والدك كان مصورا .. فمن الطبيعي أن يكون للبيئة أثر كبير فى تشجيعك لخوض هذا المجال .. أليس كذلك ؟!

ـ بالتأكيد .. كان يهمه أن أهتم بالرسم .

(تفكك اسرى !!)

★ أسرتك الحالية : الأبناء والزوجة .. كيف يرونك كفنان ؟!

ـ مشكلات الحياة الراهنة تجعلهم لا ينظرون لهذا الموضوع أبداً .. كانت والدتى رحمها الله ـ هى التى تهتم بفنى وتنظر لى بفخر .. وإخوتى أحيانا قليلة يتحدثون معى فى هذا المجال ويقولون: نحن نراك بالتليفزيون !! وبعض أقاربى لم يرونى أبداً

وأسرتى الصغيرة هى زوجتى وأنا وابنتى المتزوجة فقط . وزوجتى لاتسأل ولاتهتم بأعمالى هذه لأنها ـ كتربوية كبيرة ـ مشغولة بمسئولياتها .. ونحن فى منزلنا هنا لا نتحدث عن الفن بل المشاكل العادية التى تشغل الناس فى وقت ما مثل زيادة أسعار التليفونات ، والكهرباء وهجمات الإرهاب .

★ فمن هو إذن أول من يرى عملك الإبداعى ؟!

– أرسم فى استعجال .. وأذهب به إلى روز اليوسف وأول من أقابله دائما هو الحاجة سعاد رضا عضو مجلس الإدارة المنتدب ، وهى تفهم فى الفكاهة والمرح وتدعو للفرح ، فأجرب رسمى فيها . !!

★ هل تتذكر أشهر الرسومات التى قدمتها على مدى تاريخك ؟

ـ رسومات غالبا مرتبطة بالحادث . أذكر مثلا أن فترة ما قبل الكفاح المسلح فى القناة ضد الانجليز فى حوالى عام ١٩٥٠ كان وزير الخارجية الوفدى محمد

صلاح الدين عائدا من انجلترا في مفاوضات مع وزير خارجتها للجلاء .. فقال إن الانجليز يطلبون منا الصبر والتأني ، فرسمت فكرة كان صاحب الفضل فيها الشاعر مأمون الشناوى .. رسمت محمد صلاح الدين جالسا على رصيف قصر الدوبارة مقر المندوب السامى الإنجليزى ، وهو ساند رأسه بيديه وأسنانه العليا بارزة تغطى شفته السفلى ، ورسمته وبرأسه جرح وحوله « طوب وحصى » ساقط فى الأرض ويرمى عليه مواطن .. طوبه .. مكتوبا عليها « طوبة لمن صبر» !! فسر هو نفسه منها وضحك كثيرا .

وقد أصدرت مع الراحل صلاح حافظ كتابا عند بداية الاحتلال الانجليزى لمصر فى أحد أعمالى به رسمت عربة نقل وعليها صندوق جلس عليه السائق (الحكومة) ووراءه صندوق آخر يجلس عليه (خواجه) أجنبى . والسائق يشد لجام الحصان والأجنبى بدوره يضع لجاماً فى فم الحكومة ويشد هو أيضا فيسوق كل منهما غيره !!

وحين أعدوا لإصدار العدد الأول من صباح الخير طلبوا منى رسماً دعائيا له فرسمت شاباً يسير فى الطريق وينظر إلى حسناء ويقول لها صباح الخير وأمامه بلاعة ورجله على وشك السقوط فيها .. وفى العدد الثانى كنت أشاهد فيلما سينمائيا وكان مجرد شعر وموسيقى لا تمثيل فيه ، ووراءنا جالس أحد المواطنين فلما لم يجد قبلات وأحداثا ساخنة قال لصاحبه بجواره : «يللا بنا .. احنا مش صيع علشان نتفرج على الكلام ده » ! فاستفزنى قوله ورسمته صاعدا السلم حاملا حذاءه فى فمه !! ويقول لزوجته وهو عائد إليها فى الفجر : صباح الخير!! وكان اسم هذه الشخصية سالم افندى



العنـوان | الصفحة

صدر للكاتب

* الشعر

ـ فصل من التاريخ الخاص (ديوان)........................ هيئة الكتاب ١٩٨٩ .

ـ اليوم العاشر (ملحمة) طبعة أولى.......................... هيئة الكتاب ١٩٩٣ .

ـ الميلاد غدا (ديوان) .... هيئة الكتاب ١٩٩٦ .

ـ مذكرات فلاح (ديوان)... هيئة الكتاب ١٩٩٩ .

ـ وهج (ديوان) .... مكتبة الأسرة ـ هيئة الكتاب ٢٠٠٠ .

ـ اليوم العاشر (طبعة ثانية) ....مكتبة الأسرة ٢٠٠١

* الدراسات :

ـ مع الضاحكين (فى الأدب الساخر)............. مكتب أوزوريس ١٩٩٥ .

ـ ديوان القاهرة (دراسات أدبية وتاريخية)...... صندوق التنمية الثقافية .
وهيئة الكتاب ١٩٩٨

ـ المغترب (حوار جيلين) .... هيئة الكتاب ٢٠٠٠

ـ الإبداع الجديد وقضايا المجتمع................ هيئة الكتاب ٢٠٠٢

* **وله تحت الطبع :**

- السيادة اللغوية (فى فقه اللغة)
- إلى سلوى (رسائل أدبية) .
- شيء ما .. بيننا (ديوان) .
- بنات للبيع (مسرحية) .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٥٠٠٥ / ٢٠٠٢

I.S.B.N 977 - 01 - 8093 - 9